

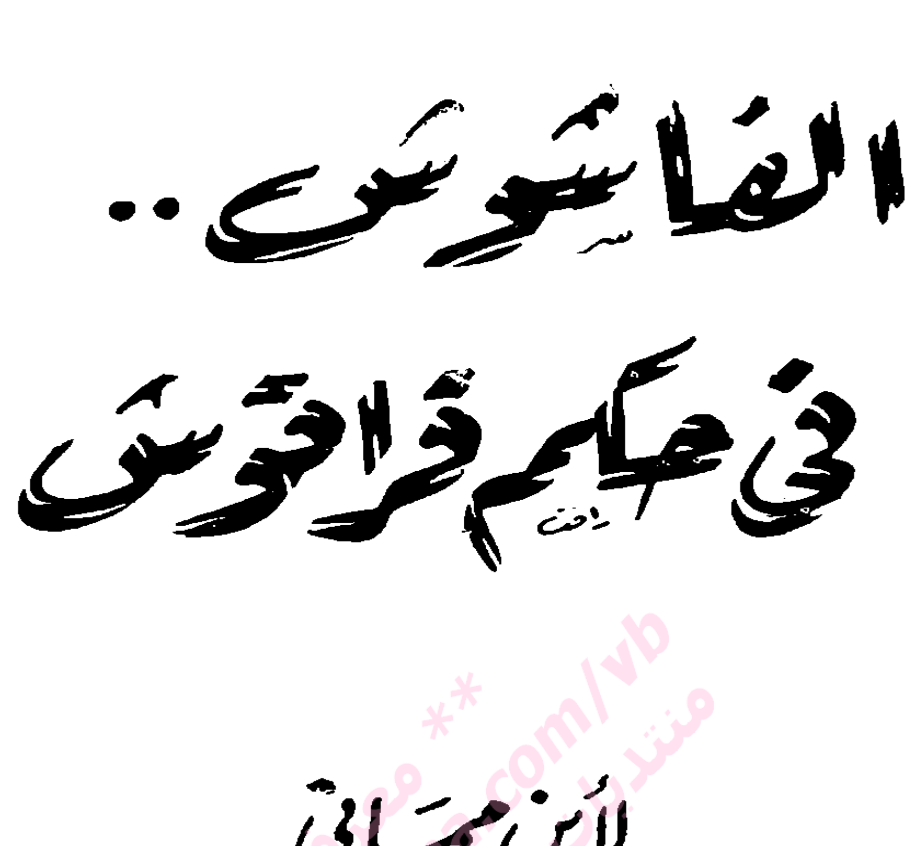
الفاشوش..
في حكم قراقوش

لابن مماتي

عبد اللطيف حمزة







عبد اللطيف حمزة



الثمن ١٠

مقــــدمة

فى دار الكتب المصرية كتاب لطيف عنوانه هكذا :

« الفاشوش فى حكم قراقوش »

وهو كتاب صغير الحجم كبير الاثر ، تحدث فيه مؤلفه عن رجل من رجالات التاريخ هو الامير بهاء الدين قراقوش ، عرفه المؤرخون بصورة ، ورسمه أديب اريب بصورة اخرى مخالفة لها كل المخالفة ، ومع ذلك بقيت الصورة الاخيرة فى أذهان الناس ، لانها صورة بنيت على الفكاهة والسخرية . .
والناس فى كل زمان ومكان يميلون الى المرح والمزاح ، وتهفو نفوسهم الى الضحك والتهكم .

والكتاب من وضع « ابن مماتى » ، وهو اديب قبطى معروف فى دولة صلاح الدين الايوبى ، سنعرض فيما بعد لشىء من سيرته .

وفى دور الكتب المختلفة فى العالم نسخ متعددة من كتاب هذا الاديب القبطى المشهور . ولسنا نريد تمحيصها او تحقيقها ، أو عرضها عرضا علميا على نحو ما . ولكنا مكتفون هنا باستخراج صورة واحدة لهذا الكتاب ، هى خلاصة لجميع الصور التى له فى تلك النسخ المتعددة .

ومتى فرغنا من عرض كتاب الفاشوش انتقلنا الى الكلام عن شخصية الامير بهاء الدين قراقوش كما عرفها التاريخ . . وسنعرف من ذلك أن الامير كان من عظماء دولة السلطان صلاح الدين ، بل كان من اولئك النفر القليلين الذين اعتمدت عليهم الدولة فى بنائها ، وفى بقائها منيعة فى نظر اعدائها ، مرهوبة الجانب منهم جميعا .

فاذا انتهينا من الكلام عن قراقوش انتقلنا الى الكلام عن مؤلف كتاب الفاشوش ، وعن مكانته فى الدولة الايوبية ، وعن بعض آثاره الادبية ، وعن الدوافع التى نرجح انها دفعته الى كتابة هذه الصفحة الساخرة من صفحات الادب المصرى فى العصور الوسطى . . الخ .

ولن نترك الكتاب حتى نتكلم في نهايته عن الطريقة التى سلكها ابن مماتى فى السخرية من الشخصية التى هى موضوع كتابه ، ونعنى بها شخصية بهاء الدين قراقوش . وسيجرنا ذلك الى الكلام عن السخرية فى الادب العربى ، والادب المصرى ، والادب الاوروبى .

أجل ، سنطوف بالقارىء فى مجالات الفكاهة العربية، والدعابة المصرية والسخرية الاوروبية ، ونقف معه عند كتاب وشعراء اشتهروا بالنكتة البارعة ، والسخرية اللاذعة ، وكان لكل واحد منهم طريقته فى ادائها . ومذهبه فى ابتداعها . وسترى ان ابن مماتى ينفرد دونهم بهذه الطريقة العجيبة التى تقوم على « التشنيع » أو خلق الاخبار العجيبة في موضوع من المواضيع، ثقة منه بأن هذا الاسلوب فى الحكاية هو السبيل الوحيد لهدم الرجل الذى اراد التشفى منه فى زمن لم يعرف الطباعة والصحافة ، بل لم يعرف من وسائل النشر والتشهير غير القصيدة الهجائية والرسائل النثرية .

وسوف نتبع القول فى هذا المجال بطرائف ومختارات عن السخرية والوانها فى الادب الغربى القديم والحديث .

والعجب من ذلك الكاتب القبطى الاريب كيف نال من رجل كهذا الرجل العظيم ، وكيف عبث بسيرته كل هذا العبث الخطير ، حتى جعل الناس فى مصر والشرق تشيع بينهم هذه العبارة : « حكم قراقوش » يرددونها على انها حقيقة وقعت ، ويضربونها مثلا على الظلم والجبروت ، أو على العته والسفه والتخبط المعيب فى اصدار الاحكام الجائرة، والاقضية الفاسدة ، والاوامر الشاذة المضحكة ونحو ذلك.

الواقع الذى ستعرفه من التاريخ الصحيح أن الامير بهاء الدين قراقوش لم يظلم ولم يتجبر ، ولم يصدر على الناس احكاما من هذا النوع ، بل لم يصدر فى عمل من اعماله عن عقل يمكن ان يوصف بالخبل او العته او الجور او التعسف ، وانه براء من تلك التهم التى كيلت له زورا وبهتانا، وزيد فيها على ممر الايام كما تؤلف الحكايات فى كل مكان حول (جحا) وحول غيره من الشخصيات الشعبية المعروفة.

فما هو السبب فى هذه الاحدوثة السيئة التى اشتهرت عن قراقوش ؟ وعلى من يقع الذنب فى هذه الصورة المشوهة التى مسخت تاريخه الابيض الجميل؟

سبب ذلك كله هو الادب ، والتبعة فيه تقع على الادباء ، وابن مماتى من هؤلاء ، هو الذى شوه سمعته ، ومسخ للناس صورته ، فاذا هى صورة تثير فى نفوسهم الضحك والازدراء ، واذا هى تصلح لان تكون مادة للسخرية من الحكام ومما يصدر عنهم من اعمال .

الا ما اقدر الادباء فى كل زمان ومكان على ان يقلبوا الحق باطلا ، والباطل حقا ، والسخيف من الاعمال حسنا ، والحسن سخيفا ! وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء اهملهم الادب ، فذهبت آثارهم ، ونسى الناس تاريخهم ومجدهم ، ورجال ليسوا عظماء ابى الادب الا ان ينهض بهم ، ويخلق منهم بالباطل ابطالا يتغنى الناس بمجدهم ، ويرددون ذكرهم ، وان لم يكونوا قط أهلا لهذا المدح او الاطراء ! !

وربما لم تصدق هذه المقالة على رجل من رجالات التاريخ كما تصدق على الامير بهاء الدين قراقوش . ولو علم الرجل ما قد خبأه له القدر من تلك الاباطيل التى قذفه بها رجل من رجالات الادب كابن مماتى هذا . لما ادخر وسعا فى تقريبه ، ولما قصر فى تملقه واسترضائه ، بالمال تارة ، وبالمقال تارة ، وبالمناصب العالية اذا اقتضى الامر . ولو فعل الرجل ذلك لاصبح له الكتاب والادباء ابواقا تذيع فضله ، وتعلن على الملأ مجده ، وتنسج حوله الحكايات العظيمة ، والقصص الرائعة ، حتى يسلكه الناس فى عداد الابطال ، ثم يأتى الخيال الشعبى نفسه بعد ذلك فيصعد بهذه البطولة الى درجة التقديس ، او مايشبه التقديس . وفى البشر استعداد قديم لان يرتفع بعضهم ببعض الى مثل هذه الدرجة التى تدل فى كثير من الاحايين على « كذب التاريخ » !

من اجل ذلك لانكاد نعرف دعوة دينية او سياسية او اجتماعية او اقتصادية قد استغنت يوما عن الادب او الصحافة ، او استطاعت ان تضرب صفحا عن هذه الادوات الفعالة فى الترويج والاذاعة ، حتى تحمل الناس جميعا على تصديقها ، والعمل لها ، والاخذ بناصر اصحابها ، لتبلغ النجاح المقصود من وراء تلك الجهود ! !

غير ان قراقوش ــ كما ستعرف من سيرته ايضا ــ كان جنديا لاخبرة له بالادب ، ولا علم له بالادباء ، ثم شاءت الاقدار أن

تسلط عليه لسان هـذا الاديب الذى كان يشغل منصبا كبيرا فى الدولة الايوبية .

ولأمر ما كتب هذا الاديب كتابه فى ذلك الجندى الغيور ، وجاء الكتاب سخرية مرة منه ومن طريقة حكمه ، وأقبل الخاصة والعامة على قراءته حتى استقرت فى أذهانهم صورة لهذا الرجل مخالفة كل المخالفة لحقيقته ، وصدق عليه قول القائل : « لاكرامة لنبي فى قومه وعشيرته » .

وانتقل كتاب الفاشوش من مصر الى غيرها من اقطار الشرق ، واتخذ فى كل قطر شكلا يتفق وميول أهليه ، وكانت النتيجة أن الناس فى جميع تلك الاقطار نسوا تاريخ الامير بهاء الدين قراقوش ، وأصبحوا لايذكرونه الا مقرونا بكتاب (الفاشوش) .

اما الآن فأن الامير العظيم بهاء الدين قراقوش يقف فى ناحية ، وابن مماتى ، وهو الأديب القبطى الاريب الذى كتب فيه هذا الكتاب ، يقف فى ناحية ثانية . ثم يأتى « التاريخ » فيقف بينهما ليحكم لأحدهما على صاحبه .

نعم سينظر التاريخ نظرة عادلة فى هذه القضية الخطيرة ، وسيجرى التاريخ فى نظره اليها على طريقته السهلة المعروفة ، وهى أنه يستعرض صفحة الامير بهاء الدين قراقوش ، ويتتبع أحواله وأعماله ، وينفذ الى أعماق نفسه ليتعرف على كل شيء من صفاته وأخلاقه ..

ثم يستعرض حياة الكاتب الكبير ، ويطلع على أحواله وأغراضه وصلاته بالناس فى زمانه . واخيرا يصدر الحكم ..

كتاب
الفاشوش فى حكم قراقوش

أول هذا الكتاب قول ابن مماتى :

« اننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش ، مخزمة فاشوش(١) قد أتلف الامة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم . الشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته ، ويشتاط اشتياط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان .. صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين ! »

ثم ساق الكاتب القبطى الاديب ما أراد سوقه من الحكايات الدالة على ذلك ، ومنها ما يأتى : ...

---

(١) الفشوش الأحمق . وافشفش الرجل ضعف عقله وافرط فى الكذب والادعاء . ومخزمة على وزن مكنسة ما يحزم به . والمعنى ان عقل قراقوش لا يحتوى على اكثر من الحمق والغباوة والعته والجنون ... الخ .

الحكاية الاولى

كان قراقوش رجلا صقلبيا ، يميل الى البيض ، ويكره السود •
واضطرته الظروف فى يوم ما الى الحكم بين امرأة حجازية ، وجارية لها تركية • وكانت هـــذه أول مرة يحكم فيها :

قالت الحجازية لقراقوش :

« ان هذه جاريتى قد اساءت الادب على • »

فنظر قراقوش الى بياض الجارية التركية ، وسواد الحجازية ، فقال للحجازية :

« ويلك ! خلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية ؟ ما أنا بأحمق او مغفل ! يا عثمان ودوا هذه الحجازية الحجرة ! »

فمكثت الحجازية شهرا ، وما لبثت أن عادت اليه تقول :

« انني قد أعتقتها لوجه الله تعالى » •

فقال لها قراقوش :

« ياسبحان الله ! انها هى التى تعتقــك ، فانك جاريتها ، وان أرادت أن تبيعك فانها تبيعك وان أرادت عتقك فانها تعتقك ! »

فقالت الحجازية للتركية :

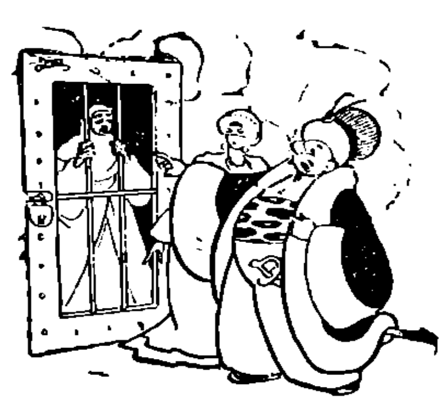
« اعملى معى مثل ما عملت معك • »

فقالت التركية :

« وما تريدين منى ؟ »

فقالت الحجازية :

« اذهبى الى قراقوش وقولى له انك تعتقيننى لوجـــه الله تعالى • »



فذهبت التركية الى قراقوش وقالت له :

« قد عتقت سيدتى الحجازية لوجه الله تعالى • »

فقال قراقوش : « جزاك الله خيرا • »

وخرجت الحجازية من السجن



الحكاية الثانية

جاء الى قراقوش ثلاثة رجال : أحدهم أجرود وليس له لحية ولا شارب . والآخران كبيرا اللحيتين . وقد تعدى الاجرود على كل منهما ونتف ذقنه من جذورها . فذهب الرجلان الى قراقوش وقالا له :

« يا مولانا بهاء الدين ، خذلنا حقنا من هذا الاجرود ، فقد نتف ذقوننا وخرق ثيابنا . »

فنظر قراقوش الى الاجرود وقال لصاحبيه :

« ويلكم نتفتم ذقن هذا الصبي وجئتم تشكونه الي . ودوهما الى الحبس ، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبي » !

الحكاية الثالثة

قيل ان امرأة أتت بولدها الى قراقوش فقالت :

« يا سيدى بهاء الدين ان ولدى يشتمنى • »

فأمر بحبسه سنة ، فلم تذق أمه تلك الليلة طعم النوم • فلما أصبحت راحت الى السجانين وقالت :

« ما الحيلة فى خلاص ولدى من هذا الحبس ؟ »

فقالوا لها :

« هاتى حلاوتنا ونعرفك ايش (أى شىء) تقولين للامير بهاء الدين قراقوش • »

فدفعت اليهم النقود ، وقالوا لها :

« روحى الساعة الى الامير ، وقولى له :

يا سيدى أنا امرأة حبست لى ولدى سنة كاملة ، وقد انقضت السنة ، فأخرج لى ولدى من الحبس • »

فأتت المرأة الى الامير قراقوش ، وقالت له ذلك فقال لها :-

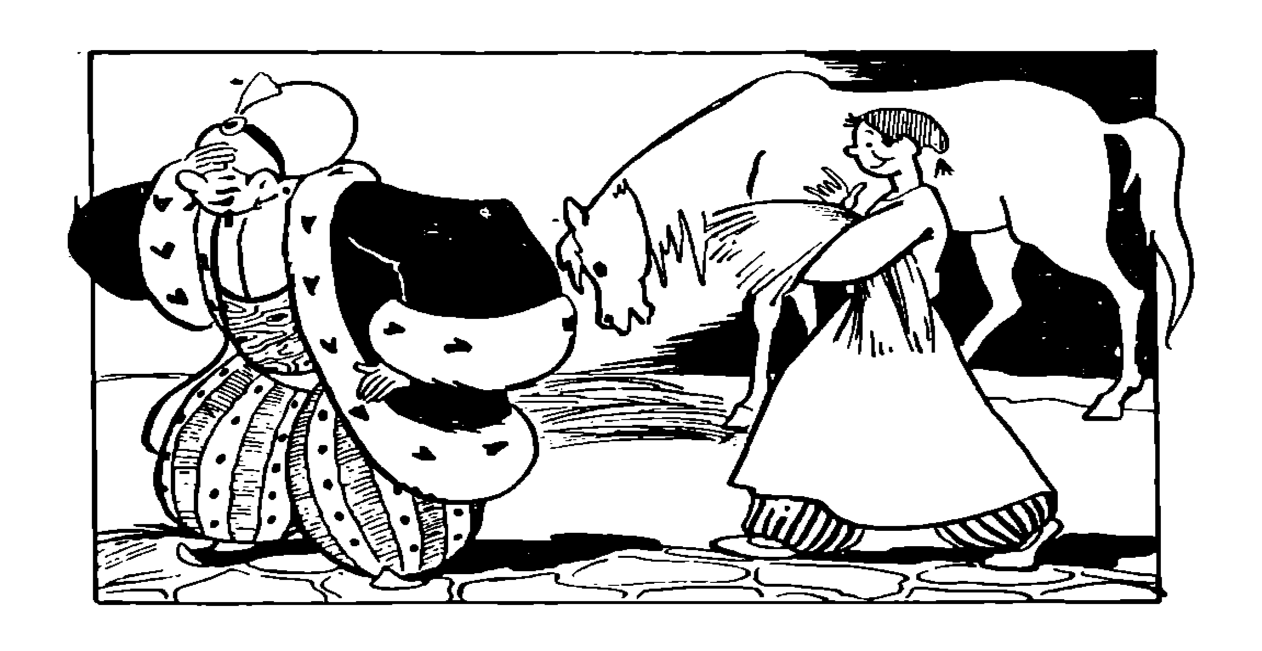
« روحى الآن ، فلا جدال فى أنه قد بقى له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغد » •

فمضت المرأة وأعلمت السجانين ، فقالوا لها : « هذه نعمة ، فاذا كان الغد فروحى اليه وقولى له : قد انقضت سبعة الايام ! »

فأصبحت المرأة وجاءت الى قراقوش • فلما نظر اليها قال :

« يا مرأة حتى تغرب الشمس !

يا غلام : اذا غربت الشمس فأطلق لها ولدها من الحبس • ولا ترجعى تجيبيه ، أو يحبسوه سنتين ! »



الحكاية الرابعة

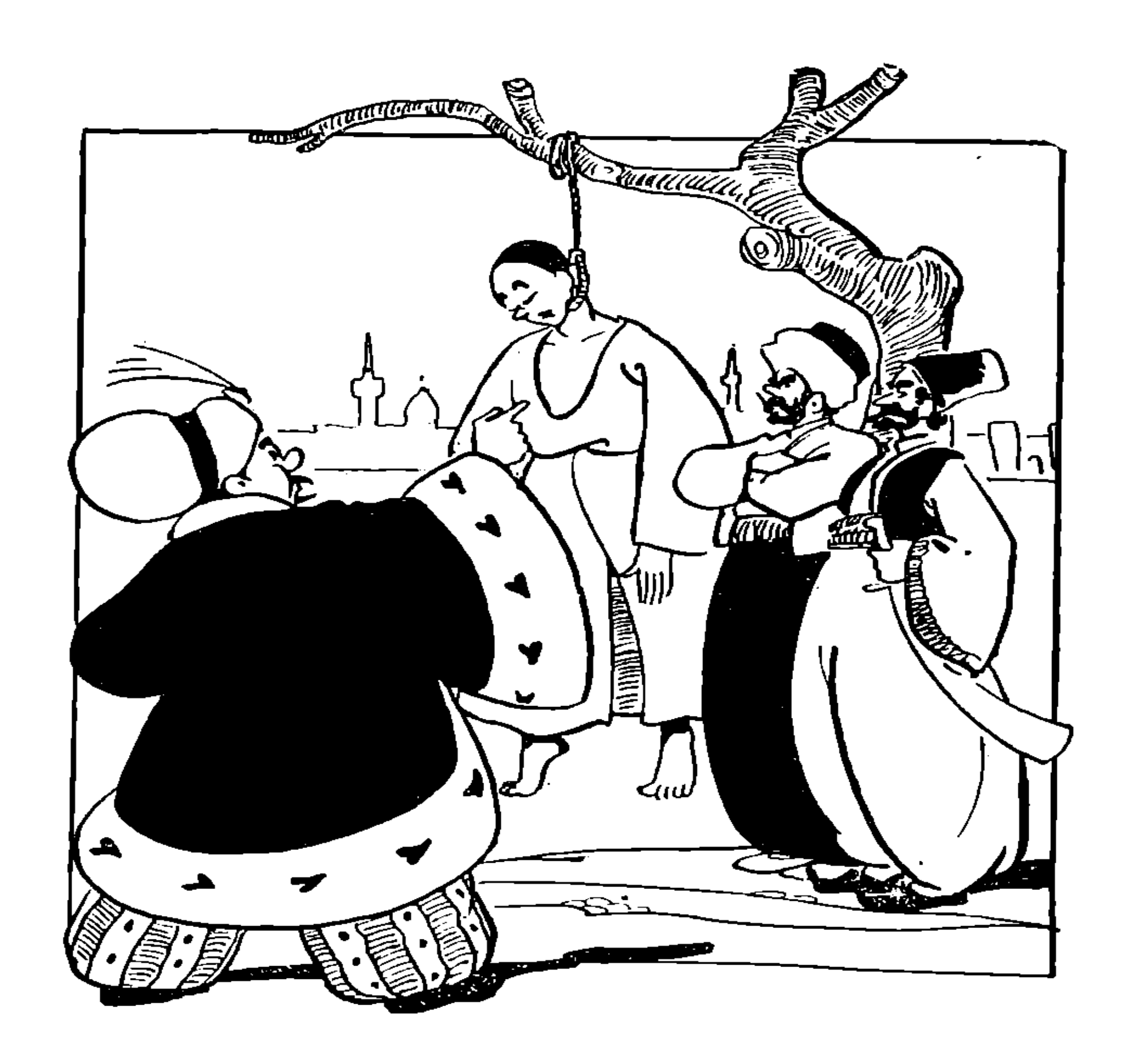
قيل ان قراقوش سابق رجلابفرس له ، فسبقه الرجل بفرسه ، فحلف قراقوش أنه لايعلف فرسه ثلاثة أيام . فقال له السابق :

« يا مولاى أخشى أن يموت الفرس »

فقال له قراقوش :

« احلف لى أنك اذا علفته ياهذا لاتعلمه أننى دريت بذلك »

فحلف له الرجل ، وأعطى العلف للفرس . »

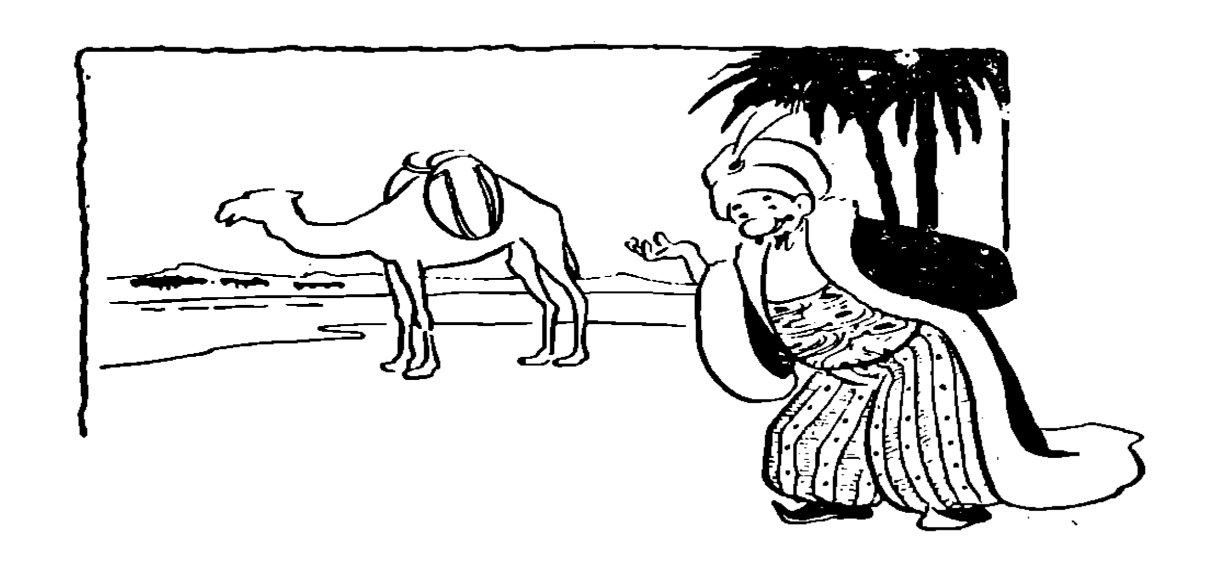


الحكاية الخامسة

وقيل ان غلاما لقراقوش كان يشتغل عنده (ركابدار) أى صاحب الركاب ، وان هذا الغلام قتل نفسا • فقال : «اشنقوه !»

فقيل له : « انه حدادك ، وينعل لك الفرس ، فان شنقته خسرته ولم تجد غيره » • فنظر قراقوش ناحية بابه ، فوجد رجلا قفاصا (أى صانع أقفاص) ، فقال : « ليس لنا بهذا القفاص حاجة ! »

فلما أتوه به قال : « اشنقوا القفاص • وسيبوا الركابدار الحداد لكى ينعل لنا الفرس ! »



الحكاية السادسة

وتوقف النيل بمصر أياما ، فنظر قراقوش الى جمـــال السـقايين ، وهى تمشى عشرين عشرين . ففكر طويلا وقـال : « لو أخذت كل هذه الجمال من البحر لنفد البحر أو كاد ! » ثم صاح :

« يا غلمان : نادوا في المدينة . قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملى أحد من البحر الا جملا واحدا . »

ففعلوا ذلك . ثم أوفى النيل ، وبلغت زيادته حدا عظيما . فقال لهم :

« يا هؤلاء ! الويل لكم ان علمتمـــونى . فكيف رأيتم رايى عليكم ؟ ما هو الا رأى مبارك ! »

الحكاية السابعة

جاء رجل الى قراقوش ومدحه بقصيدة وانشدها بصوت طيب . فقال له قراقوش :

« يا مقرىء ! لقد قرأت قراءة طيبة . وأنا أريد أن أطبع هذه القصيدة على ذراعى ، فانت مدحتنا ، ونحن دعونا لك ، فجزاك الله عنا خيرا . »

فقال الشاعر : « وأنت فلاجزاك الله عنا خيرا »

فقال بهاء الدين قراقوش : « كأنى أراك جائعا . أعطوه مائة أردب قمح ! » فأخذها الشاعر وانصرف !



الحكاية الثامنة

حكي أن قراقوش بات ليلةعند قاضي المطرية ، فأخرج له خبزا مجففا يسمى (القراقيش)، وشيئا من الزيتون • فقال له قراقوش :

« ان كان في غداة غد فتعال الينا القاهرة » •

فلما أصبح القاضي ركب مهرة له ، واتى الى قراقوش يسلم عليه • فأبصر حصان قراقوش مهرة القاضي فشب ، وغضب قراقوش وحصل له بذلك تشويش ، وأمر أن يوضع القاضي في الحبس سنة كاملة • ثم بداله أن يخرجه ، فأخرجه ، وجعله يعمل في المكان الذى يجمع فيه محصول السلطان من الغلال ، وكان يسمى (الاهراء) • فمكث القاضي سنة في أطيب عيش • ثم جاء الى قراقوش ، وقت الغلة وجمع المحصول ، يسلم عليه • فقال له قراقوش :

« اعمل لنا حساب القمح والشعير والحمص »

فكتب القاضي كل ذلك في صحيفة واحدة وأتاه بها • فقال له قراقوش :

« ماهذا ، خلطت القمح والشعير والفول والحمص في صحيفة واحدة ! يا غلمان احبسوه ! »

فمكث القاضي في الحبس سنة • فدخل الحبس رجل نصراني ، فتحدث هو والقاضي ، فعلمه كيف يتخلص من الحبس ، اذ أخذ النصراني الصحيفة من القاضي ، وكتب القمح وحده ، ثم بعث الى قراقوش ، وبعد شهر كتب الشعير وحده في صحيفة أخرى وبعث به الى الامير ، وبعد شهر كتب الفول وحده في صحيفة ثالثة ، وبعد شهر كتب الحمص وحده في صحيفة رابعة • فلما وصلت الصحائف كلها الى قراقوش قال:



« لقد تعبت يافقيه • فصلت هنا عن هنا ، ونقيت ذلك من ذاك! ياغلمان زفوه في المدينة »

فزفه الغلمان في المدينة • فحلف القاضي ألا يخدم قراقوش منذ ذلك اليوم •



الحكاية التاسعة

حكى أن قراقوش جاءه شاب مضروب ، فبعث معه خمسة رجال من (الجـــاندرمة) أى الحراس المتتبعين للعصاة والمجرمين . فبلغ ذلك خصمه الذى ضربه ، فسبقه ووقف بجانب قراقوش .

فلما أقبل الشاب قال الخصم:

« هذا الذى قتلنى وضربنى! »

فأقبل قراقوش على الشـــاب المظلوم وبطحـه وضربه ، الى أن أشرف على الموت وهو يقول :

« أنا مظلوم ! أنا مظلوم ! »

فقال له قراقوش : «سبقك!»

فحلف النــاس أنهم لايقعدون مادام قراقوش فى البلد حاكما .



الحكاية العاشرة

وأتى بعض النـاس الى قراقوش بمحضر فيه شهادة المسلمين باثبات دار في خط قصر الشمع فنظر الامير بهاء الدين قراقوش في هذا المحضر وقال :

« ياهــؤلاء : أكملتم المحضر بخط رئيس اليهود ؟ » فقالوا : « لا » • فقـــال : « كان لابد أن تفعلوا •• هذا كله زور وبهتان ومحال » • ورمى المحضر من يده!



الحكاية الحادية عشرة

وحكى أن قراقوش جاءه شيخ وصبى أمرد ، كل منهما يقول :

« يامولاى ــ دارى ! »

وعنـــد ذلك نظر قراقوش الى الصبى وقال :

« معك كتاب يشـــهد لك ؟ » قال : « لا » .

قال الامير بهاء الدين :

« فالدار اذن للشيخ الكبير . ياصبى ادفع له داره ، واذا صرت في عمر هـــذا الشيخ الكبير دفع لك هذه الدار ! »

الحكاية الثانية عشرة

وحكى عن بهاء الدين قراقوش أنهم أتوه يوما ما بغلام وفي يده ديك . فقال :

« ان هذا الديك لو نقر عينك لكان يسمها . ياغلمان : خلو منه دية عينه ! »

فحلف الغلام المسكين ألا يقعد في مدينة يكون قراقوش حاكمها بعد اليوم .



الحكاية الثالثة عشرة

وحكى عنه أنه أتاه رجل نصراني ، فخاف أن يدخل بدواته الآبنوس السوداء ، فيقول الامير : « صبغتنا بالسواد » ! فلف دواته في خرقة ، فسألت الدواة على ساق النصراني . فقال له قراقوش « ويلك ! ألأنك تغلط في دفاتر السلطان وتلحس الاغلاط وتمسحها صارت بدلتك سوداء .. ! ياغلمان : ودوه الى الحبس حتى تبيض بدلته . ثم ننظر في أن نخلصه ! »



الحكاية الرابعة عشرة

حكي عن قراقوش أنه نشرقميصه ، فوقع القميص من على الحبل ، فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم ، وقال :
« لو كنت لابسا هذا القميص وقت وقوعه لانكسرت ! »



الحكاية الخامسة عشرة

وحكى عن قراقوش أنه كان فى كل سنة يتصدق بمال جزيل ، فلما انتهت الصدقة اشتكت اليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له . فقال :

« أما الصدقة بتاع هذه السنة فرغت . ولكن اذا جاءت السنه الآتية فتعالى نأمر لك بكفن ان شاء الله تعالى ! »





الحكاية السادسة عشرة

وحكى أن جنـديا نزل فى مركب ، وكان به فلاح وزوجته ، وكانت الزوجة حاملا ، فى سبعة اشهر ، وضربها الجندى فسقطت . فذهب الفلاح الى الامير بهاء الدين قراقوش ، وشكا اليه الجنـدى ، فقال الامير بهاء الدين للجندى :

« خذ زوجة الفلاح عندك ، واطعمها واسقيها ، حتى تصير فى سبعة اشهر ثم اعدها الى زوجها »

فقال الفلاح :

« يامولانا ـ تركت اجرى على الله » .

واخذ زوجته وذهب .



الحكاية السابعة عشرة

حكى أن شخصا شكا الى الامير بهاءالدين قراقوش مماطلةغريمه فذهب المدين الى الامير وقال له :« يامولانا ٠٠ انى رجل فقير ، وكلما حاولت أن أحصل له علىشيء لم أجده ، فاذا صرفت هذا الشيء جاءنى الدائن وطالبنى » ٠

فقال قراقوش : «احبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون اذا حصل على شيء يجد لصاحبالحق موضعا معلوما يذهب اليه فيه ويدفع له الحق ٠ »

فقال صاحب الحق : « تركت أجرى على الله » ٠ ومضى !

الحكاية الثـامنة عشرة

يحكى أنه سرقت عملة فى زمن قراقوش . فقال لصـاحب العملة :

« الحارة بتاعتكم لها باب ؟ »

فقالوا له : « نعم » .

فقال : « اذهبوا ايتونى به . »

ففعلوا ، وأحضروا اليه البـاب !

فقال : « مدوه . »

فقالوا : « يا مولانا ـ هذا خشب لا يعقل . »

فقال لهم : « افعلوا ما آمركم به . »

فمدوه وضربوه . ونزل اليه قراقوش ، ووضع أذنه بجانبه ، وجعل يوشوشه . فلما فرغ قال لهم :

« اجمعوا لى باقى أهل الحارة والدرب »

فلما حضروا قال لهم :

« الباب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة . »

وكان سـارق العملة واقفا بجملة الناس ، فتوهم ورفع يده الى رأسه ، فرآه قراقوش ، فأمربه ، وقرره بالضرب ، فأقـر ، وأحضر العملة ، ودفعهـا الى أصحابها .



الحكاية التاسعة عشرة

وحكى أن قراقوش كان له (باز) يعتز به ويعنى بتربيته ، فطار الباز يوما من عنده ، وبلغ ذلك الامير قراقوش ، فقال :

« اقفلوا باب النصر ، واقفلوا باب زويلة ، حتى لا يجد الباز له موضعا يطير منه فيعود الى ! »



الحكاية العشرون

وحكى أنه كان بمصر رجل تاجر ، وكان بخيلا ، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما ،فزاد عليه الدين ، ولم يمت والده ، فاتفق مع الغرباء أن يدفنوا والده بالحياة • فدخل هو والدائنون عليه ، وغسلوه ، وكفنوه ، ووضعوه فى النعش ، وهو يصيح فلا يغاث • وجاءوا حول تابوته وهم يذكرون ويصيحون ، فلما وصلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان مارا ، فنزل وصلى عليه • فلما سمع الميت بذلك قال :

« الحمد لله جاءنى الفرج • »

فجلس في التابوت ، وقال :

« يا مولانا السلطان : خذ لى حقى من ولدى هذا • فانه يريد دفني بالحياة ! »

فاتجه الامير قراقوش الى الولد وقال له :

« كيف تدفن والدك بالحياة ! »

فقال الولد : « كذب عليك يامولانا السلطان ، ما غسلته الا وهو ميت ، ولا حملته على النعش الا وهو ميت ، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك » • فقال للحاضرين :

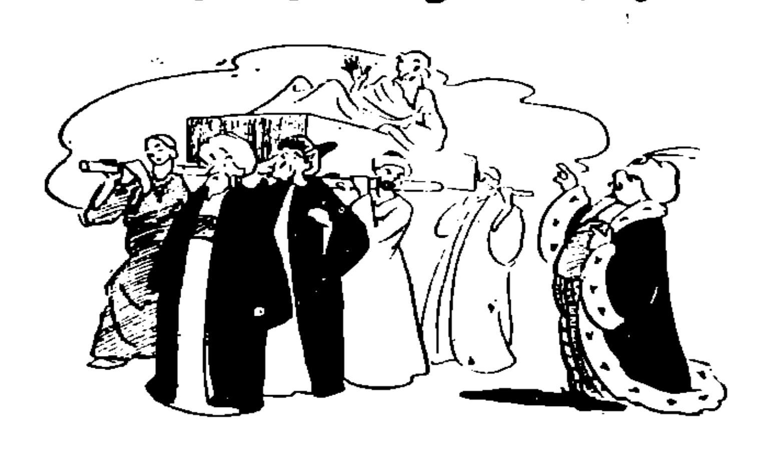
« أتشهدون بذلك ؟ »

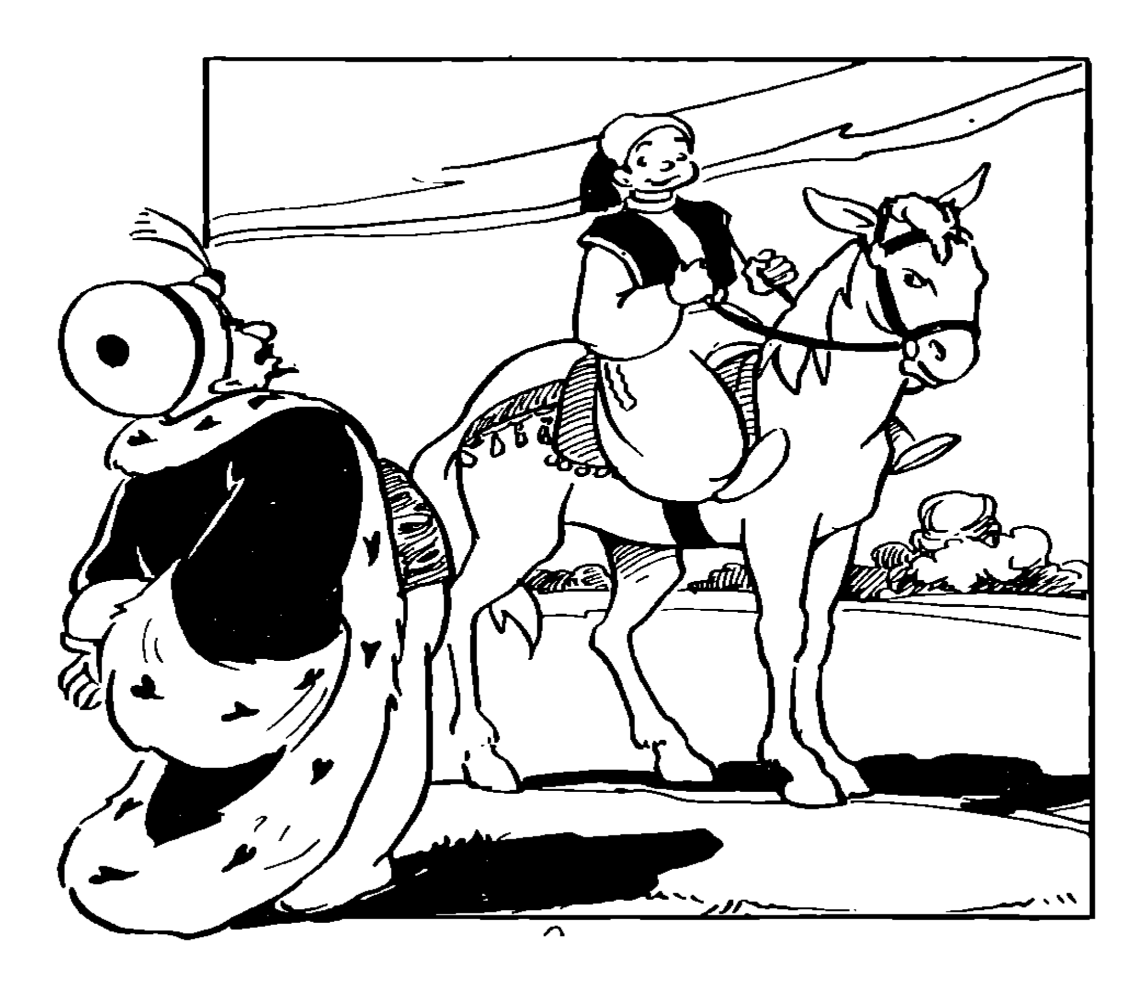
فقالوا : « نشهد بما يقول الولد ! »

فالتفت قراقوش للميت وقال :

« أأنا مجنون ، أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ! روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى احد يندفن بعد هذا اليوم ! »

فحملوه ودفنوه بالحياة فى ذمة قراقوش !





الحكاية الحادية والعشرون

يحكى أنه كان لقراقوش ولد اشترى لنفسه بغلا بألف درهم، وعرضه على أبيه . فقـــال له أبوه : « هذا غالى الثمن . »

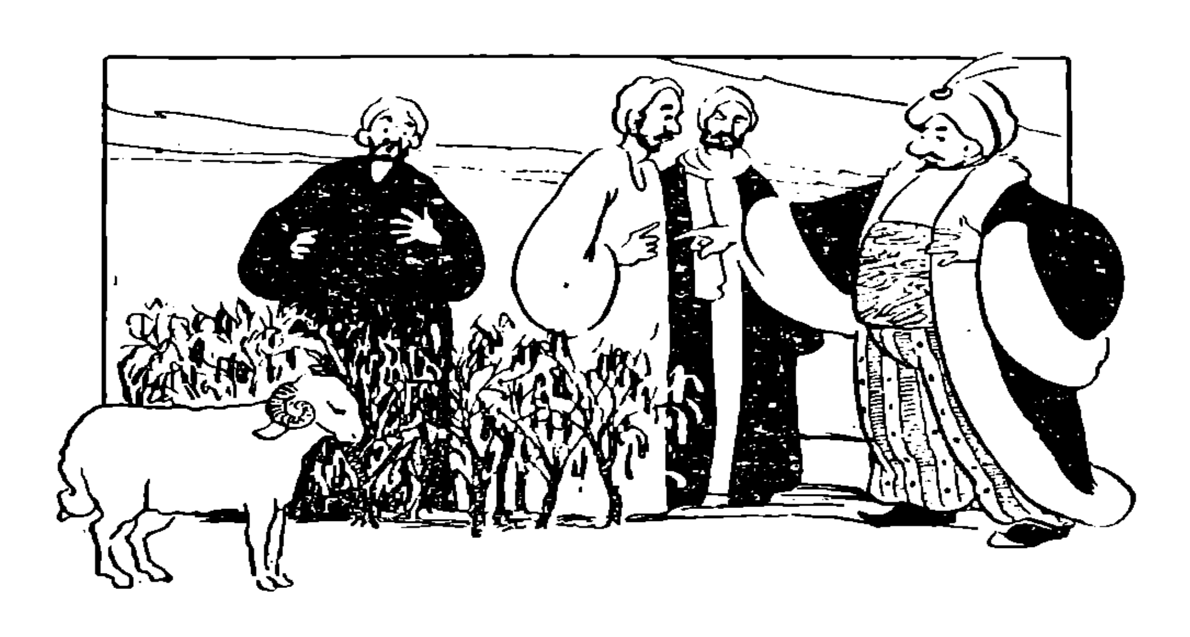
فرآه بعض المباشرين لبيع البغال والحمير ، فعلم منه أن له غرضا فيه . فدخل معه على أبيه وقال :

« يا أخِى لاى شىء أمرتم بردهذا البغل ؟ »

فقال : « لانه غال بألف درهم . »

فقال : « يا مولانا ــ اشتريناه بتسعمائة وتسعة وتسعين . »

فقال الامير : « ان كان هكذافما هو بغال » ! وأذن لابنه فى البغل !



الحكاية الثانيــــــة والعشرون

وحكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا الى قراقوش ، وشكوا اليه من خراج القطن ، وقالوا له :

« ياMولانا السـلطان ، البردشوش على القطن هـذه السنة ، وأنت تفرج عنا وتسـامحنا من بعض المـال » .

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

« لأى شيء أسـامح فى بعض المال ؟ لما رأيتم البرد اشتد ، كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لأجل مايدفيه ! ..

ولكنكم استهنتم بالحكومة وبالزراعة ، ولم تفتحـوا أعينـكم لخدمة استاذكم ..

أين المشـاعلى يضرب أعناق الجميع ؟! »

فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك !

الحكاية الثالثـــة والعشرون

دخل رجــلان على قراقوش ،وادعى أحدهمـــا على الآخر انه عض أذنه ، فسأله قراقوش عن ذلك فقال :

« انه هو الذى عض اذن نفسه »

فقام السلطان ، ودخل الحريموجلس على كرسى ، وأخذ يحاول أن يعض أذنه ، فلم يفلح فى ذلكومال به الكرسى من كثرة التفاته ومحـــــاولاته ، فوقــع على يدهفانكسرت ، وخرج وهــو بهــذه الحالة ، وأمر بضرب المدعىعليه، وقال :

« انت الذى عضــيت اذن الرجل هــذا ، وكسرت ذراعى زيادة عن ذلك ! »



تلك هي الحكايات التى اشتمل
عليها كتاب « الفاشوش فى حكم
قراقوش » وقد اسقطنا طائفة
منها اشتملت على قدر من الفحش
فى اللفظ والاسفاف فى المعنى
نستحيي من ذكره ٠

قراقوش على حقيقته فى التاريخ

- ١ -

قراقوش فى بلاط الملك عماد الدين

فى ليلة من الليالى جلس الفتى قراقوش - او النسر الاسود(١) - يفكر فى أمره ، ويتطلع الى مستقبله ، ويرى أنه لا بقاء له بعد اليوم فى هذه القرية التى يعيش بها من قرى آسيا الصغرى ، وذلك بعد أن حيل بينه وبين الحرية ، وأصبح مملوكا لرجل من رجال هذه القرية لا يبذل له من ذات ماله ونفسه ووقته مايقوم بتعليمه وتهذيبه كما يفعل السادة بمواليهم فى العصر الذى يعيش فيه .

وماذا يفعل مولى خصى كهذا الفتى الرومى الذى لا حول له ولا قوة ؟ وليس له مال يعتق به نفسه ، ولا فى استطاعته - وهو صبى - أن يصنع لمولاه شيئا يكافئه عليه بالعتق من تلك العبودية التى ضاق بها ، وأصبح لا يتمنى على الدهر الا أن يفارقها .

ان أمام هذا الفتى حلا واحدا فقط ، هو الفرار بنفسه من تلك القرية من قرى آسيا الصغرى ، والطواف بأرض الله الواسعة ، فلعل المطاف أن ينتهى به الى بلد يلتمس لنفسه فيه عملا ، او يخدم سيدا .

ونفذ الفتى عزمه على الهرب واخذ ينتقل من بلد الى بلد ، حتى وصل الى بلاد الشام وفيها ملك همام ، كان من أعظم ملوك الاسلام ، واسمه « عماد الدين زنكى » . وكان فى خدمة هذا الملك بالشام قائدان عظيمان ، هما فى الواقع اخوان شقيقان .

أما أولهما فكان اسمه «أسد الدين شيركوه» .

وأما الثانى فكان اسمه «نجم الدين ايوب» .

ولهذين القائدين الكبيرين صلة كبرى بتاريخ مصر فى العصور الوسطى . ولا تجد مصريا يعرف تاريخ بلاده معرفة

---

(١) قراقوش لفظ تركى مكون من (قره) بمعنى اسود و (قوش) بمعنى طائر او نسر .

بسيطة الا يحفظ اسميهما ،ويدرك الدور الذى لعباه على مسرح الحياة المصرية فى العصور الوسطة .

ذلك أن أولهما ، أسد الدين شيركوه ، هو الذي شارك فى ازالة الدولة الفاطمية ومهد لقيام الدولة الايوبية .

وثانيهما ، نجم الدين ايوب هو والد صلاح الدين الايوبى الذى تم على يديه قيام الدولة الايوبية ، وكان له شأنه المعروف وتاريخه المجيد فى الحروب الصليبية .

وندع هذين الاخوين العظيمين وننظر فى ذلك الفتى الرومى الذى دخل دمشق ، وتوصل بذكائه الى معرفة القائد لعظيم أسد الدين شيركوه ، فقدره القائد حق قدره ، وتوسم فيه النجابة والشجاعة ، فقربه من نفسه .. وقيل أنه اشتراه بماله الخاص ، وطفق يدربه على اعمال الفروسية وينمى فيه المواهب الحربية . والفتى يظهر لمولاه كل يوم من جلائل الافعال ماينبىء بحسن مستقبله ،ويبشر بعظم الامور التى ستجرى فيما بعد على يده .

وفى دمشق تسمى ذلك الفتى الخصى باسم (بهاء الدين بن عبد الله الاسدى) . فاما تسميته بابن عبد الله فكناية عن انه لم يعرف له أب مسلم . وأما وصفه (بالاسدى) فنسبة الى القائد أسد الدين الذى اشتراه بماله وقام على تهذيبه وتعلمه ، وكان سببا فى اعتناقه الاسلام .

ولقد انس رجال الجيش فى دمشق من هذا الفتى الرومى شهامة ، ووجدوا فى أخلاقه ميلا الى الشدة والصلابة ، وقدرة على العمل والجد ،وصبرا لانظير له على احتمال المكاره . فأدنوه منهم ، ومنحوه الرتب العسكرية التى شجعته على خدمتهم ، وضربوا به المثل فى الجلد والصبر والمثابرة . وما لبث بهاء الدين قراقوش أن ارتقى فى سلم الجيش حتى وصل الى مرتبة الامارة ـ وكان على رأس هذا الجيش قائده البطل (أسد الدين شيركوه) ،وهو الذى دخل مصر فى أواخر

الدولة الفاطمية ، وكان قصده تهدئة الاحوال بهـا ، ثم انتهى الامر على يد صلاح الدين الايوبى فيما بعد الى ازالة هذه الدولة وانهائها ، واقامة الدولة الايوبية مكانها .

وعلى ذلك فالامير بهاء الدين قراقوش كان ثالث ثلاثة أتوا الى مصر لهذه الغـاية الاخيرة . والاثنان الاولان هما اسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين الايوبى

وهكذا شهد الفتى الرومى انهيار الدولة الفاطمية ، وقيـام الدولة الايوبيـة ، وكان دعامة قوية من الدعـائم التى قـامت عليها هذه الدولة الاخيرة .

ألا ما أعظم الموهبـة حين تخص بهـا الاقدار رجـلا من النـاس فترتفع به من أحط درجات الفقر والخمول الى أكبر درجات الغنى وبعد الصيت .

غير ان الموهبة بحاجة الى من يكشف عنها ويتعرفها ، ويرسم لصاحبها طريق الانتفاع بها . والى ذلك البطل الدمشقى (أسد الدين شيركوه) يرجع لفضل كل الفضل فى الكشف عن مواهب هذا الفتى الخصى الذى فارق وطنه الاصلى فى آسيا الصغرى ، ووصل الى وطن آخر من الاووطان العربية وهو (دمشق) .

وهكذا كان المسلمون يصنعون بمن فى أيديهم من المماليك : ينسـبونهم اليهم ، ويعطفـون عليهم ، ويعنون بهم عناية تزيد احيانا على عنـايتهم بأولادهم وذوى قرابتهم ، ويخلقون منهم رجالا عظماء ينفعون البـلاد ، ويكونون سببا فى عظمتها وزفعة شأنها ، ويجلبون الخـير كل الخير لمواليهـم وسادتهم ، فـلا يسع هؤلاء الموالى أو السـادة الا أن يردوا اليهـم حريتهم ، ويعتقوهم لوجه الله والوطن والانسانية .

تلك اذن هى المرحلة الاولى من مراحل الحيـاة التى كان يحياها الامير بهاء الدين قراقوش . أو ذلك اذن هو الفصل الاول من فصول روايته . فلننظر فيما تلا ذلك من فصول .

قراقوش يحرس القصر الفاطمى

اصبحت القاهرة فى صباح يوم من الايام وهى منزعجة ايما انزعاج لعلمها بأن على الابواب جيشا كثيفا من الاكراد والاعراب هو جيش اسد الدين شيركوه ومعه ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب . وقد اتى هذا الجيش الى مصر بحجة تهدئة الاحوال بها ، ونجح الجيش فى مهمته ، ثم رأى اسد الدين أن يعود الى بلاده بعد ان فرغ من اداء هذه المهمة ، فعاد اليها وترك فى مصر ابن اخيه (صلاح الدين) ومعه عدد من الجنود يأتمرون بأمره ، ويكونون رهن اشارته .

وفى مصر بقى صلاح الدين الايوبى متصلا بالقصر الفاطمى ، ومراقبا الاحوال السياسية مراقبة قوية . واخيرا رأى الخليفة الفاطمى ان يعهد بالوزارة الفاطمية الى صلاح الدين . ففرح هذا الشاب بها ، ووصلت اخبار الوزارة الى دمشق ، ففرح أبوه وعمه كذلك ، وكانا يومئذ فى خدمة الملك الجديد « نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى » المعروف بالشهيد .

وفى عام ٥٦٤ هـ للهجرة اضطرب رجال القصر الفاطمى بمصر ، وعمهم الفزع والذعر ، وسعى بعضهم من حذرهم عاقبة الوزارة الجديدة ، وهى وزارة صلاح الدين ، ووقفهم على نيات ذلك الرجل السنى الخطير الذى أتى لازالة الدولة الفاطمية ، والرجوع بمصر الى حظيرة الدولة العباسية ، كما كانت قبل مجىء الفاطميين اليها .

وانه لامر خطير حقا ، ان تزول دولة وتقوم دولة ، او ان يسقط عرش ، ويحل محله عرش .. ومن أجله دبرت المؤامرات فى داخل القصر وخارجه ، ومن أجله اخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة . وكانت اولاها مؤامرة دبرها خصى اسود اسمه « المؤتمن » اراد بها اسقاط صلاح الدين ، والقضاء على الجند الذين تركهم عمه اسد الدين شيركوه عند رجوعه الى دمشق . وقاربت هذه المؤامرة الكبيرة النجاح ، وأوشكت أن تقضى على صلاح الدين وجنوده ، لولا أن قدر الله لها أن تحبط على يد رجل من أكبر أعوان البطل صلاح الدين ، هو وزيره الخطير

المعروف فى التاريخ باسم « القاضى الفاضل » واسمه الحقيقى عبد الرحيم بن على البيسانى .

فى تلك الآونة الدقيقة ، والثورة الخفية الخطيرة ، فكر « المؤتمن » فى المال الذى ينفق منه على هذه المؤامرة ، فلم يجد أمامه الا ذخائر القصر الفاطمى . فليأخذ منها حاجته ، وليدفع ثمنها أجرا للجنود الذين يعينونه على بلوغ هذه الغاية .. وانه ليفكر فى ذلك ويحكم خطته ، واذا بصلاح الدين الايوبي يقف على هذا التدبير من أوله الى آخره . ثم لا يستغرق وقتا طويلا حتى يهديه التفكير الى خادمه الامين بل صاحبه الغيور بهاء الدين قراقوش ليكون حارسا للقصر الفاطمى فى هذه الفترة الدقيقة حتى لا يصل من ذخائره شىء الى يد (المؤتمن) . وما ان عهد الى الامير بهاء الدين بهذه المهمة حتى قام بها خير قيام ، وحرس القصر الفاطمى بعين لا تنام . وعبثا حاول المتآمرون أن يحصلوا على المال اللازم لهم فى الانفاق على هذه المؤامرة فلم يفلحوا . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على احباط المؤامرة !

ثم مات الخليفة الفاطمى وكان صلاح الدين قد انتهى من قطع اسمه من خطبة الجمعة ، وذكر مكانه اسم الخليفة العباسى . فنزل الرعب فى قلوب أهل القصر وتولاهم الخوف والذعر ، وظهرت عليهم امارات الوحشة والانكسار والمذلة . وهنا دعا صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش وزوده بأوامر لمواجهة الحالة الجديدة . ومنها أن تزداد عنايته بالقصر ؛ فلا يخرج منه شىء ، ولا يدخله شىء الا باذنه ، ومنها أن يضاعف الحيطة من أهل الخليفة الفاطمى وذوى قرابته جميعا ، وأن يخرجهم من القصر الى مكان عينه له ، ترسل اليهم فيه كسوتهم وطعامهم . فنقلهم بهاء الدين قراقوش الى مكان يسمى (دار برجوان) ، وهى دار واسعة كبيرة بالحارة المسماة بهذا الاسم من حارات القاهرة الى اليوم .

كما أمر بهاء الدين قراقوش أن يعزل رجال القصر الفاطمى عن النساء حتى لا يتناسلوا ويكثروا ! فيساعد ذلك على أن يعيدوا الدولة الفاطمية . قال له السلطان صلاح الدين :

« أما الجوارى والعبيد فلك أيها الامير أن تطلقهم ، ولك أن توزعهم ، ولك أن تطلق البيع فيمن بقى منهم بعد ذلك كله ، حتى لا يزدحم بهم القصر الفاطمى » .

وبهذه العبارة ختم السلطان صلاح الدين الايوبى حديثه الذى القاه على مسامع الامير بهاء الدين قراقوش . ثم تركه يعود الى القصر ليتولى بنفسه تنفيذ هذا الامر .

فعاد الامير بهاء الدين الى القصر . وفتح عينه يومئذ على كنوز تجل عن الوصف . فمن ملابس وجواهر ، الى قلائد ودرر ، الى ياقوت وزمرد ، الى مصوغات ذهبية واوان فضية ، ومنسوجات مغربية وهندية ، وصوان صينية ، واخرى منقوشة بالميناء ، الى قطع ثمينة من الخزف ، الى تماثيل عظيمة من البللور على هيئة الوحش والطير ، الى حال وثياب ، الى ضب وطرائف ، الى عقود من الزبرجد والجوهر الذى لانظير له في العالم وتتئذ ، الى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والآبنوس ، الى بسط خيطت بالذهب والفضة ، الى ستائر واغطية من من الديباج قد نسجت فيها الرسوم الفاخرة والصور الرائعة ، الى كؤوس من حجر غال يسمى (حجر اليصب) يقال ان من خواصه الوقاية من السم . وكانت هذه الكؤوس تصنع للامراء والملوك ، لتوضع فيها الاشربة المختلفة ، فيتغير لونها ان كان بها شيء من السم . ولا يتغير لونها ان خلت من ذلك . ذلك كله عدا الاسلحة والسروج والخيم والبنود الخ ...

واما العرش الفاطمي نفسه ، فكان مرصعا بالدر والجوهر ، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص :

لقد وضعت ياقراقوش يدك على كنوز ليس لها نظير في العالم كله ، فاحرص على هذه النفائس كلها ، وضاعف عنايتك بها ، حتى تصير الى صاحب الحق الشرعي فيها ، وهو مولاك السلطان صلاح الدين !

اما خزانة الكتب ـ وقد ذهب المؤرخون أيضا الى انه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام أعظم منها ـ فقد كانت بالقصر مرتبة مفهرسة ، فقيل يوما لبهاء الدين قراقوش « ان هذه الكتب قد عاث فيها العث ، ولا بد من تهويتها واخراجها من الرفوف الى ارض الخزانة ـ وكان قراقوش جنديا لاخبرة له بالكتب ولا علم له بالعلم او الادب ـ فأخرجها . ثم ظهر له فيما بعد أن هذا الطلب انما كان حيلة مدبرة من جانب تجار الكتب ، يريدون بها تفريقها ، وخلط انواعها . فتم لهم ذلك ، واختلطت كتب الادب بكتب النجوم ، وكتب الشرع بكتب المنطق ،

وكتب الطب بكتب الهندسة ،والكتب المجهولة بالكتب المشهورة .

وكان فى الخزانة مؤلفات ضخمة يشتمل كل مؤلف منها على خمسين او ستين مجلدا ، اذا فقد منها جزء فلا يعوض بحال ما ، ففرق الدلالون هذه الاجزاء لتقل قيمة المؤلفات ، وتباع بعد ذلك بأبخس الاثمان . هذا مع أنهم كانوا يعرفون مواضع اجزائها ، ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها . وكان الامير قد استأذن مولاه السلطان صلاح الدين فى بيع هذه الكتب الهائلة فأذن له السلطان فى بيعها ولم يظهر حرصه عليها ، لانه زعم يومئذ انها تشتمل فى أكثرها على عقائد الشيعة الفاسدة ، وآرائهم الدينية المتطرفة . وهو انما أتى الى مصر لاغراض كثيرة من اهمها محاربة هذه العقائد والآراء ،حتى لا يبقى فى مصر من يميل اليها او يأخذ نفسه بها ،ويعود المصريون سيرتهم الاولى ، وهى السيرة التى كانوا عليها قبل مجىء الفواطم الى مصر .

فعمل الامير بأمر مولاه السلطان فى الكتب ، وجعل لبيعها فى القصر يومين من كل أسبوع . واستمر البيع فيها وفى ذخائر القصر الفاطمى كله اكثر من عشر سنين .

وهكذا نجح الامير بهاء الدين قراقوش فى القيام بهذه المهمة الثانية ، وهى حراسة القصر الفاطمى والمحافظة عليه كل المحافظة الى أن اتيح له بيع ذخائره ونفائسه . وكان امينا فى بيعها ، امينا فى جمع المال الحاصل من ثمنها ، حذرا كل الحذر من ان يغلبه احد فى شراء شىء من هذه النفائس الكثيرة والذخائر العديدة ، لا تكاد تستثنى من ذلك الا شيئا واحدا فقط — هو الكتب — وقد رأيت كيف خدعه الدلالون وباعة الورق ، وكيف حصلوا لانفسهم عليها بثمن بخس . . وللامير بهاء الدين قراقوش ، وهو حارس القصر فى ذلك الوقت ،عذران واضحان فى موقفه من خزانة الكتب اولهما جهله بقيمتها الادبية أو العلمية . وثانيهما خوف صلاح الدين من تلك المكتبة ، التى أساء الظن بها ، وحرص على تفريقها وتشتيتها حرصا جعله ينظر الى المال الحاصل من ثمنها على انه خير الف مرة من جميع ما اشتملت عليه من الكفر او الزيغ .

وبعد — فان القارىء يعجز عن تقدير المبالغ التى توفرت للامير بهاء الدين من ثمن هذه النفائس والذخائر والكتب التي اشتمل عليها القصر الفاطمى . وأهم من هذا كله أن التاريخ

كتب لبهاء الدين فى هذه المرحلة من مراحل حياته صفحة الصدق والامانة ، والحذر والاستقامة ، والقيام بالواجب الصحيح نحو هذه الدولة التى اشـــترك فى بنائهـــا ، وكان له نصيب فى صيانتها من كيد اعدائها ، حتى قام صرحها ، وعلا شأنها ، واظفر الله قائدها ومؤســـسها الاول صلاح الدين ، ومكن له فى الارض التى ذكرها فى كتابه الكريم .

- ٣ -

قراقوش والمنشآت الحربيـــة

قد تخرج يوما ما الى خارج القــاهرة فترى عند بعض أجزاء « المقطم » بقايا قلعة قديمة ، وتسأل بعض العــارفين عن هذه القلعة فيقال لك «انها قلعة الجبل» ، وتسير فى الطريق حتى تلقاك آثار أخرى تدل على قلاع أخرى كذلك ، وتســأل عنهــا بعض العارفين فيقال لك أنها « قلعة المقدس »

وترجع الى كتب التاريخ فترى أن السلطان صــلاح الدين ، وقد اختلط فى أثنـــاء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق وعرف كيف يبنون القــلاع والحصــون ، ووازن بينهــا وبين حصون الفــاطميين ، ظهر له أن حصون الفرنج أمنع من حصون المصريين ، ففكر يومئذ فى بناء قلاع كبيرة تحيط بمدينة القاهرة حتى لا تصبح عرضــة لهجمات الصليبيين . ومن لهذه المشروعات الضخمة والاعمــال المضنية غــير الامير بهاء الدين قراقوش ، يبذل فيها جهده ، ويأتى فيهــا بآخر ما عنده ، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجد ، وعزيمة يوشك ألا يكون لقوتهــا حد ، ومواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين ، وأفاد منهــا فى حروبه فائدة ليس الى انكارها من سبيل .

ولعل أول عمل قام به الامير من هذا القبيل هو انشاء « قلعة الجبل » ، بناها على قطعة مرتفعة من جبـــل المقطم ، تشرف على القاهرة كلها ، وتصلح بذلك لان تكون وكرا للقائد العظيم أو النسر الكبير صلاح الدين ، يقيم فيها بعض أيامه ، ويدير منها حركة الحـرب التى تدور رحاها بين المســلمين والصليبيــين فى تلك الفترة من تاريخ الشرق الاسلامى .

وهذه القلعة التى بناها بهاء الدين قراقوش هى التى سكنها بعد صــــلاح الدين ابنـــه الملك العزيز ، ثم أقام بها الملك الكامل من ملوك بنى أيوب ، ثم اتخذها هذا الملك مقرا للحكومة «الايوبية»

ثم جاء محمد على الكبير فجعلها مقرا لدواوين الحكومة ، ثم لم يكن الا فى عهـد اسمـاعيل أن انتقلت دواوين الحكومة الى دور أخرى وسط مدينة القاهرة .

غير أن الامير بهاء الدين قراقوش ما كاد يفرغ من بناء « قلعة الجبل » حتى أمره صلاح الدين أن يبدأ العمل فى بناء قلعة أخرى

يقال لها « قلعة المقس » ، وهي عبارة عن برج كبير بناه الامير على النيل ، وبنى بالقرب منه أبراجا أخرى على النمط الفرنجى لا النمط البيزنطى • وسبب ذلك ـ فيما قلنا ـ أن صلاح الدين أصبح يؤمن بفائدة النمط الذى وجده فى حصون الفرنج المقيمين بالشام • وكان المسلمون الى ماقبل عهد صلاح الدين يتبعون فى بناء الحصون النظام البيزنطى ،ولم يتعرفوا بعد على النمط الفرنجى •

ثم ماكاد الامير بهاء الدين قراقوش يستريح من بناء هذه الابراج والحصون حتى أمره صلاح الدين باقامة سور عظيم على حافة الصحراء الغربية •• فبدأ الامير يشغل نفسه بهذا العمل الكبير ، وأخذ يقطع له الاحجار من الاهرام الصغيرة المبعثرة فى الصحراء ، وبناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة عنها •

والى هنا حسب الامير بهاء الدين أنه فرغ من اتمام ذلك المشروع العظيم ، وآن له أن يستريح ويريح الآلاف المؤلفة من الاسرى ومن الشعب المصرى الذين أنجزوه على الوجه الاكمل فى عامين كاملين لم يعرفوا فى اثنائهما الراحة ، ولا ذاقوا فيهما طعما للسكون ، وذلك هو العبء الذى وقع على كاهل الامير بهاء الدين من الحرب ، والنصيب الذى ناله منها .. بدأ العمل فى الاسوار سنة ٥٦٧ وانتهى منها سنة ٥٦٩ للهجرة ، وأرضى بذلك السلطان صلاح الدين الذى أثنى على همته ثناء عظيما

حسب الامير بهاء الدين قراقوش أنه فرغ من عمله ، وآن له أن يستريح منه الى الابد ••ولكن أنى له ذلك والسلطان صلاح الدين يظهر له كل يوم عمل جديد ، ويشعر بالحاجة الماسة الى مزيد من الحيطة الحربية ضد أعدائه من الفرنجة •

وما هى الا برهة قصيرة حتى وجد الامير بهاء الدين نفسه بين يدى السلطان صلاح الدين ، وهو يأمره فى هذه المرة بعمل آخر له من الاهمية الحربية مايربو فى نظره على الاعمال السابقة كلها. هذا العمل الجديد الذى صدر به أمر صلاح الدين هو أن يقوم بهاء الدين قراقوش ببناء سور عظيم يحيط بالفسطاط والقاهرة معا ويصل بين جميع تلك القلاع التى بناها الامير خارجهما :

فاعمل أيها الامير بهاء الدين فى هذا السور الكبير ، وقد له من الاهرام والمقطم ماشئت من الحجارة والصخور ، واحشد للبناء من

شئت من أسرى الفرنج فى الحروب ، ومن شئت من ابناء الشعب المصرى الصبور .. ولم يسع الامير بهاء الدين قراقوش الا ان يقبل على بناء السور ، ثم بنى فى السور جامعا ، وحفر فى قلعة الجبل بئرا ..

قالوا : وكانت هذه البئر من عجائب الابنية ، يدور البقر من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها ، وتدور ابقار اخرى فى وسطها ، فينقل الماء من أسفلها ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء .

وقيل أن ارض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل ، وان ماءها كان عذبا فى اول الامر . ثم اراد قراقوش الزيادة فى مائها ، فوسعها فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها ..

وقد كان هذا السور الذى بناه قراقوش ثالث الاسوار التى احاطت بالقاهرة الى عهده . أما الاول فكان قد بناه القائد الرومى جوهر الصقلى . وأما الثانى فكان قد بناه الوزير لامير الجيوش بدر الجمالى الفاطمى . وكان هذان السوران الاولان قد بنيا من اللبن ، اما الثالث فقد بناه الامير قراقوش من الحجارة ، ووقف به عند قلعة المقس فلم يستطع ان يصلها بمصر ..

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الاعمال الحربية العظيمة . وكان السلطان صلاح الدين كلما احتاج الى عمارة قلعة أو تجديد حصن ، او تقوية جسر ، او اقامة سور ، او بناء برج ، عهد اليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة . ولعل آخر ماقام به الامير قراقوش من ذلك عمارته لسور عكا ، وذلك فى اثناء المحنة التى مرت بالمسلمين ، وهى المحنة التى نريد أن نستعرضها بالقدر الذى يتصل بشخص هذا الامير .

وتلك هى المرحلة الثالثة من مراحل الحياة التى كان يحياها بهاء الدين ، أو الفصل الثالث من فصول الرواية التى كان فيها بطلا على مسرح الحياة المصرية فى العصر الوسيط .

- ٤ -

قراقوش فى حصـــار عكا

عكا ـ ذلك الحصن الذى ابتلى الله به المسلمين وغير المسلمين فى عصور شتى . به يضرب المثل فى المنعـة ، وبه يضرب المثـل فى الكروب والشدة . ولا يوجـد محارب فى الارض بلغ هذا الحصن الا ذاق منه مالم يذق فى حياته قط . ومنـذ حصـل عليـه الصليبيون فى العصور الوسطى ، وهم ممسكون برقبة الشرق ، قابضون على زمام الامر ..... وظلوا على هذه الحال من القوة والعظمة ، حتى أتى البطل صلاح الدين الايوبى فـكسرهم كسرة هائلة فى واقعة مشهورة من وقائع التاريخ ، لايمكن قط أن تنسى ، هى واقعة حطين . وبها استولى البطل صـلاح الدين على بيت المقدس . ثم بدا له بعد ذلك أن يستولى على بقيـة الحصـون والقلاع التى بيد الفرنجـه . فسقطت كلها فى يده ، ومن بينها حصن (عكا) .

لقد سقطت عكا فى يد المسلمين ، فماذا بقى من الحصون التى للفرنج المقيمين بالشرق الادنى ؟ لقد آن لهم اذن أن يرحلوا من هذا الشرق الى غير رجعة

وكان سور عكا فى الحقيقة قد تهدم من شدة القتال ، وطوله ، فرأى السلطان أن يترك المدينة والجيش للامير قراقوش ويذهب لامتلاك الحصون الاخرى . فبقى الامير فى هذه المدينة ، وبقيت معه حامية صغيرة ، وعكف على اقامة ماتهدم من السور ، وصبر على ذلك صبرا عظيما . ثم حدث بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان ، حدث أن الفـرنج المقيمـيـن بالشرق استصرخوا اخوانهم فى أوروبا .

فجمع الاوروبيون جموعهم ، وأتوا بأمدادهـم وأموالهـم ورجالهـم وفرسانهم ، وتجهزوا لتلك الحملة الصليبية التى أتت الى الشرق بقيادة ملوك الغرب وفيهم ريشار الاول (قلب الاسد) ملك انجلترة .

ووصلت الحملة الى عكا . واصطف الملوك والامراء والجنـد قلبا وميمنة وميسرة .. ووقف فى القلب ريشارد (قلب الاسد) وبين يديه الانجيل محمولا ومكسوا بثوب من الاطلس ، ويمسـك الثوب من أطرافه أربعة من الجند .. فأصبح لهذا الجيش المؤلف من جميع الدول الاوروبية فى عكا ، وفى هذه الموقعة ، منظـر يبعث على الرهبة .

وبدات الموقعة ، وهجم الصليبيون بجموعهم هجمة رجل واحد على جيش صلاح الدين ، فهزموه ودخلوا عكا ، وقتلوا منها ثلاثة آلاف من المسلمين . ثم ضربوا حصارا على عكا ، ودام الحصار عامين كاملين ذاق فيهما الامير والمسلمون معه الامرين .. بل ذاقوا هنالك أقسى ماعرفته المحنة الصليبية من الم ، وتحملوا فيها اشق مامر بها من جهد وضيق ونصب ..

اجل ! تحمل المسلمون فى عكا من آلام الصبر على الحصار ماأحبوا معه الموت الذى ينقذهم ، والهلاك الذى يعجل بهم الى العالم الآخر ! !

ومما زاد الطين بلة أن الوباء تفشى فى المسلمين المحصورين ، وأن الجوع اهلكهم ، وأن الصليبيين أصروا على أن يمنعوا وصول الاقوات اليهم .

وبلغت اخبار الحصار مسامع السلطان صلاح الدين ، فاشتد به الحزن والاسى ، وفقد أعصابه من وقع هذا الاذى ، واستبد به الاشفاق على المسلمين المحاصرين ، وملأ اليأس جوانب هذا القلب العظيم ، فشوهد فى هذه الحال الثائرة وهو يصرخ قائلا :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

كل ذلك والامير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد ، ويمشى فى وسط الجند ، داعيا اياهم الى الصبر والتجلد ، وكلما فكر جنده فى التسليم للعدو مناهم واملهم ، وقواهم وشد عزائمهم ، ومازال بهم حتى رجعوا عما عزموا عليه ، وعاهدوا الامير على أن يصبروا معه حتى الموت .

وهكذا شاءت الاقدار أن تخذل هذا الامير الصابر على محنته ، المدافع عن شرفه وعقيدته . وماان أتى المدد الى الفرنج عبر البحر حتى هزموا المسلمين اللائذين بهذا الحصن المنيع ، ودخلوا ، وانهالوا كما قلنا على أهلها نهبا وذبحا واسرا .. !

وكان الامير قراقوش ممن اسروا يومئذ . وبقى هذا الرجل فى الاسر حتى افرج عنه يوم عقد الصلح .

وكان يوم الافراج عنه يوم سرور عظيم وهناءة فائقة ، فقد فرح به السلطان صلاح الدين ، لما كان له من يد على الاسلام كله .

ومنذ يومئذ والامير بهاء الدين الى جانب السلطان صلاح الدين لم يفارقه لحظة واحدة حتى فارق السلطان هذه الدنيا .

أنما تعرف الرجال فى الشدائد ، ولا يبين الذهب الابريز الا بعد دخوله النار وصهره فيها. وكذلك كشفت هذه المحنة القاسية فى عكا عن جوانب فى خلق الامير بهاء الدين كانت خليقة بأعجاب المسلمين واعجاب سلطانهم صلاح الدين . فأصبح الجميع يلهجون بذكره ، ويثنون الثناء كله على خلقه وايمانه وصبره ، ويردون اليه السبب فى أن المسلمين المحاصرين بعكا لم يكتبوا على أنفسهم صفحة العار بتسليمهم للعدو بعد مارأوا هذا الجوع والمرض والعرى .

وفى نظر التاريخ أن هذه الصفحة الرابعة او الفصل الرابع من رواية البطل بهاء الدين قراقوش يعتبر أروع الفصول كلها ، وأن هذين العامين اللذين قضاهما محصورا فى عكا هما اشد أعوام حياته من أولها الى آخرها .

— ٥ —

قراقوش يحمي عرش العزيز

لقد كشف الامير بهاء الدين قراقوش فى الفصل المتقدم من روايته عن اخلاصه للاسلام والمسلمين ، وصبره وعظم احتماله في سبيل حمايتهم من الصليبيين . وهو فى هذا الفصل الخامس من روايته يكشف لنا عن اخلاصه للعرش الايوبى ، ويبين عن طبيعته التى تكره الخيانة فى أى صورة من صورها ، ووضع من أوضاعها

مات صلاح الدين ، وانقسم الملك على أولاده من بعده : فكانت مصر من نصيب ابنه (العزيز) ، وكانت دمشق وما حولها من نصيب ابنه (الافضل) ، وكانت حلب وما حولها من نصيب ابنه (الظاهر) ، وما بقي من ملك صلاح الدين أصبح فى جملته من نصيب أخيه الملك (العادل) .

ومنذ توزعت هذه الدولة الصلاحية الكبيرة على هذا الوجه ، والفرقة تدب بين ملوكها ، والشقاق يتفشى بين أمرائها . ولولا خطر الحروب الصليبية الذى كان يتهدد الجميع على السواء ، لما عرف هؤلاء الملوك أنهم أبناء سلطان واحد ، ولما خطر لهم أن يجتمعوا فى صعيد واحد ، ولما اتحدوا يوما ما لمحاربة عدو واحد .

أما (العزيز) فكان ملكا فاضلا فيه ذكاء ونخوة . وكان له جيش عظيم يتألف من فيلقين عظيمين أو فرقتين كبيرتين ، هما فرقة الصلاحية (مماليك أبيه صلاح الدين) ، وفرقة الاسدية (مماليك جده أسد الدين شيركوه) . وكان بين الفرقتين خلاف شديد ، وخصام لا ينقطع . وكان العزيز متهما بايثار الصلاحية على الاسدية .

وأما (الافضل) فكان ملكا طيب القلب ، ولكن به غفلة ، لا تليق بالملوك . وكان من سوء حظه أن وجد الى جانبه وزير نكد الطالع ، سيء التدبير ، برغم ما اشتهر به مع ذلك من سعة العلم والادب ، واسم ذلك الوزير الاديب (ضياء الدين بن الاثير الجزرى) أبغضه الناس جميعا لحماقته وسوء رأيه حتى قال فيه شاعرهم :

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر
يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

ولكلمة (الجزر) هنا معنيان الجزر وهو النبات المعروف ، والجزرى وهو الوزير ابن الاثير . والمعنى الاخير هو المقصود !

وأما (العادل) فهو عم أولئك الاخوة ٠ وكان ينبغى أن يقوم مقام صلاح الدين ، وألا يدخل بين الاخوة الا كما يدخل النسيم بين الاغصان يعطف بعضها على بعض، أو كما يدخل المرود بين الاجفان يرد اليها ما تفقده من النور والعافية ٠ ولكن الملك العادل كان لسوء الحظ على غير ذلك :

كان ملكا عظيم الدهاء بطبعه، كثير الطمع بطموحه ، ثم زاده اختلاطه بملك الانجليز ريشارد (قلب الاسد) فى أثناء المفاوضات، الصليبية مكرا على مكر ، وشرا على شر ٠ فأعمل هذا المكر كله فيما يعود على أبناء أخيه بالخلاف والتفرقة ٠ واستطاع بدهائه أن يوسع الهوة بين الملك العزيز صاحب مصر والملك الأفضل صاحب دمشق ٠

وزاد الطين بلة فى ذلك الظرف وجود رجل خبيث الى جانب (الافضل) ، وهو وزيره المعروف بابن الاثير الجزرى ٠ فقد أساء هذا الوزير معاملة الامراء فى بلاط الملك الافضل ، حتى اضطروا الى الفرار من دمشق الى مصر ،فرحب العزيز بهم ، وعول فى أموره عليهم ٠ ولم يكتف الوزير الجزرى بذلك ، بل حمل (الافضل) على مقاطعة أخويه ، وزين له الدخول فى حرب ضد أخيه العزيز ٠ وبلغ ذلك الملك العادل فلم يكن منه هو الآخر الا أن صب الزيت على هذه النار المتأججة بين الملكين الاخوين ٠ ولم يقر له قرار حتى حمل العزيز على الذهاب بجيشه الى دمشق ، حيث أخوه الملك الافضل ٠ ولكن الملك العزيز لم يترك مصر يومئذ الا بعد أن أناب عنه الامير بهاء الدين قراقوش فى حكم الديار المصرية

ولم تكن هذه هى أول مرة ناب فيها الامير بهاء الدين قراقوش عن السلطان فى حكم البلاد ، فقد سبق له أن قام بهذه المهمة فى حياة صلاح الدين نفسه ٠

ومعنى ذلك أنه كان أهلا لهذه الثقة ، ومستحقا لهذه المنزلة ٠ فلم يكن غريبا أن يثق به العزيز كما وثق به من قبل أبوه السلطان صلاح الدين ، وأن يترك له مصر أحوج ما تكون الى وجوده فيها بنفسه ٠

نعم ـ لقد كانت الظروف التى غادر فيها **(العزيز)** مصر من السوء بحيث كان لا ينبغى له مطلقا أن يفكر فى البعد عنها والانصراف الى غيرها، والا ساءت العاقبة ٠

ذلك ان النــاظر فى الاحــوال الداخلية بمصر فى ذلك الوقت ، اذا دقق النظر بعض التدقيق، رأى نارا تحت رمــاد ملتهب ، ورأى جيش العــــزيز على أبواب ثورة تحتبس فى نفــوس الجنود حتى يحــين الظرف الذى تنفجر فيــه انفجــارا هائلا ٠٠ ألم نقــل ان جيش العزيز كان مؤلفا وقتئذ من فيلقين كبيرين أو فرقتين عظيمتين همــا فرقة الصــــلاحية وفرقة الاســدية ، وأن (العزيز) كان متهما بتحيزه للفرقة الاولى ؟

ألم نقل كذلك ان الملك (**العادل**) أو ثعلب الملوك الايوبيــة ، كان يقف لابناء أخيه بالمرصاد ،وكان يتربص بهم الدوائر ، وكان يريد أن يتحين كل فرصة للايقاع بينهــم ، وكان يغــرى بعضهــم ببعض ، ويذم بعضهم عند بعض،حتى أوغر جميع الصدور،وأيقظ الاحقـــاد النائمة فى القلوب ،ولم يترك أبنــاء أخيــه الا وكل واحد منهم على أهبة الاســتعداد لمحاربة أخيـــه ، حريص على أن يهزمه كما يحــرص على هزيمــة الفرنج أو أشد من ذلك حرصا ؟

فــكر الثعلب المــاكر ، ونعنى به الملك (**العادل**) فى طريقــه يزعج بها (**العزيز**) فأخذ يخوفه من (**الاسدية**) وطفق فى الوقت نفسه يكاتب هؤلاء الاسدية فى مصر ، وكان زعيمهم اذ ذاك رجــل يقــال له (**أبو الهيجاء السمين**)وكان هــذا الخبيث واليا على بيت المقدس من قبل العزيز ، ثم عزله العزيز وولى مكانه غيره ، فأسرها (**أبو الهيجاء**) فى نفسه ، ونوى الغدر بصاحبه !

ووصلت كتب الملك العادل الى الاسدية ،وبيت الجميع سوء النيه وكان بعضهم بالقدس ، وبعضهم الآخر بمصر ، فــكتب الاســدية الذين فى خارج القاهرة الى اخوانهم بداخلها ، واتفقوا جميعا على أن يحولوا بين العزيز ودخول مصر ،وذلك عند عودته اليها من حرب أخيه الملك الافضــل ، ويومئـــذ يصبح العزيز نفسه بين نارين أو يختار لنفسه واحدة من ثلاث:

فاما التســـليم للاســدية فى مصر ، واما التسليم للافضل فى دمشق ، واما أن يستجير بعمــه الملك العادل ، وهو رأس هــذه المؤامرة !

كل ذلك والعـــزيز مقيم فى عســكره قرب دمشــق ، يرتب الجند ، ويشرف على نظام الجيش،ومعه زعيم الاســـدية الذى مر ذكره ، أبو الهيجاء السمين ،يظهر الخضوع لسيده من ناحية ، ويتــلقى كتب المؤامرة التى تردالبه من ناحية ثانية ٠ ووثق هذا

الزعيم بنجاح المؤامرة ، وأيقن باحكام خطتها . وفجأة ـ وعلى غير انتظار ، شوهد أبو الهيجاء السمين منسحبا من الميدان ، وخلفه عدد كبير من الجند ، وقد استكملوا عدتهم ، واستعدوا لفتنتهم . وكانوا يؤلفون الجزء الاكبر من جيش العزيز ، ففت ذلك في عضد هذا الملك ، وأضعف من شوكته ، وأخمد من عزيمته ، واضطر في صبيحة اليوم التالي الى التفكير في النجاة بنفسه والعودة سريعا الى مقر حكمه

« ولكن ! ماذا فعل الله بك يا أخي بهاء الدين قراقوش ؟ وهل استطعت أن تقضي على هذه الفتنة التي ربما أيقظها الاسدية في مصر ؟ »

بهذه الكلمات تمتم الملك العزيز وهو يفكر في خطته الجديدة . واذ ذاك هتف هاتف في أعماق نفسه « أن اطمئن أيها الملك المعظم الى نائبك الامير بهاء الدين ، وثق بأنه باذل في حمايتك وحماية عرشك كل ما يستطيع حتى لا ينجح العادل أو الافضل أو الاسدية وغيرهم في زحزحتك عن عرشك وازالة ملكك وادالة دولتك ! »

ولقد صدق حدس العزيز ، وأصاب رأيه كل الصواب في الامير بهاء الدين فقد علم هذا الامير العظيم بسر المؤامرة ، واستطاع أن يقرأ بعض الكتب التي وردت الى الاسدية من اخوانهم خارج القاهرة . وهنا ثارت نفسه ، وغلا الدم في جسمه ، وأقسم يومئذ ليحبطن هذا العمل ، وليدخلن الملك العزيز مصر ان شاء الله آمنا . وراح بنفسه الى الاسدية يخوفهم ويهددهم ، ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم ، ويصور لهم دناءة الفعلة التي يقدمون عليها . وما زال بهم حتى أخمد نشاطهم ، وأطفأ جذوتهم ، وأحبط حيلتهم ، وأحاط بهم من كل جانب ، وفوت عليهم كل قصد . ثم ما كاد العزيز يصل الى القاهرة حتى كان قراقوش قد انتهى من عمله ، ومهد له طريق الدخول .

ودخل العزيز مصر واستقبله أهلها بسرور عظيم . ثم جلس اليه الامير بهاء الدين قراقوش وأخبره بخبر المكيدة التي دبرت ، والخطة التي وضعت ، والقصد الذى قصد اليه الاسدية في القاهرة . فشكر له الملك الصنيع ، وقدر له الجميل ، وقال له يومئذ:

« ليس غريبا أن يقع كل ذلك منك أيها الامير العظيم ، وانت من أعوان أبي صلاح الدين ، بل كنت من أقرب المقربين ، وأخلص

المخلصين ، فهنيئا للدولة التي أنت رجل من رجالاتها ، ودعامة قوية من دعائمها » .

وانهما ليتجاذبان أطراف الحديث ، اذا بالحاجب يستأذن لاحد الشعراء يريد أن يهنيء الملك بسلامة الوصول ، فأذن العزيز لهذا الشاعر بالدخول ، فدخل ،واذا به القاضي السعيد ابن سناء الملك . فقال له الملك : هات ماعندك ، فمثل الشاعر بين يديه وأنشد :

من فر منك فلا يلام ... وطريد بأسك لا ينام

ثم قال متهكما (**بالاسدية**)الذين فشلوا في مؤامرتهم ، وأحبط الله عملهم ،ولم يستطيعوا أن يمنعوا العزيز من دخول القاهرة :

وهم الاسود فما لهم ... طاروا كما طار النعام
ومضوا وما سل الحسا ... م فكيف لو سل الحسام؟
لاينفعون ولن يضروا ... ان مضوا واذا أقاموا
فلئن عفوت فانما ... يعفو عن الذنب الكرام
وان انتقمت فان أي ... سر ما استحقوا الانتقام
وهمو به سكرى ولي ... س سوى الهموم لهم مدام
ستسوقهم بيد الزما ... ن ففي أنامك الزمام

كل ذلك والامير بهاء الدين قراقوش يصغي الى الشاعر ، ويحاول أن يتتبع الحديث فلا يفهم منه الا قليلا ، بالرغم من سهولة الفاظه الى هذا الحد ، وقرب معانيه على هذه الصورة !

أما الملك العزيز فانه استمع الى قصيدة الشاعر بشوق عظيم واعجاب متزايد ، وعلى فمه ابتسامة لاتفارقه ، وفي قلبه فرحة لاتقل عن فرحة النصر أوهي أكبر وأعمق أثرا . ثم ماكاد الشاعر يفرغ من انشاده حتى بادره الملك بالجائزة . وخرج الشاعر من عنده راضيا ، ثم عاد الملك يتحدث مع الامير بهاء الدين قراقوش ، ويستمع لقصته مع الاسدية الذين خانوه في غيبته . وانتهى المجلس بأن أسر العزيز الى بهاء الدين حديثا لم يعلمه أحد ، ثم مال عليه العزيز ونفحه بهدية ثمينة قبلها الامير شاكرا ، برغم أنه من أزهد الناس في هدايا الملوك ، ومن أقلهم رغبة في مالهم وجوائزهم .

هكذا أخلص الامير بهاء الدين قراقوش للملك العــزيز ، كما أخلص من قبــل الاخــلاص كله لوالده السلطان صــلاح الدين ، فحافظ على العرش فى أثناء غيبة العزيز عن مصر ، وأضاف بذلك يدا جــديدة من أياديه على هــذه الدولة الايوبية التى شــارك فى بنائها وحياطتها من شرور أعــدائهــا ، وأبلى فى ذلك بلاء قل أن يكون له نظير .

ألا ما أروع الدور الذى قام به بهاء الدين فى هــذا الفصــل الخــامس من فصول الرواية التى مثلها على مسرح التاريخ المصرى الوسيط ، وما اشد اخلاص الرجل ، وما أنهضه بالقيــام بالواجب عنيه نحو وطنه ونحو دينه ونحو سيده فى آخر الامر .

الحق أن هذا الامير كان كنزا من كنوز هذه الدولة التى من الله به عليها ، وادخره لهــا ، وأعانه على اعلاء شأنها وبلوغ غايتها .

قراقوش الوصى على عرش المنصــور

.. هــذه هى الصفحة السادسة والاخيرة من كتاب الامير بهاء الدين قراقوش ، أو الفصــــل الاخــير من رواية حياته المجيــدة كما عرفها التاريخ :

فقد مات الملك العزيز ،وأوصى بالملك من بعده لابنه **(المنصور)** وكان صبيا فى التاسعة من عمره فأوصى أبوه أن يكون بهاء الدين مدبر أمره ووصــيا على عرشه .فقام الامير بهاء الدين بهذه المهمة الاخيرة خير قيام، وأجلس المنصور على سرير الملك غداة اليوم التالى لموت أبيــــه ، ووقف الى جانب العرش كما يقف الاسد الهصور خلف الاجمة . وبقى الامير الامين يلى حــكمه ، ويحــوط ملــكه ، ويسوس رعيته ، ويذود عنه وعن مصالحه ، ويرعى بذلك عهد أبيه **(العزيز)** وجده الكبير **(صلاح الدين)** .

والامير بهاء الدين قراقوش ،وان كان قد أسن فى تلك الفترة، وضعفت همته ، وثقلت حركته ،وتضعضعت صحته ، الا أن كبر السن لم يبلغ به حدا أضر بعقله،أو أخــل بحكمه . فلم يعــرف التــاريخ الصحيح أن بهاء الدين قد صــدر عنــه فى تلك الآونة تصرف يدل على الخرف ، أو أتى عملا من الاعمال ينبىء عن الخبل أو العته . فقد كانت الامور تسير بين يديه يومئــذ سيرا حســنا ، لايكاد ينغصهــــا أو يكدرها الأطماع الملك الافضل من ناحية، ومؤامرات الملك العادل من ناحية ثانية . وأحق من هـــذا كله أن يقال : ألاعيب الملك العادل وحده.

ومن ثم لم يكن من الغريب أن تكون الفتنــة التى حــدثت أيام العزيز هى الفتنة التى حدثت أيام المنصــور ، وان الظـروف التى أحاطت بالابن ، توشك أن تكون هى بعينها التى أحاطت بأبيه .

فقد انقسم الصلاحية والاسدية على أنفسهم ، وتنــازعوا بيهــم أمرهم ، وأعلنوا انهم غير راضين عن وصــاية الامير بهــاء الدين قراقوش ، وانهم يفــكرون فى وصى جــديد على الملك المنصور . واستقر رأيهم اذ ذاك على الذهاب الى القــاضى الفاضل لاستشارته فى المسألة .

غير أن القاضى الفــاضل امتنع يومئذ عن ابداء رأيه ، بحجة انه

قد اعتزل السياسة من مدة ،فتركوه وانصرفوا ، ثم عادوا الى النزاع القديم ، فقال الصلاحية:

« نعمل بوصية العزيز ،ونخطب لابنه المنصور ، ونحلف على طاعته ، ونرضى بالامير بهاءالدين قراقوش وصيا عليه ، وأميرا علينا »

وقال الاسديه :

« بل نفكر فى وصى آخر يكونمن كبار الاسرة الايوبية » •

وقال آخر من الاسدية :

« حبذا الملك العادل • فلندعهليكون وصيا ونحن له طائعون وبه راضون » •

وقال ثالث من هذه الفرقة :

« ان الملك العادل مشغول دائمابحروبه التى لاتنتهى ، فضلا عن أن ملكه بعيد عنا • فكيف نشغلهبمملكتين معا » ؟

وقال رابع من الاسدية :

« اذن فلنفكر فى الملك الافضل . ولنبعث اليه ليقدم الينا • ولنحدد للوصاية اجلا لا يزيدعلىسبع سنين، بعدها يعود الافضل الى ملكه ،ويترك للمنصورعرشه»

وكتب الاسدية بالفعل الىالملك الافضل يدعونه الى المجىء• وكتب الصلاحية الى اخوانهمبدمشق يقولون لهم :

« قد اتفقت الاسدية على الافضل ، ودعوه الى المجىء اليهم ، فان ملك الافضل الديار المصريةحكموا علينا ، وأطلقوا فينا أيديهم • فامنعوا الافضل منالمجىء الى القاهرة » •

ولكن يالسوء الحظ!لقدحدثمالم يكن فى حسبان أحد • حدث ان كتاب الصلاحية الى اخوانهمبدمشق وقع خطأ فى يد الملك الافضل ! فأخذ الافضل الكتابوذهب ومعه الرسول الى مصر •

وهناك خرج الاسدية والصلاحيةمعا لاستقباله ، والصلاحية لايعلمون شيئا حتىفوجئوا برؤيةرسولهم مع الملك الافضل،فسقط فى أيديهم ، وعلموا أن كتابهموقع فى يده • وفكر زعماؤهم فى الامر،فرأى بعضهم أنيستأذنفى السفر الى القدس ، وسلك الباقون من الزعماء مسلكهم ،فأذن لهم الافضل فى الرحيل ، فرحلوا وهم يحمدون الله علىنجاتهم وسلامة أرواحهم !

أما الامير قراقوش فحين رأى زعماء الصلاحية قد رحلوا الى القدس ، وحين رأى الجند الباقين منهم لا يقومون له بأمر ، وليس في مقدورهم أن ينهضوا به ، وحين رأى الملك الافضل قد عمل برأى الاسدية واستعد لتنفيذ مشورتهم وتحقيق رغبتهم ...
نقول حين رأى الامير بهاء الدين قراقوش كل ذلك ، لم ير بدا من الخضوع للامر الواقع ، فبادر الى النزول يومئذ عن الوصاية للملك الافضل ، قائلا له :

« أيها الملك : هذا ابن أخيك ، وما يكون لى أن أتولى أمره فى وجودك . ولك على الطاعة مادمت له حافظا ، وعلى عرشه ساهرا . وأنا أحلف على ذلك » .

وبذلك تم الامر للافضل ، على كره من فرقة الصلاحية أولا ، ومن الامير قراقوش ثانيا ، ومن الملك الصبى آخر الامر .

أما الملك العادل – أو الملك الماكر – فحين بلغته هذه الاخبار ، ترك الحرب التى كان مشغولا بها ، وعاد من فوره مسرعا الى دمشق ، وكان الافضل غائبا عنها بمصر ، فدخلها وتحصن بها . ووصلت أخبار ذلك الى الافضل فى القاهرة ، فأشار عليه الاسدية بسرعة العودة الى دمشق ، فعزم الافضل على ذلك ، وكاتب أخاه الملك الظاهر ملك حلب ليساعده ، فوعده الظاهر بالمساعدة .

وكان أهل دمشق يحبون الملك الافضل لكرمه وأدبه وحسن خلقه . وكانوا يبغضون الملك العادل كل البغض لمكره وخبثه ودهائه وسوء نيته . فلما علموا بعودة الافضل الى دمشق أخذوا يضايقون عمه الملك العادل مضايقة متصلة ، أفسدت عليه كل قصد ، وأوقعته فى حيرة شديدة . ولم يكتف أهل دمشق بذلك ، بل أخذوا يحطمون بأنفسهم بعض أسوار المدينة وأبوابها ، ويقطعون اشجارها . ومر العادل نفسه بباب منها فرموا على رأسه زيتا فى غليانه ، فأخطأه الزيت ، ووقع على رأس فرسه ، فمات الفرس لساعته ، ونجا الملك العادل لحسن حظه ! وكم كان الحظ مواتيا لهذا الملك فى ظروف شتى وحالات متعددة !

وبقى الملك العادل صابرا على تلك المضايقة ، مسيطرا على أعصابه كل السيطرة ، فلا ينبس ببنت شفة ، ولا تسمع منه كلمة واحدة ، حتى استقر رأيه أخيرا على حيلة تتفق وطبيعته ، وهى أن يلقى حباله فى القوم ، وينفث سمومه فيهم ، ويقصد الى هذين الاخوين المتضافرين ، الملك الافضل والملك الظاهر ، فيحاول

التفرقة بينهما ، والسعى فى اختلافهما · ففعل ، وبعث أولا الى الملك الظاهر يقول له :

« أنا أسلم اليك دمشق على أن تكون لك لا للأفضل »

فانخدع الملك الظاهر بقول عمه ، وطمع فى ملك أخيه الافضل ، وبعث اليه بقوله :

« انت صاحب دمشق ، وقد بلغنى انك تدعها لى وتؤثرنى بها على نفسك » ·

فجاءه الرد من أخيه الافضل يقول :

« دمشق لى ، وانما أخذت منى غصبا ، ولن أعطيها أحدا أبدا »

ومنذ يومئذ وقع الخلاف بين الافضل والظاهر على ماتمنى عمهما الملك العادل · ورجع الظاهر الى حلب ، وبقى الافضل بمصر ، وفاز العادل بالغنيمة !

وليت الامر وقف عند هذا ، بل ان الملك العادل فكر يومئذ فى الاغارة على مصر نفسها · وتجهز لمحاربة الافضل بها ، فلما علم الافضل ما عزم عليه عمه جمع الحاضرين من أمرائه ومستشاريه ، وأظهر لهم الخوف من عمه ، وكان الامير بهاء الدين قراقوش حاضرا فى ذلك اليوم · فاستأذن فى الكلام ، فأذن له الملك الافضل ، فقال :

« لا تخف يامولاى ·· فنحن جندك وجند أبيك السلطان صلاح الدين من قبلك · مرنى أحفظ لك قلعة الجبل ، ومرنى أقم لك مابقى من سور البلد ، ومرنى أحفر لك خارج السور ، وأعمق الحفر ، حتى أصل الى الصخر ، وأجعل التراب على حافة الحفر التى حفرتها فيبدو هذا التراب كأنه حائط آخر · دعنى أفعل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس · وبذلك لايبقى لمصر طريق الا من بابها الذى يصعب أن يدخله العدو »

ألقى الامير بهاء الدين قراقوش كل هذا الحديث ، وكأنما قد أشترك فى القائه كل جارحة من جوارحه ، وكل عضو من أعضاء جسده المتهالك من شيخوخته · ولكن الاخلاص جذوة من نار لاتخمد أبدا فى نفس صاحبه · ولا تزال هذه الجذوة مصدر الدفء فى جسده ، والقوة فى قلبه ، والشباب فى روحه ، والطهارة فى نفسه ، مادام حيا ، مهما طال به الاجل ، ونال من صحته وعافيته وقوة عضلاته الزمن · وهكذا كان الامير بهاء الدين قراقوش شعلة من وفاء وقبسا من ايمان ، ومصدرا من مصادر القوة المادية

والقوة المعنوية ، وركنا من أركان الدولة الايوبية ، وكهفا يلوذ به أمراؤها وحكامها وذوو الامرفيها،حتى انتقل من عالم الخداع والاباطيل الى عالم الروح والحق !

ألقى الاميربهاء الدين قراقوش هذه الكلمات بصوت مرتجف ، لايكاد يسنده الا قوة الحق في نفسه ، والصدق في خلقه وطبعه. واستمع اليه الافضل حتى فرغ من كلامه ، ثم أقبل عليه يقبله ويظهر له الرضا عنه وعن هذا الرأى الذى أدلى به .

وكاد الامر يتم للملك الافضل على هذا الوجه ، لولا أن المال قل في يده ، فأصبح عاجزا عن سد أعطيات الجند ولم يجد المسكين أمامه الا رأيا واحدا ،هو أن يأخذ في احراق مدينة (**بلبيس**) ظنا منه أن النار تحول بينه وبين عمه الملك العادل ، فلا يستطيع الوصول الى القاهرة .

واذ ذاك ثار الشعب، وثار معه الجند ، وانفلت زمام الامور من يد الملك الافضل . وكان الملك العادل لحسن حظه على أبواب القاهرة في تلك الآونة . وقد بلغه ماعزم عليه الافضل من احراق بلبيس ، كما بلغته أنباء الثورة التى قام بها الشعب والجند . فسهل له كل ذلك دخول مصر ،وتم له النصر . وفر الافضل نفسه من وجه عمه الى بعض بلاد الشرق . واستقر بالعادل المقام ، ونصب نفسه وصيا على الغلام . ثم جمع حوله جماعة من الامراء والفقهاء ، وحدثهم حديثا طويلا فقال لهم :

« انه قبيح بى أن أكون وصيا على هذا الصبي مع الشيخوخة والتقدم . والملك ليس بالارث ،وانما هو لمن غلب . وانه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين ، غير أني تركت ذلك اكراما لاخي ورعاية لحقه . فلما كان من الخلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك من يدى ويد أولاد أخي . فسست الامر الى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح الا بقيامى فيه ، ونهوضي بأعبائه . ولما ملكت هذه البلاد،وطنت نفسي على صيانة هذا الصبي حتى يبلغ أشده ، فرأيت العصبيات باقية ، والفتن والخلافات غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الافضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا اقامة انسان آخر ، ولا يعلم أحد ما تكون عاقبة ذلك . والرأى عندى أن يمضى هذا الصبي الى الكتاب ، وأن أقيم له من يؤدبه ويعلمه . فاذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره ، وقمت بمصالحه »

فوافق الامراء والفقهاء على هذاالرأى ، ولم يشذ عنهم غير الامير بهاء الدين قراقوش ، ولكنه لم يجد من يعينه على رأيه ، أو يقوم بشأنه ، أو يتحيز لطريقته ٠فكتم غيظه فى قلبه ، وحبس آراءه فى نفسه ، وعلم أن هذانذير بقرب نهايته من الدنيا ، وراحته من متاعبها ، ومتاعب أهلها ٠

هكذا تجور القوة على الضعيف. ويظهر الباطل أحيانا على الحق ويغرق الامير بهاء الدين قراقوش في بحر من الافكار البعيدة ، ويستعرض أمامه طائفة من الذكريات القديمة ٠ ويعود بذهنه الى عهد القائد الباسل أسد الدين شيركوه ، ثم الى عهد السلطان الاعظم صلاح الدين الايوبى ،ثم يذكر عهد ابنه العزيز ، ثم يذكر أيام المنصور ، ثم يستعيدفي ذهنه كلمة قالها السلطان صلاح الدين لاخيه الملك العادل ،وكان بينهما يومئذ :

« أنا نجيب فما يكون لى أولادنجباء ٠ وأنت يا أخى غير نجيب فسيكون لك أولاد نجباء » ٠

نعم ، استعاد الامير بهاء الدين قراقوش فى ذهنه هذه العبارة ، ولم يكن يفهم معناها حين صدرت من السلطان صلاح الدين وحدث بها أخاه الملك العادل ٠ ولكنه الآن يفهم المعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، ويرى بعينى رأسه كيف تحقق شطر كبير منها ٠ واذ ذاك يتأوه الامير بهاء الدين قراقوش ،وتطول آهاته مدة كبيرة ، ثم ينطلق بهذه العبارة :

« ما كان أفطنك أيها الرجل العظيم صلاح الدين فقد أدركت بثاقب نظرك ماخبأه القدرلولدك ،من أنهم لايملكون البلاد ، وانما يملكها منهم أولاد عمهم الملك العادل » !

ويظل بهاء الدين قراقوش يتأمل هذه العبارة التى سمعها من صلاح الدين ،ويأخذ فى ترديدألفاظها ، ويتبع ذلك كل مرة بآهة من آهاته الطويلة التى تتسع أمامه رويدا رويدا حتى تشمل جميع الذكريات والعهود التى مربها منذ خروجه من بلاده آسيا الصغرى الى وصوله دمشق ،ومنها الى مصر ٠

ويترك الامير بهاء الدين تأمله فى عبارة صلاح الدين، ويستعيد عبارات الملك العادل ، وهى التى سمعها منذ برهة قصيرة ٠ يستعرضها لفظا لفظا ، ولكن لايستوقفه منها غير قوله فى دهاء ومكر ، وفى اصرار وخبث :

« والملك ليس بالارث ٠ وانما هو لمن غلب » ٠

فيقول الامير بهاء الدين فى نفسه :

أجل- أيها الملك الخبيث -الملك ليس بالارث وانما هو بالغلب ..
لست أدرى من علمك هذا العلم ،ومن أين وصلت الى هذه القاعدة الخطيرة من قواعد الحكم ؟

أهى خبرتك واشتغالك بالحروب طول هذه السنين ؟ أم هى عشرتك وصحبتك لامثال الملك رشارد (قلب الاسد) ملك الانجليز ؟ أم هى معرفتك بأن هذه القاعدة السياسية لاتخرج عن كونها من القواعد الطبيعية التى يؤمن بها الواقع ، ويشهد بصحتها التاريخ ؟

***

والآن أيها الامير بهاء الدين قراقوش - وقد كبرت وضعفت وتهدمت ، وأحسست كأنك تقف برجلك على حافة القبر ، ترى ما أنت فاعل بنفسك بعد ذلك ؟

انك لن تستطيع بعد اليوم الآن تلزم بيتك ، وتحبس نفسك ، وتنتظر الاجل الذى يسدل الستار على حياتك .

وما هى الا شهور قليلة بعد هذه الحوادث الاخيرة ، حتى سمع الناس فى القاهرة بموت الامير بهاء الدين قراقوش .فحزن عليه الجميع ، وذكروا تاريخه الابيض الجميل ، وسألوا الله له الرحمة والقبول .

وهكذا طوى الموت صفحة رجل من رجالات ذلك العصر، كان له أكبر الاثر في صيانة الدولة الايوبية ،تلك الدولة التى قامت لازالة الدولة الفاطمية ، وامتلاك الديار المصرية،والاستعانة بأموالها ورجالها ومواردها العامة فى محاربة الصليبيين الذين أتوا لاستعمار الشرق العربى الاسلامى بحجة الدين ، فأبى الشرف الشرقى الا أن يردهم الى بلادهم ، ويمسح عار ظهورهم فى وسط العالم الاسلامى كالرقعة السوداء القذرة فى وسط ثوب نظيف أبيض

رحمك الله يا بهاء الدين قراقوش ، ورحم سلطانك الباسل صلاح الدين الايوبى ، ورحم أبطاله الذين أدوا معه للعالم الاسلامى هذه الرسالة الطيبة .

سيرة ابن مماتى

هو الاسعد أبو المكارم أسعدبن الخطير أبى سعيد بن مينا بن زكريا بن أبى المليح مماتى بتشديد الميم الثانية • انحدر منأسرة قبطية من أعرق أسر الصعيد •وكان ميلاده حوالى سنة ٥٤٤ للهجرة بمدينة أسيوط •

وفى تسمية جده باسم (**مماتى**) يحكى لنا التاريخ واقعة صحيحة : وهى أن مجاعة كبيرةحدثت بمصر عقب انخفاض النيل، وعزت الاقوات حتى لم يجدالناس يومئذ ما يأكلونه ، وأقبلوا كعادتهم فىمثل هذه المجاعات علىالقطط والكلاب يأكلونها ، وعلى لحوم البشر يطعمونها • وكانالرجل السمين من الناس يخشى على نفسه السير فى الطرق العامةحتى لايخطفه اخوانه ومواطنوه بالسنارة من نوافذ البيوت والحوانيت • وكان مماتى فى أول هذه المجاعة غنيا بعض الغنى ،وكانت عنده أقوات كثيرة ، فكان الاطفال يذهبون الى بيته،ويقفون صفوفا تحت نافذته ، وينادونه جميعا كما ينادون أمهاتهم،فيهتف الطفل منهم بلفظ « مماتى ! مماتى ! » ، يريد : أمى ! أمى ،فيخرج اليهم (أبو المليح) من بيته ويوزع عليهم القوت ولايتركهم حتى يشعروا بالشبع ، ويعودوا الى منازلهم •

والحق انها لذكرى لطيفة تدلعلى معان كثيرة ، من أشرفها وأعظمها معنى (الايثار) • ولايمكن لهذه الفضيلة ــ وهى فضيلة الايثار ــ أن ترتفعالى أعلى مراتبهافى الحياة الا فى مثل هذه الحالة التى نشير الى طرفبسيط منها، ونعنى بها حالة المجاعة ، وفيها يبلغ الامربالناس أنيأكلوا القططوالكلاب ، بل الجيف أحيانا • فمن استطاع منهم يومئذأن ينسىشح نفسه ، فلا شك انه من الصالحين الخيرين • وكذلك كان(ابو المليح) جد هذا الكاتب الذىنحكى الآن طرفا منسيرته•من أجل ذلك لم يكن غريبا أن تظهر هذه الاسرة القبطيةالعريقةظهورا واضحا فىالمجتمعالمصرىفى العصور الوسطى ، وأن يكون لهاشأنكبيرمع الحكام والملوكوالامراء والسلاطين ممن حكموا مصر فىتلك الفترة ، وأن تنظر الرعية نفسها اليها نظرة اكبار واجلال ،وأن يكون لكل عضو من أعضاء هذه الاسرة القبطية مكانةوشخصية ترتكز على دعامتين كبيرتين : دعامة نفسه أولا ،ودعامة أسرته مع ذلك •

ابن أبى المليح جد الكاتب

وكان ابن أبى المليح هـذا جدالكاتب ، فوق كرمه ولطفه وعطفه وسخاوة قلبـه ، رجلا بارزا منرجالات مصر فى العصر الفاطمى٠ وكان يعتمـد عليـه فى كثير منالامور التى تهم الدولة الفاطمية٠ وكان يتولى كثـيرا من أعمـالالدواوين فى ذلك الحين ٠ وكان معروفـا بثرائه وقلة اكتراثه بالمـال٠وفى ذلك يحكىالمؤرخون حكايات عجيبة لعل من أظرفهـاوأعجبها هذه الحكاية :

قيل أن بعض تجار الهند قدمالى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنـبر ، قد تأنق فى صنعهـا ،وبالغفىاجادتها ورصعها بالجوهر والياقوت ، واسرف فى تضميخهابالطيب ، ثم عرضها على الوزير الفاطمى المشهور (**بدر الجمـالى**)ليشـتريها منه ٠ فقـال الوزير للتاجر الهندى :

ـ بكم تريد أن تبيعنى هـذهالسمكة ؟

قال التاجر الهندى :

ـ لا أنقصهـا عن الف دينـاردرهما واحد ٠

فاستكثر الوزير على السمكةهـذا الثمن ، وحاول أن يسـوم صاحبهـا ثمنـا أقل ٠٠ ولـكنالتاجر الهندى أصر على موقفه ، ولم يشأ أنينقص من الثمندرهماواحدا ، فاضطرالوزير المصرىأن يعيـد اليه سمكته ، وأن يأذن لهفيخرج من الدار ٠

وخرج التاجر الهنـدى وطفقيسأل عن رجل غنى يمـكنه أن يقدر مثل هـذه التحفة ، ويدفعلها هذا الثمن ٠ فدله الناس على دار أبى المليح ، فطرقها ، وعرضالسمكة عليه ، فسأله أبو المليح :

ـ بكم ساومك الوزير ؟

قال التاجر :

ـ عرضت عليـه أن يدفع فىثمنها الف دينار لاينقص منهـا درهما واحدا ، فرفض ٠

فقال أبو المليح :

ـ هاتها أيها الرجـل واليـكالثمن ٠

فقبض التـاجر الهنـدى الفدينار كاملة وتركالسمكةومضى٠

وفى ليلة منليالى الشتاءالجميلفى مدينـة أسـيوط ، شرب ابو المليح حتى سكر ، وقال لندمائهيومئذ :

ـ قد اشتهيت السمك ، هاتوا المقلى والنار حتى نقليه بحضرتنا

فجاءوا له بمقلى حديد وأتوا له بفحم وتركوه على النار ، وقالوا : « لانجد الآن أى شيء من السمك » فترك ابو المليح ندماءه برهة، ثم عاد اليهم ومعه سمكة العنبر ،ووضعها بيده على المقلى ، فجعلت تتقلى وتفوح روائحها • وشاعت هذه الرائحة في الدار وخارجها ، حتى لم يبق بمصر كلها بيت الا دخلته هذه الرائحة الطيبة •

وكان الوزير بدر الجمالى جالسا فى منزله،فشم تلك الرائحة، وتزايدت حتى ظن أن اللصوص فتحوا خزائنه •فاستدعى حراس خزائنه كلهم ، وأمرهم بفتحها جميعها وتفتيشها ، خوفا من حريق يكون قد أصابها ، أو لصوص امتدت أيديهم الى شيء منها • فصدع الحراس بالامر ،وفتحوا خزائن الوزير ،ووجدوها سالمة ، وأخبروه بهذا الخبر •فقال لهم :

ـ ويحكم •• انظروا اذن من أين أتت هذه الرائحة ؟

فخرجوا يبحثون عنها حتى عرفوا حقيقة الخبر وعادوا الى بدر الجمالى فأخبروه به •••فاستعظم الوزير ذلك فى نفسه استعظاما كبيرا ،ونال منه العجب منالا عظيما •

وقال فى نفسه :

ـ هذا النصرانى الفاعل كل ذلك ؟ لاشك أنه لم يفعل الا بعد أن أكل أموالى ، واستبد بالدنيا كلها دونى •• وبغير ذلك ما كان يستطيع أن يفعل مثل هذا !

وصبر الوزير على مضض الى اليوم التالى • وبقى على حاله من الغيظ والغضب حتى دخل عليه أبو المليح ، فقال له الوزير :

ـ أستعظم أنا ـ وأنا وزير مصر ـ شراء سمكة من العنبر فأتركها استكثارا لثمنها ،فتشتريها أنت ، ثم لا تكتفى بذلك حتى تقليها ، وتضيع فى ساعة واحدة الف دينار مصرية كاملة !

وسكت الوزير لحظة ، ثم أتم كلامه قائلا :

ـ ما فعلت هذا الا وقد نقلت بيت أموالى اليك ، وانفردت بالدنيا كلها دونى !

فابتسم ابو المليح ابتسامة خفيفة ، ثم نظر الى الوزير بدر الجمالى قائلا :

ـ اسمع أيها الوزير : والله مافعلت هذا الا غيرة عليك ، ومحبة لك •• فانك اليوم سلطان نصف الدنيا •وهذه السمكة لايشتريها

الا ملك . وقد خفت أن يذهب بها صاحبها الى بعض الملوك ، ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها ، فأردت أن أعكس الامر وأعرف التاجر الهندى انك ماتركت السمكة الا احتقارا لها ، وانه لم يكن لها عندك مقدار ،والدليل على ذلك أن كاتبا قبطيا من كتابك اشتراها وأحرقها فى ساعة واحدة . فيشيع بذلك ذكرك ، ويعظم عند الملوك قدرك .. الخ ..

فاستحسن بدر الجمالى ذلك الجواب من أبى المليح ، وأمر له بضعفى ثمنها ، وزاد فى راتبه ،وشهد له بالذكاء والفطنة .

فى تلك العصور التى كان المال فيها محصورا فى ايدى نفر معدودين ،هم الوزراء والسلاطين ومن اليهم من كتاب الدواوين ، كانت هذه الطبقة العالية يتنافس أفرادها فى البذخ ، ويتسابقون فى الاسراف والتبذير ، ويعللون ذلك بالمحافظة على سمعة الملك أو السلطان أو الامير . والشعب نفسه يتضوز من الجوع! فسبحان من بدل الحال غير الحال ، وسبحان من جعل الحكام فى هذه الازمان يستمدون سلطانهم من الشعب ،ويحصرون جهودهم فى العمل لصالح الشعب ، ويستندون فى بقائهم على رغبة الشعب .

ونعود الى (**أبى المليح**) فنرى أنه كان لكرمه هذا وثرائه هذا مقصد الشعراء فى زمانه ، يأتون اليه ليمدحوه ويظفروا بشىء من عطائه الذى لايطمعون فى مثله الامر خليفة أو سلطان . وكان من الشعراء الذين انقطعوا لمدحه رجل يقال له (**ابن مكنسة**) بقى يمدحه حتى مات ، فلما شاع موته رثاه بقصيدة طويلة منها :

طويت سماء المكرما ... ت وكورت شمس المديح
ماذا أرجى من حيا ... تى بعد موت أبى المليح ؟

ومات كذلك الوزير بدر الجمالى وخلفه فى الوزارة الفاطمية ابن له اسمه (الافضل) فتحيل هذا الشاعر المتقدم ذكره حتى دخل على الافضل فى الوزارة يريد أن يهنئه ويمدحه ، فقال له (الافضل ابن أمير الجيوش) يومئذ :

« ذهب رجاؤك بموت أبى المليح .. فما الذى جاء بك الينا ؟ »

ولم يقبل أن يسمع له أو يجيزه على شعره .

هذه أطراف من سيرة (ابى المليح) جد الكاتب . فلننتقل من ذلك الى سيرة ..

وكان يلقب (بالخطير) ، وهو كاتب ديوان الجيش بمصر في أواخر أيام الفاطميين وأوائل أيام بني أيوب . وعظمت منزلته في الديوان حتى حسده أصحابه ، وحقد عليه الكتاب جميعا ، واتفقوا فيما بينهم على أن يشوا به عند صلاح الدين، أي عند عمه اسد الدين شيركوه ، وهو يومئــــذ المستولى على الديار المصرية ، فخاف المهذب على نفسه تأثير هذه المؤامرة ، وفكر في الامر مليا ، فلم يجد خيرا له من أن يعلن اسلامه هو وأولاده ، وأن يكون ذلك على يد صلاح الدين نفسه . فذهب اليه وعرض اسلامه واسلام أولاده عليه ، فقبلهم صلاح الدين وأحسن اليهم وزاد في وظائفهم وولايتهم ، وبذلك استطاع المهذب أن يقطع الطريق على حساده ، وأن يرد كيدهم ، ويحبط عملهم . وما لبث المهذب بعد ذلك أن أصبح واليا على ديوان الاقطاعات ، فضلا عن ديوان الجيش .

كل ذلك أوغر صدور الكتاب والشعراء في الديوان ، فزاد حقدهم عليه، وضاقت حيلهم فيه، ولم يسعهم الا أن يطلقوا ألسنتهم في الذى جد عليه وهو الاسلام ، فاتخذوا من اسلامه مادة لسخريتهم به والحط من منزلته . ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء واسمه (ابن الذروى) :

لم يسلم الشيخ الخطـ ... ـير لرغبة في دين احمد
بل ظن أن محاله ... يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنـ ... ـه فدينه (العود أحمد)

(المحال بكسر الميم الكيد والمكر) .

وأكبر الظن أن هذه الابيات قيلت بعد أن وشى الكتاب بالمهذب مرة أخرى عند الملك العادل أخى السلطان صلاح الدين . وما زال أولئك الكتاب الحاسدون بالعادل حتى أقنعوه بضرورة العمل على صرف المهذب عن الديوان . فسعى الملك العادل في ذلك سعيه ، وأبلغ الكتاب مآربهم فيه .

وفي استقالة (المهذب) من ديوان الجيش يحكى المؤرخون هذه القصة الصغيرة :

قالوا : ومن عجيب ما جرى للمهذب انه كان في يوم من الايام جالسا في حجرة من حجرات ديوانه بمصر ، وكانت حجرة حسنة منمقة بالرخام من كل جانب ، فجاءه قوم وقالوا له :

« قم من هاهنا »

فقال لهم : « ما الخبر ؟ »

قالوا : « قد امر الملك العادل بأن نأخذ رخام هذه الحجرة وان نعمر بها موضعا آخر »

فخرج المهذب الخطير منكسرا كاسفا خجلا ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

« قد استجيبت فينا دعوة . وما أظننى أجلس فى الديوان منذ اليوم . اما سمعتم اذا بالغوا فى الدعاء على احد قالوا : خرب الله ديوانه . ومابعدالخراب الا اليباب » .

ثم دخل منزله ومرض به ،فلم يخرج منه الا ميتا !

***

ولقد اجمعت كتب الادب على ان المهذب الخطير كان من ارق شعراء زمانه واعفهم ، وأحسنهم خلقا وانزههم . ومن شعره فى كتمان السر :

وأكتم السر حتى عن اعادته ... الى المسر به من غير نسيان
وذاك ان لسانى ليس يعلمه ... سمعى بسر الذى قد كان ناجانى

والحق ان مابقى لنا من شعره يدل على رقة لفظه ولطافة فكره وحسن تناوله .

الاسعد بن مماتى

وهو المقصود بهذه السيرة .وقد خلف أباه المهذب على ديوان الجيش ، وبقى رئيسا له مدةطويلة ، ثم اضيف اليه فى أيام صلاح الدين وأيام العزيز ديوان المال ، وهو أجل ديوان من دواوين مصر فى ذلك العصر ، وبقى رئيسا له مدةكبيرة أيضا . وإذ ذاك تعرف بالوزير عبد الرحيم بن على البيسانى المشهور بالقاضى الفاضل ، وحظى عنده،فحفظ الاسعد هذا الجميل للقاضى الفاضل ، وقام بأمره ،وأشاع ذكره ، ونبه على فضله، وصنف له كتبا عدة ، وأقبل فوق هذا كله يمدح السلطان صلاح الدين بقصائد فى غاية الروعة .

واشتهر الاسعد فى زمانه بالادب ، وأصبح من كبار الادباء فى مصر الايوبية ، وخاصة منذ اتصاله بالقاضى الفاضل زعيم النهضة الادبية والعلمية ، واتصاله بالقاضى الفاضل زعيم فرسان هذه الحلبة . وكان القاضى الفاضل يحب الاسعد بن

مماتى حبا جما ، ويقربه ويطلق عليه اسما ظريفا هو « بلبل المجلس » .

وبقى الاسعد بن مماتى يحتل هذه المنزلة الرفيعة فى عالم الادب وعالم الحكومة ، حتى اعاد للناس ذكرى أبيه وجده ، وبات محسودا منهم جميعا ولم يزل على ذلك فى عهد صلاح الدين وعهد الملك العزيز وبداية عهد المنصور . ثم حدث حادث خطير فى حياة الدولة الايوبية ،وهو ذلك الحادث الذى اشرنا اليه من قبل ، ونعنى به انتقال الدولة من أيدى أبناء السلطان صلاح الدين الى يد أخيه الملك العادل ابى بكر بن ايوب . واذ ذاك تغيرت الاحوال ، ودار الفلك دورته ، واعتزل القاضى الفاضل السياسة ، ولزم بيته ، وأصبح الامر كله فى يد ملك جبار هو (الملك العادل) والى جانبه وزير غدار هو (صفى الدين بن شكر) ، وكان بينه وبين الاسعد ابن مماتى ثأر قديم . فقد بدرت من الاسعد اهانة فى حق (ابن شكر) ، فحقد عليه ، وأسرها فى نفسه ، وعزم على أن ينتقم منه متى أمكنته الفرصة .

محنة الاسعد بن مماتى

ودارت الايام ، وجاء الوقت الذى أصبح فيه (ابن شكر) وزيرا فى دولة الملك العادل بالديار المصرية وكان العادل يكره كل اعوان أخيه السلطان صلاح الدين ، ويكيد لهم ، ويحاول أن يؤذيهم ماوسعه ذلك .

وكان من اكبر اعوان السلطان صلاح الدين رجال منهم عبد الرحيم بن على المشهور بالقاضى الفاضل ، وكان رجلا له كرامته فضلا عن عظم سطوته ، فما كاد يسمع بانتصارات العادل فى عالم المؤامرات تارة والحروب تارة أخرى ، حتى اعتزل السياسة لشيخوخته كما قلنا. وما زال فى بيته حتى جاء الوقت الذى دخل فيه العادل من احد ابواب القاهرة فى حين خرجت جنازة القاضى الفاضل من باب آخر من أبوابها . وبذلك وقف الموت حدا فاصلا بين القاضى الفاضل وعدويه الكبيرين الملك العادل وابن شكر . وكان هذا الاخير كثيرا مايقول :

« لم يبق لى أمل فى هذه الدنيا الا أن يتمرغ القاضى الفاضل بذقنه على تراب عتبتى ! »

ولم يعلم أن القاضى الفاضل كان اكرم على نفســه وعلى الله تعالى من ان يرى فى هذه المنزلة !

***

ومهمـــا يكن من شىء فـلم يستقر المقام (بابن شكر) هذا فى دست الوزارة المصرية حتى فكر فى طريقة ينتقم لنفســه بها من الاسعد بن مماتى ، فلم يجد انكى على نفس الحر من العبث به وبكرامته ، ولم يجد الما اشد على نفســه كذلك من اكرامه قليلا ثم الغدر به وبماله وعشيرته . وقال الوزير الخبيث فى نفســه يومئذ :

« ما احسن ان اقبـل على الاســعد أولا ، ثم آخـذه أخذ عزيز مقتدر ، فأحرمه العز الذى اذيقه منه شيئا ، وأحول بينه وبين المنزلة التى كان ينعم بهاحينا ، واحط به من عــل ، وأكون بذلك كالجــزار الذى يسمن خرافه ليذبحها بيده »

واقبل الوزير صفى الدين بن شكر كل الاقبال على غريمــه ، وفوض اليه جميع دواوينــه ، وسهل له طـريق العبث ببعض الاموال ، وبقى على ذلك ســنة كملة .

ثم لبس الرجل لغريمه جلد النمر ، وأخذ يدبر له المؤامرات ويحصى عليه السيئات، وينسبه الى المستحيلات ، ويكثر فيــه التأويلات، ومازال به — كما يقول المثل العربى — حتى وضع قدميه فى خف واحدة !

واذ ذاك نكبه (ابن شكر) نكبــة هائلة ، وطالبـــه بأموال طائلة ، ولم يلتفت الى اعذاره، ولا استمع لشىء من اعتذاره ، واصر على مطالبته بالمال . فلم يستطع الاسعد الوفاء بما طلب، لانه كان عفيفـــا ذا مروءة . فأحال الوزير عليــه الاجنـــاد ، فتصـــدوه وطالبوه واحرجوه ، واكثروا عليه وضـــايقوه . ثم راحوا يشتكونه بعد ذلك كله الى صفى الدين بن شكر . فما كان من هذا الوزير الخبيث الا ان حكمهم فيـــه وترك لهــم أن يحصلوا منه على المال بالطريقة التى يرونها ..

قال بعض المؤرخين :

وسمعت بنفسى الاســعد بن مماتى يقول : علقت فى المطالبــة بالمال على باب دارى بمصر على ظهر الطريق احدى عشرة مرة فى يوم واحد . فلمــا رأوا انه لا قدرة لى على تسديد المال قالوا

لي : تحيل واجعل المال اقساطاعنبك تدفعها قسطا قسطاحتى تنتهي منه . فقلت لهم :

« اما المال فما عندي منه شيء . ولكن اذا أفرجتم عني وملكت امري ، فاني استجدي الناس ، واسأل من يخافني تارة ومن يرجوني تارة ، حتى أحصل على المال بهذه الوسيلة »

قال له الجند : اختر لك طريقا آخر ...

قال الرجل : لا اعرف لي وجها آخر ، وليس معي بعد الذي اخذتموه مني درهم واحد ، فافعلوا بي ما بدا لكم . .

فقسطوا على المال ، وأفرجوا عني في الحال .. وبقيت مدة بسيطة حتى حل موعد القسط الاول ، ولم أكن قد استطعت ان احصل على شيء . فاختفيت واستترت ، وقصدت الى القرافة ، واخفيت نفسي في مقبرة من المقابر ، واقمت بها مدة عام كامل !

ثم ضاق الامر بي ، ففكرت في الهروب من مصر الى الشام .. واني لفي الطريق اليها ، واذا بفارس من الفرسان يجد في اثري ، ويحاول اللحاق بي ، حتى أدركني ، وسلم علي ، وناولني مكتوبا في يدي ، ففضضته ، واذا هو رسالة من الوزير صفي الدين بن شكر يقول في بعضها :

« ... لاتحسب أن اختفاءك عني كان بحيث لا أعلم ولا أدري اين انت ، ولا اين مكانك ، فاعلم أن أخبارك كانت تأتيني يوما بيوم ، وانك كنت في مقبرة كذا بالقرافة منذ كذا وكذا ، وانني مررت بهذا الطريق ، واطلعت فرأيتك بعيني رأسي ، وانك لما خرجت هاربا عرفت خبرك ، ووقفت على امرك ، ولو أردت ردك لفعلت . ولو علمت أنه قد بقي لك مال أو رجال لما تركتك .

ولم يكن ذنبك عندي مما يستحق أن أتلف به نفسك أو أزهق به روحك . وانما كان قصدي أن ادعك تعيش حياتك الباقية فقيرا غريبا شريدا مطرودا محزونا . فلا تظن أيها البائس انك هربت مني بمكيدة صحت عني ، او حيلة نجحت في ... كلا ، ثم كلا ، فاذهب الى غير رحمة الله » !

قال الاسعد بن مماتي :

« وتركني الرسول وعاد سريعا ، فبقيت في مكاني مبهوتا ثم استأنفت سيري حتى وصلت الى حلب ، ونزلت في دار الوزير

جمال الدين الاكرم أدام الله علاه، وأبلغه من الدنيا مناه . وذلك في سنة ٦٠٤ للهجرة .

وبعد أشهر قليلة علم الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين الايوبي بمكاني ، فبعث الى من يعرف أخباري ، واستدعاني فذهبت اليه ، فأجرى على في كل يوم ديناراً صوريا ، وثلاثة دنانير اخرى أجرة لدار أسكنها . وهذا كله عدا تحف وهدايا وألطاف كثيرة ماكان يحرمني منها . وأقمت في جوار هذا الملك العظيم ، وابن خير السلاطين البطل صلاح الدين ولا عمل لي عنده ، ولا خدمة في استطاعتي أن أؤديها » .

وفي عام ٦٠٦ للهجرة مات الاسعد بن مماتي بحلب ، ودفن بظاهرها ، بمقام يقرب من قبر أبي بكر الهراوي .

كان الاسعد بن مماتي زينة الدنيا في عصره ، وذلك لفضله وأدبه وحسن نظمه ونثره ، ولبراعته في المزاح واللهو . وقد يدل على ذلك شعره كما دلنا عليه نثره . ومن الاول قوله في غلام نحوي :

وأهيف أحدث لي نحوه تعجبا يعرب عن ظرفه
علامة التأنيث في لفظه وأحرف العلة في طرفه

والتورية واضحة في البيت الاخير .

وقال متغزلا في غلام خياط

وخياط نظرت اليه مفتونا بنظرته

أسيل الخد أحمره بقلبي ما بوجنته

وقد أمسيت ذا سقم كأني خيط ابرته

واحسد منه ذاك الخيط فاز برى ريقته

ويطول بنا القول بعد ذلك لو أردنا أن نروي للقارىء بعض قصائد ابن مماتي الجميلة في مدح صلاح الدين والاشادة بوقائعه وبسالته ومجده وبطولته .

كتب ابن مماتي :

وهكذا كان ابن مماتي أديبا من طراز أعلى . وكان له فوق هذا كله غرام بنظم الكتب القديمة ، مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره .

وأما كتبه الادبية والعلمية فكثيرة تربو على خمسة وعشرين

كتابا فى الادب والفقه والسير والتراجم والعلوم الاسلامية المختلفة ، ومنها كتاب له فى سيرة لسلطان صلاح الدين الايوبى

ولعل من أهم كتبه العدمة كتابا عنوانه :ـ

« قوانين الدواوين » يعتبر وثيقة من أهم وثائق العصر الايوبى ، وقد استطاعت الجمعية الزراعية فى مصر أن تطبعه وتنشره فى أيامنا هذه .

ولسنا نريد أن نشغل ذهن القارىء بأسماء هذه الكتب الادبية أو العلمية ، لاننا مكتفون هنا بالوقوف عند كتاب واحد منها فقط ، هو كتاب **« الفاشوش فى حكم قراقوش »** .

ولم يكن هذا الكتاب الأخير هو وحده كل ماكتب الاسعد ابن مماتى فى التشهير بوزير أو أمير ممن كان يحقد عليهم ويريد ان يشفى نفسه بالانتقام منهم . فقد كتب الاسعد بن مماتى كتابا آخر فى النيل من صديق له اسمه (علم الدين بن الحجاج) كان يعمل معه بديوان الجيش ، وكان بينهما ما يكون عادة بين المتماثلين فى العمل .

وقد اشار المؤرخون الى هذا الكتاب الذى كتبه الاسعد بن مماتى فى علم الدين بن الحجاج ، لكنه لم يصل الينا ، ولا نعرف عنه شيئا . واكبر الظن أنه كتبه بطريقة اخرى غير التى كتب بها (الفاشوش) . يدلنا على ذلك أن التاريخ لم يحفظ من هذا الكتاب الذى كتبه فى ابن الحجاج غير بيتين من الشعر نظمهما الاسعد بن مماتى فى هجاء غريمه ووصفه فيهما بالثقل اذ قال :

حكى نهرين ما فى الار ض من يحكيهما أبدا

ففى أفعاله ثورى وفى ألفاظه بردى

وثورى وبردى نهران مشهوران بأرض الشام ، وفى تشبيه الاسعد بن مماتى له بهما تورية لاتخفى على القارىء .

***

تلك اذن اطراف من سيرة الاسعد بن مماتى وسيرة ابيه وسيرة جده . ومنها تعلم أن كاتبنا نشأ فى بيت غنى وجاه ، وان اسرته كانت من اشهر الاسر القبطية بالديار المصرية ، وانها كانت تتولى أعمالا هامة من اعمال الحكومة ، فى عهد الفاطميين ، ثم فى دولة صلاح الدين ، وانها دخلت الاسلام ، فزادها الاسلام

قوة على قوة ، وان أتاح ذلك لاعداء هذه الاسرة فرصة النيل منها والتهكم بهـا . وكان من أشهر ما امتازت به تلك الاسرة القبطية ـ عدا خصـال الكرم والجود والامانة والمروءة ـ صفة العلم والادب والاستحقاق للمناصب العـالية التى بقيت فى أفرادها مدة طويلة .

ومن ثم برع الاسعد بن مماتى نفسه فى الكتابة براعة مكنته من كتابة هذا العدد الضخم من الكتب كما اسلفنا .

***

أفتظن ان أسرة هذا شأنها ، وتلك مكانتها فى البيئة المصرية التى عاشت بهـا ، تضرب فى الحياة ، وتأخذ فى سبيل الغنى والجاه ، ثم لايكون لها حساد كثيرون ، يحقدون عليهـا ، ويستكثرون الاموال والمناصب التى آلت اليها ، ويكيدون لها ، ويأتمرون بها ، ويتربصون الفرص التى تمكنهم من الانتقـام منها وازالة نعمتها ؟

وبم تقابل هـذه الاسرة كل ذلك ؟ انهـا تقابله بالسخرية والتهـكم من النـاس ، كبيرهم وصغيرهم ، وعاقلهم ، وغافلهم ، لاتدخر فى ذلك وسعـا ، حتى تبلغ ماتريد .

والحاسد من الناس يظل مشغولا بمحسوده ، دارسـا لاحواله وظروفه ، حتى يسمع برجل يكرهه ، أو آخر يستطيع أن يحمله على كراهيته ، فمـايزال به يصب فى أذنه من الكذب والاباطيل ، حتى يمتلىء هو الآخر من هذا المحسود ، ويجمع الرأى على نكبته أو حرمانه من سطوته .

وهكذا الناس فى كل زمن ومكان .. من دخل منهم هـذا الميدان ـ ونعنى به ميدان السياسة والرياسة ـ فانه لابد موطن نفسه على المنازلة والمنافسة ، فمرة يربح ومرة يخسر ، ومرة يهزم ، ومرة ينتصر . وهو فى ربحه وخسـارته يفقـد كل يوم جزءا من قوته وحيويته . حتى يأتى يوم لا يقـوى فيـه على الوقوف على قدميـه ، فينسحب من ميدان الحرب والغـلاب ، ويرضى من الغنيمة بالاياب ، ويطـوى الزمن صـفحته كطى السجل للكتب .

محكمة التاريخ

نص كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش على ان مؤلفه الاسعد ابن مماتى انما (صنفه لصلاح الدين عسى ان يريح منـــه المســلمين) اى من قراقوش . ومعنى ذلك ان الكتاب ــ كماتدل عليه هذه العبارة ــ يرجع تاريخ تصنيفه الى عهد صلاح الدين ، وان الحديث فيه موجه الى هذا السلطان العظيم ضد صديقه الامير بهاء الدين قراقوش .

وان القارىء ليعجب كل العجب كيف ظهر هــذا الكتاب فى حياة صلاح الدين ، وفى فترة شهدت عظمة الامير بهاء الدين ، وفيها شارك هــذا الرجل ــ كمارأينا ــ فى هــدم دولة واقامة أخرى . فقد كان فى الجيش الذى أتى به أسد الدين شيركوه الى مصر بقصد تهدئة الاحوال بها فى الظاهر ، والتمهيــد لازالة الدولة الفاطمية نفسها فى الباطن . ثم كان حارســـا لاعلى القصر الفــاطمى وحده بعــد تمام الامر لصلاح الدين ، بل كان حارســا للدولة الجديدة التى اقامها ذلك السلطان العظيم ــ صانها من المؤمرات ، وحماها من المكائد والدســائس ، وبذل فى سبيل صيانتها وحمايتها كل مايستطيع .

وكان مرة ينوب عن السلطان صــلاح الدين فى حــكم مصر ، وأخرى يعمل له فى بناء القلاع والحصــون ، وثالثة يأتمر بأمره فى بناء السور ، ورابعة يبنى له سورا فى عكا ، وخامســة يبقى مأسورا محصورا فى هذه المدينة التى شاهدت أسود أيام حيــاته حتى من الله عليه بالنجاة والعودة الى صلاح الدين الذى فرح فرحا عظيما بمقدمه ، ولم يدخر وسعا فى تقديره وتقديمه والثناء على خلقه وشجاعته .

الا ــ ما اقسى الليالى السود التى قضاها ذلك البطل المغوار ، لاليالى الحرب والاســار ، ولايضــعف من قوته الحديد ولا النار ، ولا الجوع ولا الحصار ، ولاهذه الآلاف المؤلفة من الجند تودى بهم الاوبئة الفتاكة فى تلك المحنة .

واخرى يعجب لها القــارىء كل العجب ، هى عدم مطابقــة النوادر التى اشتمل عليها كتاب الفاشوش ، وبعدها كل البعــد عن الصحيح فى أخلاق الامير بهاء الدين قراقوش ، وعن الحقيقة فى اعماله وتصرفاته العــديدة . ولست أدرى ماهى نقطة الضعف

فى أخلاق الامير بهاء الدين قراقوش ـ بصرف النظر عن عدم تقديره للادب أو الكتب ؟ وما الثغرة التى نفذ منها الاسعد بن مماتى الى هذا الامير فأصاب منه مقتلا ، ونال منه كل منال ، واستطاع أن يضحك منه الناس فى جميع الازمان والاجيال .

ان النوادر التى اشتمل عليها هذا الكتاب الصغير لا تمس جانبا حقيقيا واحدا من جوانب الامير ، ولا تصدق فى وصف ناحية صحيحة واحدة من نواحى نقصه وضعفه .

غير اننا نعرف أن مما أخذه التاريخ على قراقوش ميله الى الصرامة والجد ، والى الشدة والعنف ، فكان قلبه لا يستشعر الرحمة فى القيام بأمر من الامور التى يرغب فيها السلطان صلاح الدين . وكان لا يعرف طريقا الى الرافة بالناس فى سبيل ذلك . ثم هو فوق هذا كله ـ او هو من أجل ذلك كله ـ رجل شديد الخصام ، فلا يقر مبدأ المناقشة فى الامور ، ولا يحتمل الاصغاء الى جدل يصدر من كبير او صغير . وله رأى فى معاملة السوقة والعامة من الناس ، فهو يأخذهم جميعا بالقهر والشدة ، ولا يرده احد عن اعمال العنف والقسوة ما دام مطلوبا منه ان يقوم بكل هذه الاعمال التى لا تحتمل البطء او الكسل ، ولا يمكن أن تتم له فى جو من التراخى أو التساهل فى المعاملة

هكذا فعل الامير قراقوش بالاسرى وبعض العامة الذين استخدمهم فى بناء السور وبناء القلاع والحصون . وعذره فى ذلك ـ كما علمنا ـ هو حرصه الشديد على انجازها فى الوقت الذى اراده السلطان صلاح الدين .

وأكبر الظن أن أخلاق الامير بهاء الدين قراقوش لم تكن فى يوم ما أميل الى الغلظة والشدة ، ولا ادنى من الجفاء والقسوة كما كانت أيام نيابته عن السلطان صلاح الدين فى حكم القاهرة .

اذ ذاك ظهر الجانب الخشن فى خلق هذا الرجل ، وبدت فيه صرامة الجندى الشرس فى معاملة الناس . ولا يبعد مطلقا أن يكون قد ارتكب فى تلك الفترة من حكمه القاهرة عدة اخطاء اغضبت منه العامة ، وأوغرت صدور الخاصة . وجاء كتاب الفاشوش مصورا لذلك ، مبالغا فى تصويره على طريقة الادباء وأصحاب الصحف .

فاذا لم يكن بد اذن من السخرية بهذا الامير ، فقد كان على ذلك الاديب المشهور أن يبنى سخريته على شىء من الحقيقة ،

أو أن يحدث الصلة بين نوادره وبين نقطة من نقط الضعف في هذه الشخصية العظيمة . وقد كان من وجوه الضعف فى هذا الامير قسوته وصرامته التى زادت على الحد ، وخصومته ومعاملته للسوقة والعامة على هذا النحو ، واغراقه فى الجد ، وفى العمل ، اغراقا ليس له فيه ند .

فأين محاولة الاسعد بن مماتي لبيان هذه الطبيعة ؟ وأين استفادته من هذه الطريقة ؟ وأين عرضه لهذه الصورة ؟ لقد كان فى مقدوره ان يجد فى طريقة تسخيره للناس مادة للسخرية به والنيل منه ومن سياسته . ولو قد فعل هذا لاستطاع به اقناع العامة والخاصة ، وكان من الجائز أن يتأثر به رجل كالسلطان صلاح الدين فيأمر باقصائه عن عمله ، وملازمته لبيته وقطع راتبه وما شاكل ذلك .

ولكن كتاب الفاشوش على اختلاف صوره وتعدد نسخه ، لم نجد فيه ما يدل على شيء من ذلك .

وأكثر من هذا وذاك أن هذه الاوصاف التى وصف بها الامير جاءت أشبه شيء بالصفات التى يخلعها الناس عادة على «جحا» فهى صفات يمكن أن تنطبق على كل انسان يوصف بالشذوذ وهى فى ذلك كالثوب الذى يسع كل جسم ويدخل فيه كل انسان من هذا الطراز .. وما هكذا تكون السخرية الصحيحة أو النقد الصادق ، ولا هكذا الهجاء السياسي والاجتماعى ولا الرسوم الكاريكاتورية المعروفة فى عالم الادب والصحافة

وأمعن من هذا كله فى كذب الكتاب ان به فوق ذلك نوادر منسوبة الى قراقوش مع جارية من جواريه ، وقد قلنا اننا أعرضنا عنها لما فيها من الافحاش الذى لا يليق نشره على الجمهور . فعجبنا لثبوت هذ[illegible] فى بعض نسخ (الفاشوش) ، مع اننا نعرف من [illegible] وش أنه كان خصيا !

فهل نسى واضع الكتاب حتى هذه الصفة التى تتصل بخلقة الامير ، فنسب اليه عملا لا يتفق وهذه [illegible] ثم ان الاقطار التى وصل اليها هذا الكتاب الصغير أضافت اليه ما ليس فيه ، ولم يكن لها علم بحقيقة الرجل الذى وضع الكتاب من أجله ، حتى فى هذه الناحية ؟

***

وفى هذه الفترة التى عاش فيها الامير قراقوش وعاش مؤلف

كتاب الفاشوش ، وهى الفترةالذهبية في تاريخ الديار المصرية، اذ هى الفترة التى نعمت بالقاضى الفاضل ، والعماد الاصفهانى ، وابن سناء الملكورجال هذه الحلبة ـ عاش كذلك رجل أديب اسمه « الوهرانى »أتى الى مصر من بلاد المغرب فى طلب وظيفة توسل اليهابالقاضىالفاضل ، فلم يشأ هذا الوزير الكبير ان يعينه عليها . فماكانمن الوهرانى الا أن كتب طائفة من الرسائل اللطيفة ، سخرفيها من رجال الدولة الايوبية ، وعلى رأسهم القاضى الفاضل .وجاءت رسائل الوهرانى مرةعلى شبكل أحلام ومنام ، وأخرىعلىشكل حكم وأمثال وحكايات ، وثالثة على لسان بغلته التى كانيركبها ، فيجرى على لسانها جميع الالفاظ التى أرادها .واستطاع أن ينال من سادة مصر وكبرائها فى ذلكالحين ،ويهجوهمبأسلوب لطيف . رشيق . وسنشير الى شيء من ذلك فيالكلام عن السخرية المصرية فى هذا الكتاب ان شاء الله .

أما كاتبنا المصرى الاسعد بنمماتي فقد بنى كتابه على قاعدة « التشنيع » ، وسنعرض فيمابعد لشرح هذه الطريقة والموازنة بينها وبين الطرق الاخرى فيباب التهكم والسخرية .

وأيا ماكان الامر ، فالذى لاشك فيه أن كتاب الفاشوش لم يبلغ الغرض الذى كتب منأجلهفى زمن صلاح الدين . فلا أثر هذا الكتاب فى نفس السلطانالعظيم ، ولا أراح هذا السلطان المسلمين من الامير بهاء الدين ،ولا التفت الى هذا الحدث الادبي الخطير ـ وهو ظهور كتابالفاشوش ـ رأس النهضة الادبية فى عصره ، وهو القاضى الفاضل . وعلى الجملة لم يحدث أن رفع السلطان يد قراقوش عن العملالذى طلب منه ،ونيط به .

***

وبقى كتاب الفاشوش محفوظافى الصدور ، تتداوله ألسنة الجماهير ، حتى جاء الزمن الذىنرجح انه أفاد الفائدة الكبرى من حكاياته وأقاصيصه ونعنى بهالزمن الذى تلا موت العزيز ابن صلاح الدين . وذلك فى أثناءالفتنة التى حدثت حول عرش المنصور بعد موت أبيه العزيز .وكان المنصور صبيا ، فاحتاج الامر الى أن يكون له وصى . وكانالعزيز نفسه قد أوصى ان يكون الامير بهاء الدين قراقوش وصياعلى العرش . غير ان هذا الامر لم يصادف هوى من نفس أحدمن كبار الجند . واستشاروا

في الامر كبار الكتاب ـ ومنهم الاسعد بن مماتي ـ ، فأشاروا عليهم باستدعاء الملك الافضل ٠ واجتمع الامراء بالكتاب في مجلس كبير لهذا الغرض ، تناول الجميع فيه الامير بهاء الدين قراقوش بالنقد ، واشترك معهم الاسعد بن مماتي في هذا الاثم . ووصف الامير بقوله يومئذ :

« انه أمير مضطرب الرأي ضيق العطن » ، أي ضيق الافق ، وهو وصف ذكرته المراجع التاريخية الموثوق بها ٠

وأكبر الظن أن كتاب الفاشوش ظهرت له شهرة كبيرة في تلك الفترة، وسمح للناس أن يتداولوه في أثنائها ، لان للسياسة من وراء ذلك فائدة كبيرة ، هي النيل من هذا الامير ، وتشويه سمعته الى الحد الذى يعتقد الناس معه أنه لايصلح مطلقا للوصاية على العرش ٠

ذهب بعض المستشرقين ـ وهو الاستاذ كازانوفا ـ الى أن كتاب الفاشوش « يعتبر أثرا لحادث خطير ـ هو سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الايوبية ،وانه يعتبر المظهر الاخير لبغض المصريين جميعا لكل فاتح لبلادهم،وهو بغض أيقظه في نفوسهم انهيار دولة كبيرة كالدولة الفاطمية ، وقيام دولة جديدة كالدولة الايوبية التى أفقدت المصريين استقلالهم واعادتهم الى تبعيتهم لبنى العباس »

من الجائز أن يكون ذلك صحيحا ، فمصنف الكتاب وهو الاسعد بن مماتي ـ من صميم المصريين ، وموضوع الكتاب شخصية ـ وان كانت كبيرة ـ الا أنها صغيرة بجانب شخصية صلاح الدين أو أسد الدين ٠ ولا يتوقع الناس خطرا يأتيهم من جانب الشخصية الاولى ،وهي شخصية الامير بهاء الدين ٠

من الجائز اذن أن يكون رأى كازانوفا صحيحا ، وان كنت لم أزل غير ميال اليه ولا معتقد بصحته ٠ ولا داعي هنا لان أدخل بالقارىء في مناقشات ليس هذا مجالها ، ولا مكان الافاضة في مثلها ٠

الواقع ان المستشرقين من سلالة الصليبيين الموتورين من صلاح الدين مازالوا ينظرون الى هذا البطل العظيم نظرة لاتتفق ونظرة المصريين أنفسهم الى أيامنا هذه ٠ ومن ذلك انهم زعموا لنا في كتاباتهم ان المصريين اعتبروا صلاح الدين هادما لقوميتهم ،

محطما لمصريتهم ، راجعا بهم القهقرى الى حيث كانوا تابعين للدولة العباسية !!

ولكن علم الله ان أهل مصر في ذلك العصر لم يكونوا يفهمون للقومية معنى ، ولا للجنسية فكرة !

انما جاءت اليهم هذه المعانى كلها منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو القرن التاسع عشر الميلادى . أما قبل ذلك فلم يكونوا يعرفون شيئا من ذلك ، جل أم صغر .

ان استقلال المصريين لم يتعرض للضياع من الوجود بمجىء صلاح الدين وخطبته للعباسيين، بل كل ماحدث فى ذلك الحين ان استبدل أهل مصر دولة بدولة، وسلطانا بآخر ، وخليفة بمثله، وبقى لهم استقلالهم الفعلى الذى لم تنقص منه تلك الانقلابات السياسية التى حدثت . هذا كله فضلا عن أن صلاح الدين كان فى نظر المصريين والشرقيين بطل الاسلام الأوحد ، والزعيم الاكبر الذى هزم الصليبيين، وطهر منهم بلاد المسلمين . وكفاه ذلك شرفا حتى يصبح خليقا بحبهم واعجابهم وزعامته لهم !

***

وندع هذه الاقوال كلها ، سواء منها مانسب الى المؤرخين الاقدمين أو المؤرخين المحدثين ، ونصل الى الحكم الفصل فى هذه القضية التى يريد أن يحكم فيها التاريخ .

فقد سمع التاريخ قصة هذا الامير العظيم بهاء الدين قراقوش، ونظر الى صحيفة أعماله وأخلاقه، ثم استعرض ماجاء بشأنه فى كتاب الفاشوش فوجده على صغره ودقة حجمه مشحونا بحكايات صغيرة يراد بها ذمه والسخرية منه والزراية عليه . فلم يتردد فى أن يحكم للامير بهاء الدين قراقوش بالعظمة الخلقية والبراءة من كل مااتهم به من هذه الافعال التى نسبت اليه والاقوال التى وضعت على لسانه . فلم يكن بهاء الدين الا رجلا من عظماء التاريخ قد استحق ثناء السلطان صلاح الدين ، كما استحق تقدير وزيره الكبير عبد الرحيم وكبار الدولة الصلاحية التى نعمت به وبثمرة جهده .

ثم ماكان بهاء الدين الا أهلا لتقدير الصليبيين أنفسهم ، فقد وصفوا شخصيته فى كتبهم بقولهم :

« انها شخصية رجل محارب،له روح غريبةأدهشت الصليبيين، وأثارت اعجابهم الشديدبشخصيةصاحبها ومهارته وقدرته ،وجلده وعزيمته ، حتى نظروا اليه على أنه جندى وقديس فى وقت معا»

ونظر التاريخ يوم وفاته ، فرأى كبار المؤرخين فى زمانه يذكرونه بكل تقدير وتبجيل ،ويعترفون له بالفضل الجزيل ، ويقول أحدهم ــ وهو عماد الدين الاصفهانى فى وفيات سنة ٥٩٧ للهجرة ، وهى السنة التى مات فيها الامير بهاء الدين قراقوش ، مانصه :

« وفيها توفي الامير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء ، وشيوخ الدولة الكبراء٠أمير الاسدية ومقدمها ،وكريمها ومكرمها ٠ ولم أر غيره خصيا لم تقاومه الفحول ، ولم يؤثر فى عظم مآثره المحول ، وله فى الفتوحات والغزوات مواقف معروفة ومقامات موصوفة ، وهوالذى احتاط على القصر حين استتبت على متوليه اسباب النصر٠٠ ذلك انه لما خطب لبنى العباس بالديار المصرية ، تسلم القصر بمافيه ، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه ، وتولى عمارة الاسوار المحيطة بمصر والقاهرة ، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة ٠٠ وكان معاذ الالتجاء ؟ وملاذ الارتجاء ، غير أنه نسب الى اللجاج فى الخصومة ، لشدة ثباته وفرط جموده ، فلا يكاد يعجم لصلابة عوده الخ »

قرأ التاريخ هذه الشهادة ،واستعاد فى ذاكرته هذه العبارة، وراح يرددها ، ويتفحصها ،وبتبينها ، ويقف عند كل لفظ من ألفاظها ، ويفكر فى كل معنى من معانيها ٠ وأخيرا أصدر حكمه للمرة الثانية مؤيدا به الحكم الذى أصدره فى المرة السابقة ٠

ثم راح التاريخ ينحى باللائمة على هذا الاديب المشهور ، الذى كتب فيه هذا الكتاب الغريب ،فاعتذر الاديب عن ذلك بفظاظة فى خلق الامير ، واستشهد عليها بكلمة من كلمات العماد الاصفهانى الذى مر ذكره ، وهى وصفه للامير باللجاج فى الخصومة ، ثم بالعناد والصلابة والبعد كل البعد عن المرونة ، حتى كرهه الناس أجمعون ، الا قليلا من كبار الدولة كالسلطان صلاح الدين وصديقه ووزيره عبد الرحيم

غير ان التاريخ لم يقتنع بهذه الحجة الاخيرة ، ولم يدع للكاتب القبطي أن يتم هذه العبارة ، ثم قاطعه بقوله له في حزم وصدق:

« لقد أسأت أيها الكاتب الاديب الى هذا الامير الجليل . ولو استطعت لحكمت عليك بأن تمحو هذه السيئة بحسنة من حسناتك، فتكتب فيه كتابا يذيع فضله ،ويعلن عن مجده ،ويسبح بحمده، ويدعو الناس الى احلاله المنزلة العليا »

***

أصدر التاريخ هذه الاحكام ثم لم يشأ أن يترك الاديب الأريب حتى همس في أذنه بهذه الكلمات:

« .. ومع هذا .وذاك فلا يسعني الا أن أعجب بقلمك ، وأقر لك بالقدرة على هزيمة خصمك ،فتنحط به من السماء الى الارض، ثم لا يكفيك ذلك حتى تقبره تحتها في أكفان الذل والسخرية ، بعد أن جرعته غصص الندم على سوء العاقبة !! »

فخرج الاسعد بن مماتي من « محكمة التاريخ » وهو يتأذى من الحكم الذى صدر عليه ،ويشعر في الوقت نفسه بلذة الفخر أو النصر على غريمه الذى انهزم له ، ولم يزل ابن مماتي بين عذاب الاولى ونعيم الآخرة الى اليوم !

***

وبعد ، فقد فرغنا من بحث هذه القضية العجيبة من قضايا التاريخ . ونجحنا في انصاف بهاء الدين قراقوش من غريمه الذى ترك في عقبه هذا الكتاب الصغير الذى شحنه بالنوادر الكاذبة والحكايات الموضوعة !

ويكفينا هذا القدر في الحديث عن كتاب الفاشوش من الناحية التاريخية الصحيحة ، لننتقل من ذلك الى الكلام عن هذا الكتاب من الناحية الادبية الخالصة ..فالذى لا شك فيه ان كتاب الفاشوش صفحة من صفحات الادب المصرى الشعبي ، بنيت على السخرية ، وقامت على التهكم اللاذع المرير ، وجاءت مادة لا نظير لها في باب التشنيع .

ولكن ما نوع السخرية التي نجدها في كتاب الفاشوش ؟ أهي سخرية من النوع الراقي ؟ أم هي سخرية من نوع غير راق ؟ ذلك ما نريد أن نتعرض له في الفصل الاخير من فصول الكتاب الذى بين يديك .

السخرية فى الادب

ربما كان المصريون من أكثرأمم الارض ميلا الى الضـــحك ، ورغبة فى التفكه .حبا لمانسميهفى لغتنا العاميـــة الحـــاضرة « بالقفشـــة » يعبرون بهـــا عناحساسهم نحو الناس والاشياء. وقد حار الباحثون فى السببالذى من أجـله أغرم المصريون بالنكتة ، وشغفوا منذ عرفهـــمالتاريخ بالتورية أو القفشة . فمن قائل انه من وقعالظلمعليهم،وكثرة الفاتحين لبلادهم،ووقوعهم تحت نير الاجانب اكثرمنغيرهم.ومن قائل انه الرخاء الذىيعمهم والخصب الذى يأتى به نيلهم،وعدم وقوعهم فى البلاء الذىوقع فيه غيرهم من الامم حين تقسوالطبيعة عليها ، وتحرمها احيانا الامن والدعة ، فضلا عن سهولةالحصول على لقمة الخبز

وللفيلسوف الفرنسى برجسون كتاب فى الضـــحك علل فيه هذه الظاهرة . فقال اننا نضحكمن شخص ما اذا أصابه تحـول ما خرج به من طبيعته العاديةالىطبيعة أخرى غير عادية ، وأصبح أشبه شىء بالآلة الصماءنحركهاكيف نشاء . ومن أجـل ذلك لا نضحك ـ الا فى القليلالنادرمن تصرفات الحيوان ، وانمـا اعتـدنا الضـــحك من تصرفاتالانسان حين يفارقه المألوف لنـا من طبائع الانسان . وذلك علىالنحو الذى سنشرحه فىالسطور الآتية ..

ونحـــن نريد فيمـــا يلى منالكتاب الذى بين يديك أن نتحدث معك فى بواعث السخرية أولا ،وضروبها وأشكالها المختلفـة فى الادب بعد ذلك . ونريدأن ننتقلبك الى الحديث عن السخرية فى الادب العربىعامة ،وعن السخريةفى الادب المصرى خاصـــة ، وعن الســـخرية فى الادب الاوروبىكذلك ، ثم نقف بك وقفة خاصة عند الاسعد بن مماتى صـــاحبالـكتاب الذى جـرنا الى هـذه الاحاديث، أو الاثر الادبىالشعبىالذى أتاح لنا هذه الفرصة .

***

لقد يغضب الاديب ويثـور ،وتشتد الخصومة بينه وبين من أثارها فى نفسه ، فيعمد أحياناالى السباب ، ينال به منخصمه، ويشفى قلبه منالحقد الذى يشعربه نحوه . وهـذا مايسـمى فى الادب « بالهجاء » .

وقد يغضب الاديب ويثور ، ويؤثر أحيانا أن يخفى فى نفسه الغضب والثورة ، ويقصد الى ضبط أعصابه متكلفا الضحكة أو البسمة ، لينال من خصمه بطريقة أخرى ، هى هذه الطريقة التى يعدل فيها عن الهجو والسباب الى لون آخر من ألوان الادب يسمى (السخرية) !

ومعنى ذلك أن الهجاء أدب الغضب المباشر ، والثورة المكشوفة ، فى حين أن السخرية هى أدب الضحك القاتل ، والهزء المبنى على شىء من الغموض ، ودواعى هذا الغموض فى شتى أنواع السخرية كثيرة ومتعددة : منها حرص الاديب على حياته حينا ، ومنها رغبته فى اخفاء غضبه حينا آخر ، ومنها علو كعبه فى العلم والثقافة ، ولا غرابة فى هذا فالعلم يشحذ الذكاء ، والذكاء يسعف صاحبه عادة فى هذه المواطن ، فترى الاديب المثقف ينال من خصمه فى هذه الحالة بطريقة ملتوية لا بطريقة ساذجة ، وهذا هو (التهكم) .

وبين الهجاء والسخرية والتهكم صلات شتى تجعل كل واحد منها قريبا من الآخر بحيث يمكن أن ينظر اليها كلها على انها تنبع من نفس واحدة ، هى النفس الحاقدة أو النفس الراغبة فى الايذاء والتنقص .

والامور التى تبعث على السخرية توشك أن تتلخص كلها فى أمر واحد هو (الغرابة) كرؤية الاقزام فى بلاد العمالقة ، أو رؤية السود فى بلاد البيض ، أو كرؤية انسان ما وهو يتردى فى حفرة على حين غرة ، وهكذا .

والضحك من الناس فى كل حالة من هذه الحالات قد يكون خطأ فى ذاته ، فليس للعملاق ذنب فى طوله ، ولا للقزم يد فى قصره ، وليس للابيض فضل فى بياضه ، ولا على الاسود وزر فى سواده . ولا قدرة لاحد من البشر على أن يغير من خلقته بل انه أولى بنا أن نستشعر الشفقة والعطف على اخواننا فى البشرية ممن أصابهم هذا النقص أو العيب . لولا أن هذا العيب يحمل فى طياته معنى الغرابة أو انعدام التكييف فى الحياة الواقعة .

وقد تزيد هذه الغرابة التى تثير فينا الضحك حتى تصل أحيانا الى درجة الشذوذ أو الوضع المقلوب ، أو البعد الشديد عن الطبيعة ، كأن نرى رجلا يتشبه بالنساء ، أو امرأة تتصرف تصرف

الرجال ، أو شيخا يتصابى ،أوصبيا يتكلف أخلاق الكبار ، أو حاكما يركب رأسه ، أو رجلا يهرف بما لايعرف ، أو قسيسا يتدله في الحب ، أو عجوزاتلتمس لها صبيا يتزوجها ، أو بخيلا يبالغ فى الحرص على المال ، أوجبانا يسرف فى الحرص على الحياة الخ .. والسخرية فى كل هذه الحالات قائمة على فكرة المقابلة بين الحق والباطل ، أو بين الصدق والكذب ، أو بين الصحة والزيف، أو بين الكمال والنقص ، أو بين الطبع والتكلف. وبعبارة مختصرة بين مايكون وما ينبغى أن يكون!!

أمثلة من السخرية في الادب العربي

فى العصر الجاهلى كان الفرد يفنى فى القبيلة ، فاذا سخر أحد من أحد فانه يوجه السخرية للقبيلة التى ينتمى اليها ، وهو واثق أن الألم لا يأتيه ولا يحس به الا من هذه الناحية . ومن ثم غلب على الهجاء الجاهلى ما يسمى (بالنزعة القبلية) ، وذلك أن حياة العرب قبل الاسلام كانت تخضع لنظام واحد ، هو نظام القبيلة

واستمر الهجاء العربى قبليا طوال العصر الجاهلى ثم العصر الأموى . ومن الذى لايعرف من الشعراء فى خلافة بنى أمية كلا من جرير والفرزدق والاخطل ، وقد اشتهروا فى ذلك العصر بفن الهجاء . وكان أحدهم يقول لصاحبه :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فانظر الى هذا الشاعر كيف يعير صاحبه لا بشخصه ولكن بأنه من قبيلة «نمير» التى ليست شيئا بالقياس الى قبيلة «كعب» أو قبيلة « كلاب »

اغار قوم من قبيلة فى العصر الجاهلى على ابل لرجل من قبيلة أخرى ، واستنجد الرجل بقبيلته فلم تنجده ، فأخذ يعيرها ويهجوها بذلك ، وطفق يقول لها انى لو كنت من قبيلة كذا لنصرنى رجالها ولم ينساموا حتى يردوا الى الابل التى أخذت منى :

لكن قومي وان كانوا ذوى عـــدد
ليسوا من الشر فى شيء وان هــانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفـــرة
ومن اساءة أهل السـوء احســـانا
كــأن ربك لم يخلق لخشــــيته
سواهمو من جميع الناس انســـانا

فانظر الى هذه الابيات الثلاثة وحدها كيف تصور لنا حياة جاهليــة صحيحة ، وشعورا جاهليا صحيحا ، وخلقا جاهليا حقيقيا ، هو خلق أدنى الى الشر ، وأبعد من التسامح والتقوى وغيرهما من الاخلاق التى دعا اليها الاسلام

وهكذا عير الشاعر قبيلته بأنها أضعف من أن تأخذ له بالحق ! وماقيمة العربى اذا ضعفت قبيلته وقل فيها عنصر الشر ؟

ولقد أراد شاعر آخر أن يذم رجلا من قبيلة تسمى « بنى العجلان » فقال :

اذا الله جازى أهـــل لؤم ورقة
فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلتـــه لايغـدرون بذمـــة
ولا يظلمون النـــاس حبة خردل !!
ولا يردون المـــاء الا عشية
اذا صدر الوراد عن كل منهــــل

فانظر الى هذا الشاعر الجاهلى كيف يعير هذه القبيلة بأنها لا تستطيع الغدر ، وبأنها لا تقوى على الظلم ، وبأنها لضعفها وهوانها على القبائل كلها لا ترد الماء فى الصباح حين تتزاحم القبائل على الماء ، وانما ترد الماء فى المساء حين تتأكد أن القبائل كلها قد استقت ورجعت الى خيامها .

***

وندع العصرين الجاهلى والأموى ، ونصل الى العصر العباسى فنلتقى بعدد كبير من الشعراء والكتاب كان كل منهم يحسن فن السخرية . ونطيل على القارىء اذا وقفنا عندهم ، أو أخذنا نعدد أسماءهم ومواقفهم . ولكنا مكتفون هنا بطائفة قليلة جدا من النوادر اللطيفة التى تنسب الى بعضهم ..

فمن هؤلاء « الجاحظ » :

وكان الجاحظ رجلا واسع العلم والثقافة ، فوق أنه كان من أشهر الذين حذقوا فن الكتابة .

والمهم أن يقال ان السخرية في العصر العباسي لم تصبح قبلية ، كما كانت في العصرين الجاهلي والأموي ، ولكنها أصبحت على أنواع : فمن السخرية مايقصد به الى ذم الفرد ، ومنها مايقصد به الى ذم الجماعة أو طائفة من طوائف الدين أو المهنة أو المجتمع .. وفي الادب العباسي أمثلة كثيرة من النوعين معا .

وقد سخر الجاحظ من كل طائفة من طوائف المجتمع العباسي ... سخر من المعلمين ، وسخر من كتاب الدواوين ، وسخر من الباعة في السوق ، وسخر من الجند ، وسخر من المجانين ، وسخر من النساء ، وسخر من الرجال . واعترف الجاحظ على نفسه بأنه ما غلبه أحد قط الا امرأة . ثم قال ما معناه :

انه تعقب يوما ما امرأة جميلة من نساء بغداد في الطريق ، فتركته المرأة يمشي وراءها حتى وصل الى دكان صانع يحفر الصور فقالت لصاحب الدكان : « كنت قد طلبت منك صورة عفريت تحفرها على خاتمي هذا ، وقد أتيتك بنموذج منه ، فاصنعه على هذا النحو » وأشارت الى الجاحظ ، فخجل الجاحظ من نفسه وعاد مسرعا الى بيته !

وحكى عن الجاحظ أنه ألف كتابا في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من الحمق والغفلة . ثم رجع عن ذلك ، وعزم على تقطيع الكتاب ثم عاد الى كتابته ، وأخبر بذلك عن نفسه . قال : « دخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما في هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد علي أحسن رد ، ورحب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فاذا هو ماهر فيه . ثم فاتحته في الفقه والنجوم وعلم المعقول وأشعار العرب ، فاذا هو كامل الأداة . فقلت : هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب

ثم كنت أختلف اليه وأزوره . فجئت يوما لزيارته ، فاذا الكتاب مغلق ولم أجده . فسألت عنه فقيل لي : مات له ميت ، فحزن عليه ، وجلس في بيته للعزاء . فذهبت الى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت الى جارية وقالت : ماتريد ؟

قلت : سيدك ٠

فدخلت اليه ، واذا به جالس٠ فقلت : أعظم‌الله أجرك ٠ فقد كان لكم فى رسـول الله أسوةحسنة ٠٠٠ كل نفس ذائقـة الموت ٠ فعليك‌بالصبر ٠٠٠ الخ

ثم قلت له :

ــ هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا

قلت : فوالدك ؟ قال : لا

قلت : فأخوك ؟ قال : لا

قلت : فزوجتك ؟ قال : لا

قلت : فما هو منك ؟ قال : حبيبتى

قلت فى نفسى : هذا أول‌المناحس !

وقلت‌له : سبحان‌الله ٠ النساء كثير ، وستجد غيرها ٠٠

قال : أتظن أنى رأيتها ؟

قلت : وهذه منحسة ثانية !

ثم قلت : وكيف عشقت من‌لم تره ؟

قال : اعلم أنى كنت جالسـافى هـذا المكان ، وأنا أنظر من الطاقة اذ رأيت رجلا عليه برد ، وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى‌على‌فؤادى أينماكانا (الخ)

فقلت فى نفسى : لولا أن أم‌عمرو هذه ما فى الدنيـا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ٠فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل نفسه وهويقول:

اذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت : انها ماتت ! فحزنت‌عليها ، وأغلقت‌الكتاب ، وجلست فى الدار ٠

فقلت : ما هـذا ! انى كنت‌ألفت كتابا فى نوادركم يا معشر المعلمين ، وكنت حين صـاحبتك‌عزمت على تقطيعـه ، والآن قد قويت عزمى على ابقائه ٠ وأولما أبدأ أبدأ بك ان شاء الله !

وللجاحظ رسـالة عنوانها «التربيع والتدوير» وهى رسالة كبيرة كتبهـا فى ذم رجل اسمه«احمد بن عبد الوهاب» ، وكان

هـذا الرجل من كتاب الديوان العباسى ، فأراد الجاحظ أن يسخر بالكتـاب الديوانيين جميعـا فى شخصه • ولكنا نعتذر للقارىء عن وصف هذه الرسالة الاخيرة، وعن الطريقة التى اتبعها الجاحظ فى السخرية من احمد بن عبدالوهاب ومن عقله ، ومن قصره، ومن جهله ، ومن غفلتـــه ، ومن ادعائه العلم والطول والذكاء فى نفس الوقت • نعتـذر عن ذلك لان الجاحظ بنى هذه السخرية على طريقة لا يفهمها غير العارفين بالنحو واللغة والعروض والفلسفة اليونانية وعلم الكلام وغير ذلك من الثقـــافات التى لا أحسـب الـكثيرين من قراء هـذا الكتاب يعنون بها لعدم حاجتهم الى ذلك •

***

وندع الجاحظ بكتبه الساخرة التى لا حصر لها وننتقل الى طائفة أخرى من الشعراء نمر بهم سر ، ونكتفى بالامثلة القليلة لـكل واحد منهم على حدة

ولست أريد أن أحـدثك عن بشار ولا أبى نواس ولا عن والبة ابن الحباب ، ولا عن رجل من رجال هذه الحلبة • ففى سخرية هؤلاء ضرب من ضروب الافحاش لا يسيغه ذوق القارىء المثقف فى أيامنا هذه !

وانما أريد أن أمر بك سريعا على رجـــل كابن الرومى وآخر كأبى الطيب المتنبى ، وربما وقفنا وقفة قصيرة أيضا عند أبى العلاء المعرى • وسنكتفى بهؤلاء الثلاثة خشية الاطالة ، فليس قصدنا فى هذا الكتاب الا اضحاك القـارىء من جهة ، وعرض النماذج المختلفة من السخرية والهجـاء من جهـة ثانية ، ثم الموازنة السريعة بين هذه النماذج العربيـة والنماذج المصرية التى سنلم بها المامة أخرى كذلك فيما بعد

تعرض « **ابن الرومى** » لهجاء رجل ذى لحية فقال :

لو غاص فى الماء بها غوصة صـاد بها حيتانه أجمعـــا

وتعرض لهجـــاء رجل طويل الانف فقال :

حملت أنفا يراه الناس كلهمو من رأس ميل عيانا لا بمقياس
لوشئت كسبا به صادفت مكتسبا أوانتصارا مضى كالسيف والفاس

وقال يصف بخيلا اسمه عيسى:

يقتر عيسى على نفســه وليس ببـاق ولا خالد
فلو يســـتطيع لتقتيره تنفس من منخر واحـد

واما المتنبى فقد اشتهر فى تاريخ الادب العربى بالسخرية المرة من كافور الاخشيدى . وكان هذا الرجل ملكا على مصر، وكان اسود اللون ، وقيل ان المتنبى قصده وهو بمصر ، ه خذ يمدحه لا طمعا فى ان يجود عليه بمال ، ولكن طمعا فى ان يجود عليه بولاية من ولايات مصر يكون أميرا عليها ، ولكن كافورا لم يكن من الغفلة بحيث يجيب هذا الشاعر المغرور الى ماطلبه من ملك مصر – لا بطريق المشافهة ، ولكن بطريق السؤال غير المباشر او الخفى – فلم يكن من ابى الطيب المتنبى – بعد ان استيأس من كافور – الا أن انهال عليه ذما وقدحا وسخرية وتجريحا ، وعاد بعدها من مصر الى العراق .

ولم يجد المتنبى فى كافور الاموضعا واحدا يمكن أن يدخل عليه منه ، وهذا الموضع هو أنه أنه أسود فى لون العبيد ، فهجاه هجاء مقذعا من هذه الناحية .

ومن اقواله فى ذلك ، وما اكثر ما قال :

وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى
وكم ذا بمصر من المضحكا ... ت ولكنه ضحك كالبكا

وقال :

وتعجبنى رجلاك فى النعل اننى
رأيتك ذا نعل وان كنت حافيا

واما داليته المشهورة فلعلها أشد مانظمه المتنبى فى هجاء كافور وهجاء المصريين ، وهى القصيدة التى أولها :

عيد بأى حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لامر فيك تجديد

ومنها فى ذم امراء مصر وغيرهم :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد(١)

ومنها فى ذم كافور نفسه :

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله فى مصر تمهيد
لاتشتر العبد الا والعصى معه ... ان العبيد لانجاس مناكيد

---

(١) نواطير جمع ناطور ، وهو خشبة يلبسها الفلاح ثوبا ليزجر بها الطيور والحيوان عن الحقل . وبشمن اى شبعن الى حد التخمة ..

وندع المتنبى كذلك ونصل الى ((**أبى العلاء**)) ، وهو شاعر فيلسوف سخر من الحياة كلها ومن الناس كلهم . وشعره ونثره كلاهما مملوءان بهذا السخر الذى لاينتهى . ومما كتبه نثرا فى السخرية رسالته التى عنوانها : ((**رسالة الغفران**)) ؛ وفيها يتصور أن صديقا له اسمه «ابن القارح» التقى بالشعراء والعلماء فى اليوم الآخر ، فوجد بعضهم فى جهنم ، ووجد بعضهم فى الجنة ، لان الله تعالى غفر له بسبب بيت من الشعر . وهناك فى اليوم الآخر شهد « ابن القارح » بنفسه معارك شتى بين الشعراء ، كالمعركة التى دارت بين شاعرين من شعراء العصر الجاهلى ، هما ((**الاعشى**)) و ((**النابغة الذبيانى**)) . وفيها يتعدى كل من الشاعرين على صاحبه بألفاظ نابية ، ويقول أحدهما لصاحبه الذى ظفر دونه بدخول الجنة :

ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت انه غلط بك))

وفى هذه العبارة وأمثالها من عبارات أبى العلاء فى رسالة الغفران ، من السخرية بالاديان مالايخفى ..!

ثم يطوف « ابن القارح » برياض الجنة ، فيشهد فيها منظرا يدعو الى الضحك من أهلها . اذ يمر على جماعة من الاوز الذى وهبها الله القدرة على التكلم فيقول لها : ماشأنك هنا ؟

فتقول الاوز : الهمنا الله تعالى أن نسقط على هذه الروضة ونغنى لمن فيها ..

فيقول : على بركة الله القدير .

فينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى حرير الجنة ، وبايديهن آلات الموسيقى . فيقول ابن القارح لبعض شعراء أهل الجنة :

« ان الله جلت قدرته من علينا بهؤلاء الحور العين ، اللواتى حولهن عن خلق الاوز . فاختر لنفسك واحدة منهن ، فلتذهب معك الى منزلك لتغنى لك أرق الالحان ، وتسمعك ضروب الاوزان » .

فيقول شاعر آخر من شعراء الجنة :

« ان اخذ هذا الشاعر مغنية ، واخذ غيره مثلها ، اليس ينتشر خبرها فى الجنة فلا يؤمن أن يسمى هؤلاء جميعا ازواج الاوز .. ؟ » .. الخ ..

وفى موضع آخر من مواضع رسالة الغفران يقول أبو العلاء :
« ... فيقول الملك خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فان هذا الثمر يعرف « بشجر الحور » . فيأخذ سفرجلة ، أو رمانة ، أو تفاحة ، أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، فتقول : من انت يا عبد الله ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان . فتقول :

ان الله يمنينى بلقائك قبل أن يخلق الدنيا باربعة آلاف سنة » ...

على هذه الطريقة يجرى أبو العلاء على السنة الشعراء الفاظا يفهم منها الناس معنى السخرية بأهل الجنة .. ولم لا يستحق هؤلاء السخرية .. ؟ أليس منهم ازواج الاوز .. ؟

وأزواج السفرجل ؟ وأزواج التفاح ؟ وأزواج الرمان ؟ وما شاءوا وشاء الله من الثمار ..؟

وهكذا يضحك «ابن القارح» من اهل الجنة ، ثم يضحك اخيرا من نفسه ، فلقد جعله أبو العلاء فى رسالة الغفران يمشى على الصراط ، فلا يستطيع أن يتماسك ، ويخشى على نفسه الزلل والوقوع فى نار جهنم ، فينادى على جارية من جوارى فاطمة الزهراء كانت قريبة منه ، ويدعوها الى انقاذه ومساعدته ، ويقول لها بعد ذلك :

ست ان أعياك أمرى   فاحمليني زقفونة !

واذا ذهبت تسأل أبا العلاء نفسه عن معنى « زقفونه » لتعثر فى الجواب ، ولربما قال : زقفونة — أى تحمله ظهرا لظهر كما يفعل الصبيان فى بعض ألعابهم ..

والمعرى فى كل ذلك يسخر من يوم القيامة ، ومن الجنة ، ومن النار ، ومن الشفاعة ، ويجعل من على بن أبى طالب مصلحا بين الملائكة ، قاضيا بينهم ، ثم يجعل منه حارسا على الحوض ، لا يسقى منه أحدا الا أن يكون من شيعته . ويجرى أبو العلاء على لسان « اوس بن حجر » من شعراء الجاهلية قوله : « ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق كأنها النسب فى الدار العاجلة !»

ولا ينجو من سخرية المعرى فى رسالة الغفران كل من الكفرة والزنادقة ، وعلماء الكلام او الجدل الدينى . كما لا ينجو منها

المؤمنون والصالحون ، ولا ينجو منها حتى ابليس ، فيعذبه في النار عذابا اليما بأيدى زبانيـــةجهنم ، ويحدث بينهم وبينـــه قصصا شتى .

ولا ينسى أبو العلاء ابن يسال بسخريته كذلكالعلماء واللغويين واصحاب النحو . واخيرا يعمم في القول فيســخر من الاديان السماوية كلها سخرية مرة ، وينقل فى ذلك قــول يهودى في هجاء عمر بن الخطاب ، (وكانعمر يكنى بأبى حفص .

يصول ابو حفص علينا بدرة(١) رويدك ان المرء يطفــو ويرسب
فلو كان موسى صادقا ما ظفرتمو علينــا ، ولــكن دولة ثم تذهب
ونحنسبقناكمالىالمين(٢)فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم عــلى آثارنا فى طريقنـــا ومطلبكم فيأن تسودوا وترهبوا

وعلى هذا النحو يمضى المعرىفى رسالة الغفران فيضحك هذا الضحك الهـــادىء المتصل ، وهوضحك يصدر فيه الفيلسوف عن خلق وادع ، ومزاج رقيق ، وحسدقيق ، وحذر شديد ، وحياء من الناس أشد .

***

هذه صورة من صور السخريةفى المشرق خليــق بنــا أن نذكر صورة مقــابلة لها فى المغرب .وذلك قبل الخوض فى الســخرية المصرية .

وربما كانت « **الرسالة الهزليةلابن زيدون الاندلسى** » في ذلك من خير الامثلة ، فلا بأس من أننلم بها المـــامة عاجلة .

قيل في سبب انشاء هذه الرسالة :

انه كانت بقرطبة امرأة ظريفةمن نساء الخلفــاء الامويين تسمى « **ولادة بنت المســـتكفي بالله** »نكب أبوها وقتلهملوك الطوائف. ثم صارت هــذه المرأة العظيمــةتجلس للــكتاب والشــعراء ، وتعاشرهم وتحادثهموتسامرهم .وتعشقها الكبراء منهم ، وكانت فوق جمــالها ذات خلق حسن ،وأدب غض ، ونوادر عجيبـــة ، ونظم جيــد .. الخ . وكان ابنزيدون كثير الشغف بها ، والميل اليها ، والغزل بمحاسنها .

---

(١) الدرة بكسر الدال وتشديد الراءعصا كان يمسك بها عمر ويؤدب بهـــا الناس فى الطريق .

(٢) المين هو الكذب .

ثم ان الوزير (**أبا عامر بن عبدوس**) كان هو أيضا قد هام بها وكلف بمعاشرتها ، وكانت ولادة كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة .

أما الباعث المباشر لابن زيدون على كتابة هذه الرسالة ، فهو أن ابن عبدوس لما سمع بها أرسل اليها امرأة من قبله تستميلها اليه، وتذكر لها محاسنه ومفاخره ، وترغبها في التفرد بمواصلته . فبلغ ذلك ابن زيدون، فكتب هذه الرسالة ، وضمنها سب أبي عامر والتهكم به ، وجعلها جوابا على لسان ولادة . فذاعت هذه الرسالة ، وطار ذكرها ، واشتهر أمرها . وتاب ابن عبدوس عن حب ولادة ، ولم يعد له طمع فيها ، حتى انتقل ابن زيدون الى أشبيلية ومات بها .

ويبدأ (**الرسالة الهزلية**) بقوله :

« أما بعد ! أيها المصاب بعقله، المورط بجهله ، البين غلطه ، الفاحش سقطه ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان الغضب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب .. الخ » .

ومضى ابن زيدون في رسالته هذه وقد بناها كلها على قاعدة « التبكيت » لابن عبدوس ، قائلا على لسان المرأة التي بعث بها الى ولادة :

« .. وانه لاجمل من يوسف، وأغنى من قارون ، وأعظم من كسرى ، وأجل من قيصر ، وأكبر من الاسكندر .. وبنات الملوك في فارس تتنافس في حبه ، وبلقيس غايرت الزباء من أجله ، والسموأل انما قلده في الوفاء بالعهد ، والاحنف بن قيس انما تشبه به في الحلم ، وان حاتما لم يفعل أكثر من أنه لقى الاضياف على طريقته ، واياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائه .. الى آخر ما أتى به ابن زيدون من هذه الاوصاف الدالة على معرفة بالتاريخ العربي والامثال العربية وأبطال العرب في ميدان من ميادين الحياة العامة .

ثم ينتقل ابن زيدون من طريقة التبكيت في رسالته الى طريقة الذم الواضح والهجاء الصريح ، فيقول :

« كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، وعلمك مخرفة .. » .

ولا شك فى أن ابن زيدون لم يبلغ فى سخريته على هذه الطريقة بعض ما بلغه رجل كالجاحظ أو أبى العلاء المعرى وغيرهما من كتاب الشرق وشعرائه ، ولا يصح أن يقاس بهم أو يوزن بميزانهم • ولذلك لانريد أن نمضى مع ابن زيدون فى رسالته هذه ، لانه لم يتخذ لها أساسا غير أساس التبكيت من جهة ، والذم الصريح على عادة العوام من الناس من جهة ثانية •

وكأنى بقارىء هذه الرسالة الهزلية يهش لها أول الامر ، ثم لايلبث أن يضيق بها ، ويسأم من طرق أدائها •

السخرية فى مصر

قلنـــا ان مصر ربما كانت من أكثر أمم الشرق ميلا الى الضحك والى السخر • وقلنا أن من أسباب ذلك في حقيقة الامر طول وقوعها تحت سـيطرة الاجنبى • فحـين يعجز أهلها عن التغلب على الحكام الاجانب عنهم لايجـدون أمامهـم سوى الضحك والسخرية : تكون مكشوفة حينا ، وتكون مستورة أحيـانا • ويسـلك المصرى فى سـبيل ذلك طرقا شـتى ، فمرة يعتمد على السـباب السـافر مع تـكلف الجنون الذى لايعـاقب صاحبـه على مثـله • وذلك كما حدث من رجل يسمى في التاريخ باسم (سيبويه المصرى) ، وربما سـقنا لك طرفا من نوادره • وأخرى يسلك سبيل التشنيع الذى يقصد به رجل بعينـه من رجال الدولة الاجنبيـة فى الظـاهر ، ويراد به جميع رجال الدولة كلها فى البـاطن ، كما كان من أمر الاسـعد بن ممـاتى فى كتاب الفاشـوش ـ وذلك ان صحت آراء الباحثين الاوربيين فى هـذا الكتاب كما أسلفنا • وفى ثالثة يختفى الاديب الساخر وراء الرؤى والمنامات يحكى فيها كل مايريد حكايته عن كبراء الدولة ، كما كان الامر مع أديب مغـربى اسمه (الوهرانى) حين سخر من رجال الدولة الايوبية • وسيأتى ذكر ذلك •

والمهم ان الـكلام كله فى هذه السخرية بأنواعها موجه الى الحاكم الذى يبغضه المصريون فى الباطن ، ولكنهم مضطرون الى اظهار الرضى عنه والطاعة له •

ومن السخرية المصرية ما كان موجها الى نقد طبقة بعينهـا من طبقات المجتمع ، اما لاظهار عيوبها ، وامـا لحث ذوى السـلطان على اصلاحها ، كما كان الشـأن مع صـاحب كتاب (هز القحوف) الذى سخر فيه من أهل الريف ، وكان الريف المصرى فى العهـد العثمانى مبالغا فى اهمـاله حتى أصبح يخيم عليه الجهل فى أبشع صوره ، والجوع والعرى فى أحط درجاتهما •

ثم من السـخرية المصرية ماقصد به كذلك الى ذم طائفـة من الاخلاق الخاصة كخلق التطفل ، وخلق البخـل ، وخلق التنطع ، وخلق التـزمت ، ونحو ذلك • وسنرى أمثلة منـه فى سـخرية البهاء زهير •

ثم من السخرية المصرية مابنى على المفارقات العجيبة ، كما هو الشأن مع رجل من أكبر الساخرين الماجنين من المصريين ، واسمه (ابن سودون) ٠

وأما فى العصور الحديثة فقد بنيت النكتة المصرية على التورية واستغلال المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة ٠ ومن ثم جاءت النكتة المصرية ـ وما زالت الى يومنا هذا ـ لفظية فى أكثرها ، وربما عرضنا لامثلة منها فى نهاية هذا الفصل ٠٠٠

***

فى العصر الطولونى وبعض العصر الاخشيدى عرفت مصر شخصية عجيبة كل العجب فى تاريخها ، هى شخصية **(سيبويه** المصرى) وكان رجلا يظهر الحمق والجنون ، واشتهر عنه ذلك ٠ فاختفى هو وراء هذه الصفة ، وأخذ يهجو الحكام والامراء ولا يستطيع أحد منهم أن يأخذه بقوله لانه مجنون ٠ ولكن الناظر فى نكاته وأهاجيه يحس احساسا عميقا انه فى الواقع انما يعبر عن الشعب المصرى فى زمانه أصدق تعبير ٠

وكان من عادته أنه يغشى الاسواق العامة ، ويهجو السادة والحكام بصوت عال ، فيجتمع الناس حوله ، ويستمعون له ويضحكون ثم ينصرفون ٠٠ والعجيب فى الامر أن هجاء سيبويه لم يكن بذيئا فى لفظه ، أو نابيا فى صورته ، وانما كان هجاء يمكن أن يوصف بأنه عفيف ، وكان كثيرا مايشتمل على آيات قرآنية ، أو أحاديث نبوية ، أو حكم ومواعظ ٠ أما من تأليفه أو تأليف سواه ٠

فمن ذلك أنه كان يطوف بحماره يوم جمعة ، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الاخشيد أثناء مروره للصلاة ، فتوسط الجموع وصاح فيها قائلا :

« ما هذه الاشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ، سلطت عليهم قاصفة ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ٠٠ الخ » ٠

فقال له رجل من الواقفين : « هو الاخشيد نزل الى الصلاة » فقال : « هذه للاصلع البطين ، المسمن البدين ، قطع الله منه الوتين ، ولا سلك به ذات اليمين ٠ أما كان يكفيه صاحب ، ولا

صاحبان ، وحاجب ، ولاحاجبان،وتابع ولا تابعان ؟ لا قبل الله له صلاة ، ولا قرب له زكاة ، وعمربجثته الفلاة ! » ٠

وعلى هذا النحو طفق سيبويه المصرى يذم الاخشـــيد ، ويثير العجب فى نفوس الجماهير المحتشدة لاستقباله فى الطريق ٠ والجماهير نفسها ، تضحك من أسـجاع سـيبويه ، وتجـد فى أعمـاق قلوبها رضى عما يقوله هذا الشاعر الذى يتكلف الجنون والتمتل

***

وضاق المصريون ذرعا بالدولة الفاطميـة ، وذلك منـذ أخـذت تسـتخدم اليهـود فى الدواوين الحكومية ،وتغدق عليهم من الهبات والاعطيات والتحف والهـدايا ٠ فتهكم بعضهم من اليهود وبالدولة الفاطمية فى ذلك الزمان فقال :

يهود هـذا الزمان قـد بلغوا غـاية آمالهـم وقـد ملـكوا
العـز فيهم والمـال عنـدهمو ومنهـم المستشـار والملك
يأهل مصر انى قد نصحت لكم تهـودوا قـد تهود الفلك

وقـد كان لهذه الاشعار وأمثالها أثر كبير فى سياسة الفاطميين الذين أخذوا يعدلون شيئا فشيئا عن الاستعانة باليهود فى وظائف الدولة ٠

ونحن نعرف أن الفاطميـين دخلوا مصر وادعوا فيها لانفسهم نسبا الى فاطمة الزهراء ، فأخذ المصريون يتغـامزون عليهـم من هـذه النـاحية ، وبلغت الجرأة بأحدهم أن رمى للخليفة الفاطمى « **العزيز** » ورقة فى المنبر ، فلما صعد الخليفة للخطبة يوم الجمعة ، أخذ الورقة ، فاذا مكتوب فيها :

انا سـمعنا نسـبا منكرا يتلى على المنـبر فى الجـامع
ان كنت فيمـا تدعى صـادقا فاذكر لنا بعـد الاب الرابع
أو فـدع الانساب مسـتورة وادخل بنا فى النسب الواسع

والنسب الواسع هنا هو نسب الناس جميعا فيما عدا بنى هاشم الذين منهم السيدة فاطمـة رضى الله عنها ٠

ولم يكتف المصريون بذلك، بل أخذوا يتغامزون كذلك على الفواطم فى أمر آخـر زعمـوه لانفسهم أيضـا ، وهو علم الغيب ٠ فجرؤ بعض المصريين ورمى فى المنـبر ورقة أخرى قال فيها :

بالظلم والجور قـد رضـينا وليس بالـكفر والحمـاقه
ان كنت أعطيت عـلم غيب فقـل لنا كاتب البطـاقه

أما العصر الايوبى فلسنا ندرى لماذا كثر فيه الساخرون من الكتاب والشعراء كثرة عظيمة ،ولماذا شاع فيه الضحك والمرح الى درجة كبيرة ، مع أن العصرعصر جد ، ويكفى أن تعرف انه عصر الحروب الصليبية وما أدراكما الحروب الصليبية • فانها قد أصابت المصريين وأهل الشرق القريب بطائفة من المحن والبلايا لايستطيع هؤلاء نسيانها ، ومازالت الانسانية ترتجف حين تذكرها •

ولكن للقدرمفارقاته العجيبة ،فحيثما تجد الغنى الفاحش ، لابد أن ترى الى جانبه الفقر المدقع ،وحيثما تجد الكرم المشرف تجد الى جانبه الشح القاتل ، وحيثماتجد الحزن والكآبة تجدمعها المرح والدعابة •

وبحسبنا هنا أن نشير من الشعراء الفكهين الى **البهاء زهير** ومن الكتاب الساخرين — فيماعدا **الاسعد بن مماتى** — الى الرجل الذى أشرنا اليه من قبل ، وهو **الوهرانى** •

كان **البهاء زهير** مشهورا بشعبيته فى الشعر ، وخفة روحه حتى فى الهجاء • وليس هجاء هذا الشاعر المصرى فى الحقيقة الا ضربا من ضروب الفكاهة المصرية والدعابة الشعبية التى نطلق عليها نحن فى أيامنا هذه اسم (التريقة) •

قال مرة يذم امرأة :

كم ذا التصاغر والتصابي — غالطت نفسك في الحساب
لم تبق فيك بقية — الا التعلل بالخضاب
لا أقتضيك مودة — رفع الخراج عن الخراب

وقال يذم عائدا عاده فى مرضه :

وعائد هو سقم — لكل جسم صحيح
لا بالاشارة يدرى — ولا الكلام الصريح
وليس يخرج الا — تكاد تخرج روحى

وقال يذم شخصا بالثقل :

بحق الله متعنى من وجهك بالبعد
فما أشوقنى منك — الى الهجران والصد
وما تصلح للهزل — وما تصلح للجد
فلا صبحت بالخير — ولا مسيت بالسعد

وقال يذم شيخا :

كلما قلت استرحنا جاءنا الشيخ الامام
فاعترانا كلنا منه انقباض واحتشام
وعلى الجملة فالشيخ ثقيل والسلام

وقال يذم رجلا ذا لحية :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشره
طلبت فيها وجهه بشدة فلم أره

وقال يداعب صديقا له :

لك يا صديقي بغلة ليست تساوى خردلة
تمشي فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة(١)
وتخال مدبرة اذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنملة
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة

***

وأما « **الوهرانى** » فهو عبد الله محمد الوهرانى ، أحد الفضلاء الظرفاء • قدم الديار المصرية فى أيام صلاح الدين ، فلما دخل البلاد ورأى بها القاضى الفاضل والعماد الاصفهانى ، وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ، وعمل المفاجآت والرسائل المشهورة ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها الدلالة على خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكمال ظرفه •

هكذا حدثنا مؤرخ من مؤرخي الدولة الايوبية واسمه (**ابن خلكان**) •

والواهراني نسبة الى (وهران) في بلاد المغرب • وكان المغاربة مكروهين من أهل مصر في ذلك العصر ، أى منذ العصر الفاطمي الذى كان يعامل فيه الخلفاء الفاطميون بنى جنسهم من المغاربة معاملة طيبة تفوق معاملتهم لاهل مصر • فكثر تهكم المصريين بالمغاربة ، واستمروا على ذلك طوال العصر الفاطمى • ومن ذلك أن أهل مصر كانوا اذا وصفوا رجلا بكثرة الكلام مع الغلظة والادعاء والسفه والغباوة سموه « بالمغربى » !

---

(١) مشكلة مقيدة •

وجاء الوهراني هذا من بلاده الى مصر في طلب وظيفة من وظائف ديوان الانشاء ، فحيل بينه وبين ذلك . فلم يسعه الا أن أخذ يتهكم بعلماء مصر وقضاتها ، وفقهائها وكتابها وشعرائها ووزرائها ، وكان الغرض الاول والاخير من سخرية الوهراني هو النيل من كبار الدولة الايوبية ، حتى يخافوه ويضطروا الى اسكاته بمساعدته فى الحصول على وظيفة .

ومن رسائل الوهراني التي كتبها على لسان بغلته الى الامير عز الدين موسك (من أمراء الدولة الايوبية واليه ينسب شارع الموسكي المشهور بالقاهرة) :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة (ريحانة) بغلة الوهراني ، تقبل الارض بين يدى المولى عز الدين حسام أكبر المؤمنين ، نجاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير ، وسق مائة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الادعية من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير . . وتشكو ما تقاسيه من مواصلة الصيام ، وسوء القيام ، والتعب فى الليل والدواب نيام . قد أشرفت مملوكته على التلف ، وصاحبها لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف ، ولا يحل به البلاء العظيم الا فى وقت حاجتى الى القضيم ، لانه أقل فى بيته من الامانة فى الاقباط ، والعقل فى رأس قاضى سنباط .

فشعيره أبعد من الشعرى العبور (١) ، لا وصول اليه ولا عبور . وقرطه أعز من قرط مارية ، لا يخرجه بيع ولا هبة ولا عارية . والتبن أحب اليه من الابن ، والقضيم بمنزلة الدر النظيم . وأما الفول فمن دونه الف باب مقفول . فما يهون عليه أن يعلف الدواب الا بعيون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب . وما عند الله من الثواب .

ومعلوم يا سيدى ان البهائم لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب الى شعر أبي تمام ، ولا تعرف الحارس ابن همام ، ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الاشغال . حفنة من القصيل أحب اليها من كتاب التحصيل ، وقفة من الدريس أحب اليها من فقه محمد ابن ادريس (٢) ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات ، فان لم يجد الا كتاب الرضاع ضاع . ولو قيل له أنت هالك ان لم تأكل (موطأ) (٣) مالك ، ما قبل ذلك

---

١ ـ نجم فى السماء ٢ ـ هو الامام الشافعي رضى الله عنه ـ ٣ اسم لكتاب الامام مالك فى الفقه .

وكذلك الجمل لايتغـذى بأشعارالجمل ، وحزمة من الكلأ أحب اليه من شعر أبى العلا ، وليس عنده بطيب شعر أبى الطيب .

وأما الخيل فلا تطرب الا لسماع الكيل . واذا أكلت كتاب الذيل، ماتت فى النهار قبل الليـــل ،والويل لهـا ثم الويل .. واذا أطعمت الحمار شعر ابن عمـار ،حل به الدمار ، وأصـبح منفوخا كالطبل على باب الاصطبل .

وبعد هذا كله قد راح صاحبها ر يريد صـاحب ريحـانة يعنى نفسه) الى العلاف ، وعرض عليه مسائل الخلاف (١) وطلب من تبنه خمس قفاف، فقام اليه بالخفاف(٢) فخاطبـه بالتقعير ، وفسر له آية العير ، وطلب منه ويبة شـعير ،فحمل على عيـاله ألف بعـير .

فانصرف الشيخ منكسر القلب ،مغتاظا من الثلب(٣) ،وهو انجس من ابن بنت الـكلب ! التفت الى المسكينة (يريد ريحانة) ، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة، وقال لها : ان شئت أن تكدى فكدى ، لاذقت شعيرا ما دمت عندى .

فبقيت المملوكة حائرة ، لاقائمة ولا سائرة . فقال لها العلاف: لاتخرجى من حباله ، ولا تبعدى عن سباله (٤) ولا تنظـرى الى نفقته ، ولا يكون عندك أحسن من عنقفته .

هــذا الامير عز الدين ، سيف المجاهدين ، أندى من الغمـام ، وأمضى من الحسـام ، وأبهى من البــدر ليلة التمـــام ، يرثى للمحروب ، ويفرج عن المكروب ،وهو من بنى أيوب ، لايرد قائلا ، ولا يخيب سائلا ..

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام، ورفست الغلام، وقطعت اللجام ، وشقت الزحام، وطرحت خـــدها على الاقـدام . ورأيك العالى والسلام » .

ما أظرف هذه الرسالة؟ لاشك أن الوهرانى حـين عمد الى هـذه الطريقة فى الطلب كان موفقا فى غرضـــه ، وكأنه كان مدفوعا الى ذلك بيأسه من الوظيفة التى أتى الى مصر من أجلها .

ثم من رســائل الوهرانى كذلك رسالة تهكم فيها برجال الدين، وبكثرة ما يقومون به من الصلاة والصيام ، وموائد الطعـــام فى رمضان .

فقال فى رسالته هذه مخاطبا بعض القضاة :

---

١ ـ يريد مسائل الخلاف فى النحو والفقه ـ ٢ ـ جمع خف وهو النعل ـ ٣ ـ الثلب السباب والشتم ـ ٤ ـ سباله شواربه .

« كلمـــا ذكرت تلك الموائدالخصيبة ، وما يجرى عليهـــا من الخواطر المصيبة ، علم أن التخلفعنها هو المصيبة • لكنه اذا ذكر ما يأتى بعدها منالقيام والقعود ،والركوع والسجود، علم أن أجرة ما يأكله فى تلك الوليمة ، نحومن عشرين تسليمة ، كل لقمــة بنقمة ، ماتحصل له الشبعة الابأربعين ركعة ، فتــكون الدعوة عليه لا له ، والحضور فى الشرطةأحب اليه •

فزهدت حينئذ فى الوصول ،وقنعتبالمحصول • اذ ليسلى من الدين ، ولا قوة اليقين ما أتركمعـــه الراحـــة تحت المراويح الى القيام بسنة التراويح ، فموعـــدالالمـــام انقضاء شهر الصيام » •

وتهكم الوهرانى بالشعراء فىرسالة له سخر فيهـــا من شاعر اسمه (**الكندى**) فخر بنفسه فىقصيدة جاء فيها قوله :

ســـبقت الى غايات كل فضـــيلة   سبقتالى ادراكها العربوالعجما

قال الوهرانى : فهـــذا البيتالمصيبة العظمى،والطامة الكبرى• وليس ينبغى أن يجاوب فيـــه الاالا فى بجوابالفتى الامى لعدىبن الرقاع ، وهو أن يحضره بعضالسلاطين ويقول له :

أنت قلت سبقت الى غاياتكلفضيلة (البيت)

فيقول له : نعم •

فيرمى له قوسا ، ويقول له :انزع هذا القوس بكل قواك •»

فيقول : ما أقدر •

فيقــول السلطان : اصفعــوه• فيصفع •

ثم يقدم له فرسا ورمحا ودرعا ، ويقول له :

قاتل هذا الغلام بهذا السلاح

فيقول : ما أقدر ولا أعـــلم • فيصفع •

ثم يقول له : حل لنا شكلا مناقليدس •

فيقول : لا أعلم •• فيصفع

فيقـــول له الســـلطان : يابنعشرة آلاف قحبـــة • وأى شىء تعلم حتى تقول :

سبقت الى غايات كل فضـــيلة ••••

فيقول : أعلم شيئا من النحووالتصريف لاغير ••:

فيقـــول له : ولاجـــل النحووالصرف تقول :

سبقت الى غايات كل فضيلة•

ثم قال الوهراني .. وكذلك يكون حاله في البيت الذى بعد هذا ، وهو قوله :

وملكنى رق المناقب أننى أحطت بآداب الورى كلها علما

فهذا البيت والله من الشعر النحس الذى لو بقى فى بطنه لاخذه القولنج (١) .

وبهذه الطريقة الفكهة أخذ الوهرانى ينقد القصيدة الشعرية بيتا بيتا حتى فرغ منها .

وللوهرانى ـ فيما عدا ذلك ـ مقامات ومنامات اشتمل عليها كتابه الذى نحن بصدده . ومن أهمها « **المنام الكبير** » وفيه تخيل انه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت ، والمنادى ينادى : هلموا الى العرض على الله . قال :

« فخرجت من قبرى أيمم الداعى ، الى أن بلغت أرض المحشر . وهناك التقيت بأناس كثيرين ، قدامى ومحدثين ، منهم الفقهاء والعلماء ، ومنهم الخطباء والادباء والشعراء ، ومنهم الفلاسفة والمتكلمون ، والمتصوفة والملوك والسلاطين .. » وذلك كله على نحو يذكرنا برسالة الغفران لابى العلاء المعرى .

واتخذ الوهرانى من منامه هذا وسيلة الى السخرية بهؤلاء جميعا ، وذلك بأسلوب يمتاز بالخفة والظرافة والرشاقة ، اذا قيس بأسلوب المعرى الذى يمتاز بشىء من الجد والتكلف والميل أحيانا الى الاغراب فى اللفظ ، والغموض فى المعنى .

وانظر الى الوهرانى يسخر ببعض الشخصيات الكبيرة فى العصر الايوبى ، بهذه الطريقة ، قال :

« عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضى السلطان ، وهى :

انقطاع ابن الصابونى الى الله عز وجل فى القرافة .

وتعصب الخبوشانى لقبر الامام الشافعى .

وتنقل القاضى قبل صلاة الجمعة وبعدها .

وصلاة السديد الطبيب التراويح فى شهر رمضان .

وبكاء بهاء الدين الفقيه على المنبر يوم الجمعة .

وقراءة الوهرانى السبع فى صبيحة كل يوم .

---

(١) يظهر انه مرض انتفاخ البطن .

وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمعة واحدة ·

واقراؤه لذلك على رءوس الاشهاد ·

وحضور ابن مماتى مجالس الوعظ فى القرافة وبكاؤه عند قراءة القرآن ·

وبناء بن أبى الحجاج لقبر السيدة آسية ، وترتيب القراء فيه كل جمعة ·

ذكروا ان هذه الاعمال الصالحة لايعبأ الله بها ، وهى أحب الى ابليس من كبار الذنوب » ·

هكذا كان تهكم الوهرانى ، يجىء مرة على شكل رسالة ، وأخرى على شكل تهكم فى صورة مقامة ، وفى ثالثة يكون على هيئة منام ، ورابعة يكون على شكل حكم وأمثال ، وخامسة يكون على شكل أسئلة · وذلك بخلاف مارأينا عند الاسعد بن مماتى من اعتماده فى السخرية على طريقة واحدة · ومع ذلك لم تبلغ رسائل الوهرانى – على تنوعها وطرافتها وفصاحتها – بعض مابلغته نوادر الاسعد بن مماتى على قصرها وقلتها وعاميتها · وسنعرض فيما بعد لاسباب ذلك ·

ويمضى العصر الايوبي ، ويليه عصر المماليك ، ويظل الروح المصرى أدنى الى الفكاهة والتندر ·· وخاصة بالحكام والامراء · غير أن النكتة المصرية منذ العصر المملوكى أصبحت تبنى فى أكثرها على « التورية » ، وهى اللفظ الذى له معنيان ؟ أحدهما قريب غير مقصود والثانى بعيد وهو المقصود ·

ومن ذلك على سبيل المثال :

«حكى عن الشاعر المعروف (بالسراج الوراق) أنه جهز غلاما له يوما ما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به ، فأحضره ، فوجده زيتا حارا ، فأنكر على الغلام ذلك ، وأخذه وجاء الى الشارع وقال له:

لم تفعل مثل هذا ؟

فقال له الغلام :

والله ياسيدى مالى ذنب · لأننى قلت لبائع الزيت : أعطنى زيتا للسراج !! »

وفى كلمة « السراج » تورية كما تعلم · وهى مثال من أمثلة

الفكاهة المصرية التي شاعت في زمن المماليك • ولم تزل شائعة الى اليوم ، ونعني بها الفكاهة أو النكتة المبنية على « التورية »

واجتمع محدث ونصراني في سفينة ، فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة ،وشرب وصب بعد ذلك ، وعرض على المحدث • فتناولها المحدث من غير تفكير ولا مبالاة • فقال النصراني

جعلت فداك ، هذا خمر !

فقال المحدث : من أين علمت أنها خمر ؟

قال النصراني: اشتراها غلامي من خمار يهودي •

وحلف انها خمر عتيق !

فقال المحدث للنصراني :

انت أحمق • نحن أصحاب الحديث نروى عن الصحابة والتابعين • أفتصدق نصرانيا عن غلام عن يهودي ؟ والله ماشربتها الا لضعف الاسناد ! » .

وقد لايفهم النكتة الاخيرة الاعلماء الفقه أو الحديث • لانهم يفهمون المقصود من كلمة (الاسناد) ومعناها عندهم نقل الحديث عن فلان عن فلان عن فلان • ولذلك يسمون الاسناد أحيانا باسم (العنعنة)

ولقد كانت أسماء الشعراء والادباء في العصر المملوكي يوحي الكثير منها في ذاته بمعنى الفكاهة • فشاعر اسمه السراج وآخر اسمه الحمامي (نسبة الى الحمام) ، وثالث اسمه الجزار • وهي أسماء تدل على المهن التي يشتغلون بها ومع ذلك تدل على معنى المرح •

وكان الجزار من هؤلاء شاعرا ذا روح خفيفة ، ونكتة لطيفة ، وتورية تبعث دائما على الضحك،قال الجزار يصف داره :

ودار خراب بها قد نزلت ... ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق مابين أني أكون ... بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم ... فتصغي بلا أذن سامعة
وأخشي بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الرابعة
اذا ماقرأت (اذا زلزلت) ... خشيت بأن تقرأ (الواقعة)

وذم الجزار رجلا بالبخل فقال: :

لايستطيع يرى رغيفا ... عنده بالبيت يكسر
فلو أنه صلى وحاشاه ... لقال (الخبز أكبر) !

***

وندع هؤلاء جميعا لنذكر مضحك العصر المملوكي غير مدافع وماجنهم غير منازع ، ونعنى به :

ابن سودون :

هو صاحب كتاب « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وهو عبارة عن ديوان شعر بنى كله على الهزل بألفاظ أكثرها عامية .
و(ابن سودون) من الشعراء الذين توفروا على ضرب واحد من ضروب الشعر هو الهزل والفكاهة، وقد اعتمد هذا الشاعر الظريف ضحكه في ديوانه هذا على المفارقة بين الجد والتفاهة . وهذا نوع من أنواع الهزل ولا يصح أن يطلق عليه اسم السخرية .

تراه يبدأ قصيدة من قصائده بداية جادة تشعرك بأنه سيقول كلاما قيما مفيدا ، ثم لا يلبث أن ينتقل بك انتقالا مفاجئا الى نوع من التفاهة فى القول والشذوذ فى التفكير ، وهما مصدر الاضحاك فى شعره ، والطرافة فى مذهبه . وهو فى شعره لا يفتأ يذكر طائفة من البديهيات التي يعرفها الاطفال الحديثو العهد بالتكلم . ولكنه يقدم لها بكلام تنسم فيه رائحة المنطق ، وتشعر منه بأنه يريد أن يحدثك عن بعض العجائب فى هذا الكون .
بهذه الطريقة من طرق المفارقة ترى ابن سودون ينتزع الضحك من أفواه الخاصة والعامة . واذا هؤلاء وهؤلاء مغرقون فى الضحك شاعرون بالمرح ، راغبون فى الاستزادة من شعر هذا الشاعر العجيب .

ومن شعره قوله

اذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الارض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل
وبينهما أشيا متى ظهرت ترى
وانى سأبدى بعض ما قد علمته
لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
ومنهم أبو سودون أيضا وان قضى
وأن أبى زوج لأمى وأننى
أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا

وكم عجب عنـــدى بمصر وغيرها
فمصر بها نيل على الطـين قـد جرى
وفى نيلهـا من نام بالليـل بله
وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائمـا
بها الظهر قبل العصر : قبـل بلا مرا
وبالشـام أقوام اذا مـا رأيتهم
ترى ظهر كل منهمـو وهـو من ورا
بها البـدر حال الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويسخن فيهـا الماء فى الصيف دائما
ويبـرد فيهـا الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى اذا ما طرقتـه
يطن كصـينى طرقت سـوا سـوا
بها يضحك الانسان أوقـات فرحـه
ويبكى زمان الحزن فيهـا اذا ابتـلى
وفيها رجال هم خـلاف نسـائهم
لانهمـو تبـدو بأوجههم لحى
ومن قد مشى وسط النهـار بطرقهـا
تراه بها وسط النهـار وقد مشى ... الخ

أرأيت الى هذه الفوضى المضحكة فى الـكلام ؟ أريت الى تلك البدهيات المعلومة لكل انسان ؟أى فرق بين هذه الاشعار وقول المناطقة عندما يمثلون (للدور)فى المنطق :

كأننا والمـاء من حولنـا قوم جلوس حولهم مـاء

وليس ديوان ابن سودون كله شـعر ، بل بعضـه نثر ، ولكنه من نفس هذا الضرب ، وله نفس هذا المنزع فى المرح واللهو . ومنه قوله :

« قال الزلبيانى : كنت ـ وأنا صغير ـ بليدا لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم مايقـال . فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت

أبعد مني ذهنا ، الا أنها أكبرمني سنا ، وما مضت فترة طويلة حتى ولدت ، والتمست مني طعاما حارا ، فتناولت الصحفة مكشوفة ورجعت الى المنزل آخذا المكبة (يريد غطاء الصحفة) فنسيت الصحفة . فلما كنت في السوق تذكرت ذلك ، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة ، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الاخرى! ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس . فقلت : لا أشترى لها في هذه الليلة شيئا ، وأدعها تموت جوعا . ثم رجعت اليها واذا هي تئن ، واذا ولدها يستغيث جوعا ، ففكرت كيف أربيه ، وتحيرت في ذلك . ثم خطر ببالي أن الحمامة اذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتي ويقذفه في فم ابنه ، وتكون حياته بذلك . فقلت : لا والله لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ابني يذوق كاس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته في فمي ، ونفخته في فمه فرادى وأزواجا ، أفواجا أفواجا ، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لايسع شيئا ، وصار يتناثر من أشداقه . فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح . ثم نظرت اليه واذا به قد مات . فحسدته على ذلك . وقلت : يابني : قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ، لانها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع . وتركتهما ميتين ، وخرجت لأحضر لهما الكفن والحنوط . ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل . وها أنا في طلبه الى يومنا هذا ! »

وسأل بعضهم ابن سودون عن الدجاجة هل هي من البيضة أم العكس ؟ فأجاب بقوله :

« لانقل عندى في هذه المسألة ، والامران محتملان . والاظهر أن الدجاجة كانت أولا ، ثم باضت وحصل التناسل . ومما يؤيد ذلك الحدوتة المشهورة وهي :

«أحدثك حدوتة بالزيت ملتوتة : كان ماكان في قديم الزمان ، أولاد حمدان طلبوا نانا ، والنانا في التنور . والتنور يريدلو حطب ، والحطب في الجبل ، والجبل يريدلو فاس . والفاس عند الحداد . والحداد يريدلو بيضة . والبيضة في الدجاجة . والدجاجة تريدلها لفط . واللقط في الحظيرة . والحظيرة تريد لها مفتاح . والمفتاح عند رباح ، مايجي من الساعة لشق الصباح . فقال : والبيضة في الدجاجة . ولم يقل الدجاجة في البيضة . ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزة كذلك أيضا»

وما زالت هذه الحكاية وأمثالها تدور على ألسنة العوام عندنا فى مصر الى اليوم .

وقد شهد العصر المملوكى ضربا آخر من ضروب الهـزل كـان يعرف باسم (خيال الظل) وهو مسرح شعبى قديم لعله (الاراجوز) فيما بعد . وقد نبغ فيه شاعر مصرى يقال له محمد بن دانيال .

ويؤخـذ من كلام المؤرخين أن هذا الفن أصبح فى مصر حرفة ، وأصبح فى استطاعة الخيـال أن يعبر به عن الاحداث التاريخيـة لكن فى صورة هزلية .

قال ابن دانيال عن نفسه :

« لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية، وجدت مواطن الانس دراسة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة . وقد أمر السلطان باهراق الخمور واحراق الحشيش .. وشـــاعت بذلك الاخبار ، ووقع الانكار ، واختفى المسـطول فى الدار .. فدعانى بعض أصدقائى الى محله، وأنزلنى من عياله وأهله ، واعتذر الى عن تقصيره فى الاكرام ، اذ لم يأتنى بمدام . ثم قال : لقـد غلب على ظنى أن أبا مرة (يريد ابليس) قد مات ، وعد من الرفات ، فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه . فقلت :

مات ياقوم شـيخنا ابليس	وخـلا منـه ربعه المأنوس
ورمانى حدسى به اذ تولى	ولعمرى ممـاته محدوس
هو لم يكن كما قلت ميتـا	لم يغـير لامـره ناموس
كم خليع يقول: ذا اليوم يوم	مثل ماقيل: قمطرير عبوس
وقضيب ونرجس وسـعاد	باكيات وزينب وعروس »

وعلى هـذا النحو من التهريج يسير ابن دانيال فى قصـيدة له افتتح بها بعض مسرحيـاته التى هزىء فيها من أوامر السلطان بيبرس ومن سعيه لاغلاق الحانات وأماكن اللهو .

وبهذه الطريقة أخرج ابن دانيال طائفة من المسرحيات أهمها ثلاث: عجيب وغريب ، والمتيم ، ولعب التمساح .

ثم فى القرن العاشر الهجرى كان العثمـانيون من الاتراك قـد ملكوا البلاد ، وكانت أسـباب اللهو والمجون قد اتسـعت لاكثر

الناس • وفي ذلك الوقت ظهرميل الشعب الى شرب القهوة ، والى اتخاذ أماكن لشرابها تحمل هذا الاسم • وفي القهوة كان يجتمع الشباب المصرى للنكات والمداعبات ، ولسماع «الشاعر» الذى يقص عليهم القصص الشعبية المعروفة ، على نحو ما نشاهده فى كثير من الاحياء الشعبية بمدينة القاهرة الى يومنا هذا

وقد ترك لنا ذلك العصر العثمانى طائفة كبيرة من الفكاهات المصرية العجيبة • ولكنا مكتفون هنا بعرض صورة واحدة لتلك الفكاهة ، تلك الصورة التى نجدها فى كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » ليوسف الشربينى •

وهو كتاب لطيف يسخر فيه صاحبه من أهل الريف ، ويصف ماهم فيه من الفقر والجهل والذل والبؤس والانحطاط الذى يهبط بهم عن درجة البهائم • وفيه يقول المؤلف :

« لاتصحب الفلاح لو أنه — نافجة أباحها صاعدة
ثيرانهم قد عبرت عنهمو — بانهم من طينة واحدة »

وزعم المؤلف فى كتابه هذا أن رجلا من أهل الريف يدعى (أبا شادوف) نظم قصيدة فى وصف الريف • وقد أحب المؤلف أن يشرح للناس هذه القصيدة التى نظمها باللغة العامية ، ووصف فيها بؤس الفلاح المصرى ، وبالغ فى تصوير تعاسته ، كما وصف أكله وشربه ولبسه وطريقة نومه وأتى على بعض عاداته فى الافراح والمآتم والاعياد ونحو ذلك • ومن ثم جاء كتاب الشربينى هذا جزأين أولهما فى السخرية من أهل الريف • والثانى فى شرح قصيدة أبى شادوف •

وان قارىء هذا الكتاب لايسعه فى الواقع الا أن يصب لعناته على ذلك الحكم العثمانى البغيض ، الذى أورث الريف المصرى كل هذه الهموم ، وصب على رأسه كل هذه الآفات والمظالم من جانب الحاكم نفسه تارة ، ومن جانب (الكشاف) أو المدير تارة ، ومن جانب الملتزمين ممن يجمعون الاموال والضرائب تارة ، ومن جانب الموظفين الآخرين الذين قاموا على تنفيذ نظام السخرة أو (العونة) كما كان يسمى بهذا الاسم فى ذلك العصر •

أراد الشربينى أن يصف لنا فى كتابه صورة الجهل الذى خيم على ريف مصر فحكى لنا أن رجلا من الفلاحين سأل آخر :

« ايش هجاك ابريق ؟ »

فأجابه بقوله : « ب،ر،،ب،ق،واو » ٠
فقال له الاول :

« ايش عرفك ان فيها واو؟»
فأجاب : « دلتنى عليها النقطةاللى فوق الواو »
فقـــال له : « ان عشت تبقىفصيح لاخوالك » !!

وعطس رجل منهم ، فقـــال لهففيه من أهل الريف :

« يرحمك اللى عطســـك ، ولو شاء لفطسك ، وأخرج العطسة من فرافير اللى خلقك »

فقال له الفـــلاح : « يافقى ـــلاعدت تنسانا من دى السورة ، تقرأها علينا فى المسا والصباح وأعطيك أيام المقات أربع بطيخات وتقرأ السورةلام معيكة، وتهديهالابو زعبــــل ، فانه مات من مدة شهرين » ٠ فضحك منه الرجل ومضى الى سبيله

ودخـــل رجـــل منهم قرية على شاطىء النيل يوم الجمعة ،فرأى الناس قاصدين الى صلاة الجمعةفاعتقد أنهم ذاهبون الى ضـــيافة صنعها لهم أمير البلد ٠ فذهب مع الناس الى أن دخلوا المســـجد ، وجلس فى بعض الصفوف ، الى أن أقبل الخطيب وصعد على المنبر فصار الفـــلاح ينظر اليه وهومرتاب وخائف ومتحـــير ، الى أن فرغ من خطبته ، وأقيمت الصلاةوسمع ضجيجهم بالتكبيروالتهليل فاعتقد أنها هرجة وقعت بينهم !

وصاح : يا آل سعد ! الحقونى ٠ وسحب النبوت وخرج هاربا وهو يقول : خـــدوك القوم ياأبوكتـــكوت ! ولم يزل فى خوف وكرب حتى وصل الى الكفر !

ودخل عالم من علمـــاء الريف مسجدا فى القرية ليصلى صـــلاة الجمعـــــة ٠ وتعجب حـــين رأى الفلاحين يدخلون المسجد للصلاة وبيد كل منهم قفـــة من خوص وفيها مغرفة ، وخشبة ، وسكين من حـــديد ، وفار ميت معلق من عنقـــه ٠ وبعد قليـــل جاء خطيب المسجد فى نفس الصـــورة التى دخل بها الفـــلاحون من قبله ٠ فقرب العالم من خطيب المســـجد وسأله السبب فى ذلك ٠فأجابه الخطيب بأنه هو الذى أمر الفلاحين وأمر نفســـه بذلك ٠ والا كانت صلاة الجميع باطلة ٠ قال العالم للخطيب : وما الحكمة فى ذلك ؟

قال الخطيب : حديث قرأته فى كتاب عندى يقول :

حدثنى فلان عن فلان عن فلان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

لاتصـــح جمعـــة أحدكم الا بقفةومغرفة وخشبة وسكينة وفار •

فطلب العالم منه الكتاب وقرأالحديث ، فاذا هو :

لاتصح جمعة أحدكم الا بعفةومعرفة وخشية ووقار !

وأما غفلة الفلاح المصرى فقــدأبان عنها مؤلف الكتاب فى كثير من قصصه ، ومنها هــذه القصةالطويلة التى قصها عنفلاحمصرى ترك الكفر الذى يعيش فيه وجاءلزيارة المدينة قال :

« اتفق لثلاث نســوة من أهلمصر أن خرجن يتفرجن فىأزقة المدينة •• فلقين رجلا من قحوفالريف ، وهو فى حالة رديئـــة ، وعلى رأسه قفص ملآن من الفراخيريد أن يبيعها ويسد بثمنها مال السلطان • فقالت احداهن للاخرى :

ماتقولى فى اللى ياخد الفراخمن الفلاح ده ؟

فقــالت الاخرى : وأنا آخــذثيابه ••

وقالت الثالثة : كل ده ماهوشطارة • الشطارة فى اللى يبيعه بيع العبيد •

ثم ان (الاولى) اللى التزمتبأخذ فراخه أقبلت عليه ورغبتـــه بزيادة فى الثمن • فمضى معهاالىأن وصــلت الى درب من دروب مصر ، وبيت له بابان، وقالتله:

أقعد هنا على البــاب ده ، فانهباب بيتى ، واصبر حتى أجى لك بالفلوس • ثم أخـــذت القفصبالفراخ ومضت لحال سبيلها من الباب الثانى • ولم يزل الفــلاحجالسا على الباب الاول ، ولميأته أحد ، فتحيرفىنفسهوبسألعنالمرأةالتى أخذت الفراخ • فقـــال له الناس • ياقليل العقل ، وسقيعالدقن • البيت ده نافد •

فصاح الفلاح ولطمعلى وجهه•وبينما هو على هـــذه الحال اذ أقبلت عليه (المرأة الثانية) وقالت له :

ايش صابك ودهاك يامسكينوانت راجل غريب وعليــك مال السلطان ، وضحكتعليكالعاهرةوخدت منك الفراخ ؟

فقال لهــا : وحيـــاة عيونكيامليحة مامعى غيرهم !

فقالت له : امشى معـــاى الىبيتنا وأنا أعطيك شىء من النقود صدقة عنى •

فقال لها الفلاح : الله يجزيكيخير • وأنا لاخر لما أروح الــكفر أزورك بحزمة لحـــلاح ، وحزمةبصل ، وشــوية فول ، وتبقى

صاحبتي • وان شاء الله أجيب لك كمان عشرين قرص جلة •

فأخذته وسارت الى أن وصلت الى بيت كبير عالي البنيـــان •• فسألت عن صاحبه • فقالوا لها: هذا بيت الامير فلان ، وقد خرج هو وبعض أصـــحابه الى بعض المتنزهات ، فدخلت البيت فلم تر فيه أحدا سوى رجل كبير بواب، ودخل الفلاح معها الى وسط الدار فرأت فيه بئرا من الماء تملأ منه الحريم • فوقفت ونظرت في البئر ثم ولولت وصرخت وبكت بـكاء شديدا • فقال لها الفلاح :

تبكين ليه ياماليحة ؟

فقالت له : يافلاح كعبك شؤم علي • فقد وقعت أساوري الذهب في البئر ، قال لها :

ماتخافيش يامليحة • أنا انزل وأجيبهم لكي من البئر •

فقالت له : تعرف تغطس في المية ؟

قال لها : دي صنعتي • وطول عمري في الهم والغم !

ثم قال لها : اربطيني في حبل البكرة دي ، ودليني في البئر •

ثم انه قلع ثيابه ، ودلته في البئر الى أن وصل الى الماء فأرخت الحبل عليه وأخذت ثيابه وذهبت الى حال سبيلها !

هذا ما كان منها • وأما ماكان من الفلاح فانه لم يزل يغوص في الماء ويفتش في قعر البئر حتى كل ومل ، واسود جلده من البرد وكانت أيام شتاء • فلما اشتد الامر صار يصيح وينـــادي المرأة ، فلم يجبه أحد !

فبينما هو في هـــذه الحالة اذ أقبل الامير وأصـــحابه وســـمعوا الفلاح يصيح في البئر وينادي :

ــ طلعيني ياصـــبية ! طلعيني يامليحة ! ده ماهوش مليح منك ! ده عيب عليـــكي ! أنا مت من السقيع والبرد •• الخ

فقال له الخدم : أنت انسي أم جني ؟

فقال لهم : أبو زعبل بن حنجل من كفر ال ••

فقال بعضهم لبعض: ده عفريت من غير كلام !

فقال لهم الفلاح : والله ياوجوه الخير ما أنا عفريت • أنا راجـــل فلاح • وحكى لهم قصته • فدلوا اله الحبـــل ، فتعلق فيه وطلع • فلما رآه الخدم ، علموا انه انسي ، ثم قال بعضهم لبعض : ده حرامي ووقع في البئر • فنزلوا عليـــه ضرب ، وطردوه ، وراح يجـــري وهو عريان بردان جعان سقعان • ولا يدري أين يذهب ؟

فأقبلت عليه (الثالثة) وهوفي هذه الحالة ، وقد صارت الاولاد تضربه ، وتقول : المجنون ! المجنون !

فوضعت المرأة يدها على ظهره، ومسحت وجهه بمنديل كان معها، وسترته بفوطة ، وقالت له :

أمرك الى الله يامسكين ، ياحزين • ضحكت عليك نسوان مصر، خلوك في دى الحالة ، وانت راجل غريب ، وعليك مال السلطان !

فبكى الفلاح وشكا وقال لها :

يامليحة : وحياة شلشولك • خدوا فراخي وخدوا ثيابى ، وخدوا حزامي الليف ، وخدوا مشدى ومركوبى ، وما عدت أصدق كلام النسوان أبدا !

فقالت له : لاتظن يافلاح أني من نسوان مصر • أنا عمزى ما خرجت من بيتى غير النهارده • ولما رأيتك في دى الحالة شفقت عليك ، ومرادى أعمل معاك جميل ، وآخدك الى بيتى •• وألبسك لبس مليح ، وأخليك شلبى ظريف ، وأعملك مملوك ، وأحط لك خنجر في حزامك ، وأعلمك التركى ، وتبقى تقول : شندى بندى •• الخ •

فقال لها الفلاح : أنا في عرضك يامليحة تعمليني جندى ، وتعلميني التركى • وأنا على الحلال من أم شحيبر كل من عاد يقول لى كانى مانى في زمانى قطعت رأسه ولو كان أبو عو كل شيخ الكفر •

فقالت له : سر بنا يافلاح على بركة الله !

فسار معها الى أن وصلت الى منزلها • فأدخلته فيه ، ووضعت بين يديه الطعام ، فأكل وشرب، وارتاح في نفسه • ثم أتته بماء ساخن ، وغسلته بالليفة والصابونة ، وألبسته قميص وشخشير جوخ ، وقاووق قطيفة، وشاش قصب ، وحزمته بحزام وفيه خنجر ، وحلقت لحيته وشاربه ، وجعلته مملوك حليق • وقالت له :

اذا كلمك أحد فلا ترد عليه جواب • بس هز رأسك • فاذا ألح عليك في الكلام بالحماقة ، وشدد عليك ، قوله له :

« كرته هريف يوك يمه (١)

ولا تزد على ذلك • فان الكلمة دى أصل التركى • اذا عرفتها

---

١ ـ عبارة قذف ، قريبة المعنى من قولهم : أيها الرجل القذر ، ليس معي طعام لأمثالك •

ما يمضى عليك شهر زمن الاوانت صنجق ويبقى لك طبل وزمر .
فقال لها الفلاح :أنا فى عرضك يامليحة تخلينى أبقى صنجق ، وبصير لى سطوة فى الكفر . وابقى ان شاء الله أزورك بشتوية كشك، وعشر طورات كعك من اللى بتعمله أم شحيبر ، وأعمل لك قاعة واكبسها لك بالوحل والجلة ، وافرشها لك بالتبن والقصل .
وتبقى تنامى فيها . ويبقوا يقولوا الجدعان : أبو شحيبر طلع المدينة فلاح ورجع جندى ، يقول شندى بندى ، ويقطع الروس .
ثم انها أخذته ونزلت به الى سوق خان الخليلى ، وجلست فى دكان من الدكاكين يبيع أنواع الاقمشة . والخز . والاطلس . والشاشات الخ .. فقالت للتاجر :أريد كذا وكذا ، مما يساوى الف دينار . فأحضر لها التاجر ما قالت عليه . وربطته فى بقجة، وقالت له : ياسيدى يكون المملوك ده عندك رهن حتى أروح لبيت الامير وأعرض على حريمه القماش وأجيب لك الدراهم . فقال لها التاجر : توجهى على بركة الله .
فأخذت الحوائج وتركت الفلاح، ومضى نصف النهار ولم ترجع المرأة الى التاجر . فتضايق ، والتفت الى الفلاح وقال له :
ستك بطت علينا ! فهز الفلاح رأسه كما أوصته ولم ينطق بكلمة . فكرر عليه التاجر الكلام، فهز رأسه ولم يتكلم . فتضايق التاجر وقال لجيرانه التجار : ماهذه البلية فى هذا المملوك . كلما كلمته هز رأسه كأنه ما يعرف الا بالتركى .
فبينما التاجر على هذه الحال ، اذ أقبل عليه رجل عسكرى، فقال له التاجر : بالله عليك ياسيدى تكلم لنا هذا المملوك بالتركى . وعرفنا عن حاله . فكلمه الجندى بالتركى فهز رأسه فاغتاظ منه وسل عليه السيف وأراد أن يضربه . فلما رآه الفلاح يريد ذلك صاح قائلا :
« كرته هريف يوك يمه »
فلما سمع الجندى منه ذلك نزل عليه بالضرب . فصار الفلاح يتكلم ويصيح بكلام الفلاحين ويقول :
ـ أنا فى جيرتك يابو زعبل .
فضحك عليه الجندى وبقية التجار ، واستخبروه ، فحكى لهم القصة من أولها الى آخرها . فعرفوا انها حيلة عملت على التاجر والفلاح . فقام التاجر وعراه وأخذ جميع ما عليه وباعه بعشرين دينارا . ومكث الفلاح سنة ، ثم خلص روحه وهرب الى الكفر .»

السخرية المصرية فى العصر الحـــديث

بقي المصريون غارقين في لهوهم ومرحهم ونومهم وكسلهم ابان الحكم العثماني • وكانت النـكتةالمصرية فى ذلك الوقت لاتحمـل معنى من المعانى ، ولا تهـدف الىغرض ما سوى المزاح والعبث ، وتزجية أوقات الفـراغ ، ونحوذلك ، وان كانت يومئـذ صورة للحياة التي يحياها المصريون فيتلك الفترة من فترات التاريخ • فهى لاتهدفمثلا الىاصلاح حاكم،ولا الى منفعة محكوم • ولا تقصد الى عيب من عيوب الافراد وعيوبالمجتمعات • ولا غرض لها ـ كما قلنا ـسوى الضحك والاضحاك• وقد أعان علىذلكشيوع«القهوات» التى يجتمع النـاس فيها لشربالتبغ أو البن وسـماع القصص أو المزمار •

غير أن الحال أصبح غير الحال ،وذلك منذ بداية القرن التاسع • فاذ ذاك اســتيقظ المصريون منسباتهم ، ونهضوا قليـلا قليـلا ببـلادهم • وأعان على ذلك أموركثيرة ، من أهمهـا ظهـور اداة جديدة من أدوات الحضارة ، هى« **الصحف** » •

ومنذ أصبحت الصـحيفة فيمتنـاول كل انسان ، وأصبحت الصحافة تحمـل أمانة الاصـلاحالسياسى والاجتماعى ، فى مصر بنوع خاص ، وجد الادباء أنفسهممضـطرين الى أن يرضوا بأدبهم أكبر عددممكن من الشعب المصرىوالشـعوب الشرقيـة التى تقـرأ العربية • وهنـا نقطـة التحولالهـائلة فى حيـاة الادب بصوره المختلفة •

خـذ لذلك مثـلا واحدا ، هوالشعر • فقد كان الشاعر قبـل القرن التاسع عشر يخص بشعرهالامير وحاشية الامير ، فاضطرته ظروف هـذا القـرن أن يتجه الىالجمهور ، وأنيرضى بشعره الذى ينشرهفىالصحفذوق هذا الجمهورفأثر ذلك تأثيرا واضحا فى معانى الشعر ، وألوان الاساليب • ولميكتف شاعر كشـوقى أو حافظ أن يكون كل منهمـا شاعر مصرأو النيل ،بل أراد أن يكون شاعر الشرق العربى كله يفرح لفرحه ،ويحزن لحزنه ، ويعبـر عن آمال الشعوب الشرقية جمعاء •

واذا كانهذا صحيحا بالقياسالى الشعر ، فهو كذلك صـحيح بالقياس الى السـخرية • ومعنىذلك فى وضـوح ان السـخرية المصرية لم تعد فردية ، ولا غايةلها الا تزجية أوقات الفراغ ، كما كانت قبل القرن التاسععشر،بلانها أصبحتسخرية يقصد بهاالى

اصلاح المجتمع ، واصلاح الاخلاق والعادات ، واصلاح الحكام والطرق التى يحكمون بها الشعب فى نهاية الامر .

ونحن مكتفون هنا بأن نضرب المثل بثلاثة فقط من كتاب القرن التاسع عشر ، وهم عبدالله النديم، وابراهيم المويلحى ، ويعقوب بن صنوع .

السخرية فى أدب النديم

بقي عبد الله بن النديم غارقا مع أهل الاسكندرية فى أحاديثهم التافهة ، ومجالسهم المضحكة ، وأسمارهم المسلية ، حتى جاء يوم فاذا أهل الاسكندرية ـ وعليهم طابع الجد ـ يتحدثون فى أمور كثيرة ، ومشاكل عويصة ، منها مشكلة صندوق الدين ، ومنها مشكلة التدخل الاجنبى ، ومنها الشورى ، ونحو ذلك . واذ ذاك ولد النديم ميلادا جديدا ، وترك ما كان عليه من قبل من الانغماس فى اللهو والعبث ، وقضاء الوقت كله فى المرح والضحك ، ودخل فيما دخل فيه الناس يومئذ من الجد . وكان من ذلك انه اتجه الى الصحافة وشارك فيها بنصيب كبير على النحو الذى نوجزه فيما يلى :

حصل النديم من الحكومه على اذن له فى اصدار جريدة سماها « التنكيت والتبكيت » ، كتبها يومئذ باللغتين العربية والعامية ، الاولى يخاطب بها الصفوة . والثانية يخاطب بها العامة . وكما فرق بين هاتين اللغتين ، فكذلك فرق بين طريقتين من طرق السخرية : الطريقة التى يكتب بها للخاصة ، والطريقة التى يكتب بها للعامة . أما الطريقة الاولى فتعتمد على الرمز ، وأما الطريقة الثانية فتعتمد على التصريح .

مثال الاولى انه أحب أن يتحدث عن الخراب الذى أصاب البلاد بسبب اسراف اسماعيل ، فكتب فى جريدة « التنكيت والتبكيت » مقالا ساخرا بعنوان : « **مجلس طبى على مصاب بالافرنجى** » .

(والافرنجى) كلمة كان يطلقها المصريون فى القرن الماضى على مرض الزهرى . والكاتب يستعمل اللفظ هنا استعمالا مجازيا أو رمزيا . لانه يرمز به الى الخراب الذى عم البلاد نتيجة لاسراف الخديوى . وأما (المصاب) هنا فيرمز به الى مصر التى أصبحت تعانى المرض والفقر من جراء هذه الحالة السيئة . وأما (المجلس الطبى) فيرمز به الى العقلاء والناصحين فى الامة المصرية .

قال النديم :

« كان هـذا المصـاب صحيح‌البنيـة قوي الاعصــاب لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب الاصبا ، ولا سمع بذكره الا طـار اليه شوقا · وبقى أهله يحفظونه‌من الاعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وهو هو غزال فى‌الخفة،وغصن فى الليلا ، وبدر فى‌البهجة، وجنـة فى المنظـر ، تمر عليـه‌الدهور فتزيده حسنا ، ويتوالى عليه العشاق فيزدادون به هياماوشوقا · وقد أتفقوا على توحيد كلمتهم فى حفظه ، وجمع شتاتهم‌فى رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة فى بقائه فى‌الوجود معززا بأهله،مؤيدا بعشائره ، حتى لاتمد اليه يد عدو ، ولا يتوجه اليه فـكرمحتال ، ولا يقرب منه مغتال ·

وبينما هو يتيه بحسنه، ويدل‌بجماله ، صحبه أحد المضـلين ، واستماله بنفـاق تميـل اليه‌النفـوس ·· فظن أهله أن هـذا المضل من الاتقياء الذين لايعرفون‌اللهو ، ولا يميلون الى المفاسد · وسلموه جنة حيـاتهم ، وروضة‌ثروتهم · فدار به فى الاسـواق والطرقات ، وعرضه للعشـاق‌تقبله جهـارا ، وتسـلبه حـلى أصابعه ، وزينة صدره ··

·· الا أن هذا الغزال الطاهر‌العرض لمـا رأى أهله أهدروه وأهملوه ·· استسلم للقضاء ،·· وسار فى طريق لايرى فيـه أحدا من أهله ·

فما هى الا رشفة كأس حتى‌اصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه . وذهبت بهجته ، فسلم جسـمه‌الشريف الى الفرش يتململ عليه، ففطن له واحـد من أهله وزاره‌فى خربة لم يجد فيها غير شـبح يعلل نفسه بالامانى ، ويصـعد‌الزفرات ··فبكى وانتحب وقال:

أى حياتى · أى جنتى · أى‌نزهتى · أى مطلع عزى ، ماالذى أصابك ·· الخ

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ورمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها · وقال بصوت خفى :

لايعز عليك جسم أمرضه أهله !!

فقام هذا الزائر يضرب الكف‌على الكف أسـفا ، ويعض أنامله غيظا · وأسرع الى الحى ونادى :

أيتها القبور الصامتة ! انشقى‌وانفرجى ، وابعثى من فيـك من الاموات ، فقد أتت الطامة‌الكبرى‌وانكدرت نجوم النشور ·· الخ

فلم يكن الا كلمح البصر حتى ملىء الفضاء بأناس لاعدد لهم ، يتقدمهم طبيب بارع قد استصحب معه جملة من الاطباء • وساروا الى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقبلونها عن اليمين وعن الشمال، ويقرعون صدرها ، ويجسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها ، وعلموا أصل مصابها ••

وبعد تبادل الافكار بينهم ،قرالرأى على أنهم يركبون له دواء يوقف سريان الداء الآن • وبعدذلك يتداولون فيما يزيل المرض ويعيد الصحة ••

قال الراوى : وبينما أنا أبكي وأنوح مع أهله المساكين ، واذا بالمؤذن ينادى : حى على الفلاح •وقمت لأقضى الفرض ، وأعود لمباشرة الخدمة مع اخوانى ، اذ لم أر قبل هذا اجتماع « مجلس طبى على مصاب بالافرنجى »

تلك هى السخرية العابثة ••التى كانت تصدر عن النديم فى مخاطبة الخاصة من طبقات الامة يصور لهم بها خطورة الداء الذى سرى فى البلاد ، (وهو الخراب)ويوضح لهم أن الشفاءمنه بسيط اذا ترك الامر للعقلاء فى الامة ،فهم الذين يصونون كرامة البلاد من الناحية المالية ، وهم الذين لايدعون الحكومة تعلن الافلاس ، وتسىء بذلك الى سمعة مصر •

أما الطريقة الثانية التى اتبعها النديم فى سخريته ونعنى بها الطريقة الشعبية التى كانت تكتب باللغة العامية ، والتى كانت تبنى على الضحك والمرح ،وتهدف الى الاصلاح الخلقى والاجتماعى فى وقت معا ، فمثالها مايلى :

في العدد المتقدم من صحيفة « التنكيت والتبكيت » نشر النديم حكاية بعنوان : **« محتاج جاهل في يد محتال طامع »**

قال : احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد أحد التجار وطلب منه المبلغ • فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء •

الزارع : عاوز ميت جنيه بالفرط (يريد الربح) ياسيدى •

التاجر : فرط الميه عشرين كل سنة •

الزارع : اعمل اللى تعمله •

التاجر : شيل عشرين من الميه تبقى كام ؟

الزارع : هو أنا كاتب ! شوف يفضل كام •

التاجر : يبقى سبعين ٠

الزارع : يدوب كده

التاجر : دلوقت صار لى ميت جنيه ٠ ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة ٠

الزارع : اكتب وخد الختم أهو ٠٠٠

وفى وسط السنة ، قدم له الزارع :

عشرة قناطير قطن ، وعشرة أرادب سمسم ، وعشرين أردب قمح وثلاثين أردب فول ، وأربعين أردب شعير ٠

ثم جاء يحاسبه ، فكانت الحكاية هكذا ٠

الزارع : طلع لى ورقة الحساب ياسيدى ٠

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه ، وقمح بعشرين جنيه ، وشعير بعشرة جنيه ٠ تبقى كام ؟

الزارع : ماقلت لك من ديك المرة ما اعرفش أحسب ٠

التاجر : يبقى أربعين جنيه ٠ شيلهم من ميه وعشرين يبقى الباقى كام ؟

الزارع : من يعرف شىء يامه ٠٠٠

التاجر : الباقى تسعين جنيه ٠ وفرطهم عليهم عشرين يبقى مية وخمس عشر ٠ طالب انت كمان ثلاثين ٠ يبقى مية وستين ضم عليهم أربعين فرط ٠ تبقى الكمبيالة تكتب بمائتين وعشرة ونصف !

الزارع : هو ايه ، من الاصل سبع عشرات ، وعشرتين ، وجالهم ثلاثين وثلاثين ، سلمت منهم ثمن البتوعات اللى جبتهم ٠ يبقى لك دلوقت مية وعشرة بس ٠ والنص ده جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى ٠ ولا له دعوة بالارباح ٠

الزارع : آى دلوقت صحت الحسبة ٠

والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه ٠

يبقى لك ايه بعد كده ؟ ياحنيهين يا ثلاثة ٠ خدلك بهم جاموسة ٠ ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده يستريح ده من ده ٠

فقال النبيه للتاجر :

أما تتقى الله فى هذا المسكين ٠ أخذت محصوله وصار دائنا لك ٠ فلفقت له حسبة لا أصل لها ، وجعلته مديون ٠ فان حسبتك معه هكذا :

٧٠ بفائدة قدرها ٢٠ ٠/٠ فيكون المطلوب ٨٤ ٠ وقد أورد لك هذا القدر :

١٠ قنطار قطن سعر القنطار ٣جنيه فالمجموع ٣٠

١٠ أزادب سمسم سعر الارد٢/١ ٢ جنيه فالمجموع ٢٥

٢٠ أردب قمح سعر جنيه للاردب فيكون المجموع ٢٠

٣٠ أردب فول سعر جنيه فالمجموع ٣٠

٤٠ أردب شعير سعر نصف‌جنيه فالمجموع ٢٠

وبذلك يكون المجموع الكلى١٢٥ جنيه ٠

فيكون له عندك ٤١جنيه .فكيف جعلته مدينا بمبلغ ٥ر٢١٠ جنيه ٠٠ ؟

ان هذا هو السلب بلا خوف !

التاجر : ياخبيبى ٠ الزارى‌خمار ٠ وأنا اذا كان مش يعمل كده مش لازم ييجى تاجر بنكيربعد خمسة سنة

فقال النبيه :قد تغيرت هيآتنا، وتنبهت حكومتنا ٠ فهى تسعى فى عمل نظام يحفظ الحقوق ، ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين حتى لايقع بعد ذلك « محتال جاهل فى يد محتال طامع »

واليك أيها القارىء حكاية أخرى بعنوان :

سهرة الانطاع

وفيها عرض النديم لقرائه‌صورة قوم جلسوا فى دارهم ، وعلائم الهم والتفكير بادية عليهم،فدخل عليهم من سألهم عن تلك الهموم ، وأخيرا وبعد أخذ ورد ،عرف أن الذى أهمهم هو « عادة الكيف » التى شغلتهم عن كل‌شىء فى حياتهم الخاصة والعامة ولم تجعل لهم حظا من النشاط ،ولا رغبة ولو بسيطة فى معرفة أخبار الوطن ، سيئة كانت أمحسنة ٠ ومالهم ولكل هذا ؟

« ان هذا شىء يوجب وجع الدماغ ، ويشتت الفكر ، ولايشتغل به الا من ليس له شغل » !

عربى تفرنج

ثم فى حكاية (عربى تفرنج)أتى النديم بقصة ولد لأحد الفلاحين اسمه (زعيط) ، واسم‌أبيه (معيط) ، وقد ترك الوالد ابنه فى أول الامر يحيا حياةالفلاحين فى العزبة ٠ ثم أرشده

الناس الى ضرورة ارسـال ولده الى المدرسة ، فأطاعهم في ذلك ٠ فلما أتم علومه أرسلته الحكومة الى أوروبا ، ثم عاد الى بلاده بعد أربع سنوات ٠ وحضر أبوه لاستقباله في رصيف الاسكندرية، ولما وصل الابن اليها اندفع الاب يحتضنه ويقبله ، فابتدره الابن قائلا :

سبحان الله ! عندكم يامسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا !

معيط : امال يابنى نسلم على بعض ازاى ؟

زعيط : قول بون اريفى Bonne Arrivée وحط ايدك في ايدى مرة واحدة وخلاص ٠

معيط : لهو يابنى أنا بقول مانيش ريفى !

زعيط : موش ريفى ياشيخ ٠أنتم ياأبناء العرب زى البهايم ٠

معيط : الله يسترك يازعيط ٠ والله جا خيرك ٠٠ الخ

وكما تهكم النـديم من جهل الفلاحين في الريف ، واحتيـال التجـار الاروام المنتشرين في أعماق هـذا الريف ، وعجرفة الشبان الذين خرجوا من قراهم الى التعليم ، ثم عادوا الى قراهم بروح الاستهزاء بآبائهم وأمهـاتهم وأصحاب الفضـل عليهم في بلوغهم هذه الدرجة من التعليم ٠فكذلك سخر النديم من (رجال الادارة) وجهلهم وسوء تصرفهم في الامور ٠

ومن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ في عمله ، فأرسل له رئيسه كتابا يوبخه فيه ويسأله الاجابة ٠ فطلب المـأمور رئيس كتابه ، فكتب له جوابا سـخيفا في لغته ، سخيفا في معناه ٠ فلم يسترح المأمور الى هذا الكتاب ٠وأخيرا دله بعض جلسـائه على شاب عنده في الديوان ، لايتجاوز راتبه ثلاثة جنيهـات شهريا ٠ ولكنه يحترف الـكتابة ، فكتب الاجابة المطلوبة بلغـة صـحيحة ومفهومة ٠ فلما قرأها المأمور كاد يطير فرحا بنجابة الشاب وقال :

كيف يكون هذا بثلثمائة قرش ورئيسه بألف قرش ؟

فقال له الوكيل : هذا من أولاد الفقراء ٠ وليس له محسوبيـة على أحد الامراء ، ولا يعرف النفاق، ولا يعقل أفعال المحتـالين التى تقدمه الى ذوى الغايات !

وبعد أن فرغ النديم من اجراء (التنكيت) ، بقى عليه أن يتبع ذلك باجراء (التبكيت) فقال :

« أعظم مصيبة من رئيس كتاب لايعرف الانشــاء وجود مأمور لايحسن كتابة جواب من شــأنه أن يكون من أسراره الخفية » ٠

وأخيرا نقدم للقارىء من تهكم النديم هــذه الحكاية التى سخر فيها من شيوع الخرافات بين المصريين شــيوعا جعلهم يوصــفون بالجهل والغفلة ٠ والحكاية بعنوان :

خد من عبد الله واتكل على الله

جاء فيها

« سافر لاحد الاغنياء ولد، فلما طالت مدة غيبته توجــه الى بعض الرمــالين (ممن يضربون الرمل والودع) وقال له :

ــ خط لى الرمل وشوف نجمى ازيه ٠

فخط الرمل وقال له :

ماشاء الله ٠ انت طالعك سعود ، وأيامك ســعود ٠ شــوف النجم يخبر بأنك بتاكل وتشرب، وتقوم وتقعد ، وتفرح وتزعل ، وتركب وتمشى ، وتنام وتستيقظ، وتكسب وتخسر ٠ وفوقك سما وتحتك أرض ٠ وفى فكرك كلام وطالب حاجة وبدك تبقى غنى ٠٠

فغمز الغبى رفيقه وقال له :

شفت ٠ أنا ماقلتلكش يعرف كل شىء ٠٠ مين قال له على اللى بعمله دا كله ، النــجم يبين كل حاجه !

ثم التفت المسكين الى الرمال وقال له :

شــوف أبو الزلفى ابنى ماله غاب كده ؟

فقال الرمال :

دلوقت حصل سحاب كثير ،والنجم مايصحش فى السحاب ٠

فقال الغبى :

أظن نجم الواد ساقط ٠

فقال الرمال :

الظاهر كده ٠٠

فشنق الغبى نفســه بعمامته ونادى :

آه يابنى ٠ ياأعز الرجال يابو الزلفى !

فسمعته أمه فخرجت صارخة مولولة قائلة :

ايه جرى لابنى ؟

فقال لها أبوه :

المنجم خبر عنه انه مات !

فصـاحت وصرخت واجتمعت اليهـا النسـاء من كل فج ، وأحضرن الدف ، وابتدأن بالندب والعويل ، حتى قامت الناس على ساق . وجلس أبوه يتقبل العزاء ودموعه تسيل على خدوده !

وبينما هم فى شياط وعياط واذا بالولد داخل عليهم حاملا زكيبة الزوادة . فابتدره والداه ، واحتضناه ، وقالت أمه لأبيه :

شفت الرمال بتاعك الكداب ده ؟

فقال لها :

والله ياولية الراجل مالو دعوة . الراجل قال لى السحاب كتير ماسمعتش منه . والله برده كلامه حق ! »

انتهت حكاية النديم على هذا الوجه ، ثم عقب عليها كالمعتاد فى بقية الحكايات فقال :

(التبكيت) : أنظر الى الغفلة واستحكامها فى العقول السخيفة ، وكيف رأى هذا الغبى أن الرمال كذب فيما يفتريه . وحضر ولده من سفره ، ولم يرض أن يكذبه ، وحمل عدم صـدقه على وجود سحاب . وتأمل قوله انه يعرف كل شىء بعد كونه يخبر عن أشياء من ضروريات البهيمة فضلا عن الانسان !

ان الناظر فى سخرية النديم لا يسعه الا الحكم بأن المجتمع المصرى فى زمانه كان يعانى (الجهل) الى درجة تذكر بما كان عليه المصريون تحت الحكم العثمانى ، وهو الحكم الذى صور لنا جهله بوضوح كتاب «هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » الذى مر ذكره .

والمؤرخ الادبى ينظر الى صحافة النـديم فى (التنكيت و (التبكيت) على انها الارهاص الذى يسبق المعجزة .

ونعنى بالمعجزة هنـا ظهور القصة المعروفة فى الادب المصرى (بحديث عيسى بن هشـام) . فقد كتبها محمد المويلحى لينتقد بها المجتمع المصرى فى كثير من المواضع والعيوب التى عابها النديم فى الميدان الصحفى .

وتلك قضية من قضايا الادب الحديث لها مكان غير هذا المكان أو كتاب غير هذا الكتاب .

وهنـــاك صـــفحة أخرى من صفحات السخرية فى أدب **النديم**، هى تلك الصـــفحة التى كتبهـا الرجل فى نقد شخصية كبيرة من شخصيات البلاط العثمـانى فى عهـد السلطـان عبـد الحميد . ونعنى بها شخصية (**أبى الهدى الصيادى**) ، وهو شيخ من شيوخ الدين كان قد استولى على قلب السلطان عبد الحميد، وملك عقله، واستأثر بحبه ، على النحو الذى سنعود اليه عند الكلام عن **ابراهيم المويلحى** .

ذهب **النديم** الى الاســـتانة ،وتعـرض له الشـيخ **ابو الهدى الصيادى** ، ولكن ماكل طير يؤكل لحمه كما تقول العامة عنـدنا فى مصر . فقد كان **أبو الهدى** ريحا وكان **النديم** اعصارا . وقد انبرى **النديم لابى الهدى** فكتب فيه كتابا سماه « المســامير » نكتفى ببعض سطوره على وجه التمثيل :

قال **النديم** فى وصف ميـلاد **أبى الهدى** ، وقد سماه فى كتاب المسامير « بأبى الضلال » :

« حين سبق القضـاء المحتوم بتكوين الضليل من هذا المشئوم ، غابت النجوم بعـــدما أشرقت ،وأرعدت السماء وأبرقت، وزلزلت الارض زلزالهـا ، وقال الانسان مالها ، وارتج الكون رجة ، وصار العالم فى ضـجة . وقضى الله ألا تحمل أنثى فى تلك الليلة من الجن أو الانس ،حتى ينفرد **ابن الصياد** بهـذا الطالع النحس . ثم نادى مناد بين الارض والســماوات ،يسمع صوته ولا ترى منه الذات :

أيتها الامم الحاضرة ، والعوالم الناظرة ، استعدوا للبلايا وهجوم الرزايا ، وحـــدوث الـكروب والهموم ، والشـدائد والغموم ، فقد آن ظهور مثير الفتن ،وغارس الاحقاد والاحن ،وموغر الصدور، وجالب الشرور ، ومظهر الفساد، ومضل العباد ، ومفســد مذاهب الائمـة ، ولاعن الاشراف وعلمـاء الامة ، وعـدو محمـــد وعيسى ، وخصـيم ابراهيم وموسى .. ثم قال :

عزوا الهدى وشريعـة الاسلام	**عزوا العـلوم وحكمة الاعـلام**
عزوا النبى وأهـله فى سـنة	**عزوا الصحاب وجامعى الاحكام**
عزوا الائمـة فى نفـائس كتبهم	**عزوا الهـداة وثلة الاقـلام**

السخرية فى أدب المويلحى

كان **ابراهيم المويلحى** صاحب جريدة أدبية مشهورة اسمها « جريدة مصباح الشرق » . وقد كان الطابع الادبى يسود هذه الصحيفة . وذلك أن شخصية صاحبها **ابراهيم** كانت الى الادب أميل منها الى السياسة . وكان **ابراهيم** من الكتاب الصحفيين ذوى الاساليب الممتازة . وكان لادبه عشاق كثيرون فى مصر والشرق منهم **الشيخ عبد العزيز البشرى** ، الذى حدثنا أن جريدة مصباح الشرق كانت بها صفحة لنقد العظماء والاكابر فى الامة المصرية . وطريقها الى هذا النقد هو « التصوير الكاريكاتورى » بالحروف والالفاظ ، لا الخطوط والالوان . وكان الناس ينتظرون مساء الخميس من كل أسبوع ظهور (**المصباح**) بفارغ الصبر خشية أن يكون فيها نقد موجه الى بعضهم ، أو سخرية قصد بها واحد منهم . غير أن الذى بقى لنا من أعداد (المصباح) ليست فيه صورة واحدة من الصور التى حدثنا عنها البشرى فى كتابه (المرآة) .

ولكن فى دار الكتب المصرية نسخة فريدة من كتاب قديم ننسبه الى ابراهيم المويلحى ، وعنوانه « ما هنالك » اذا اطلع عليه القارىء وجده سخرية مريرة بالبلاط العثمانى فى أيام السلطان عبد الحميد . وكان هذا السلطان قد استدعى اليه بالاستانة **ابراهيم المويلحى** ، فصدع الاديب بالامر ، وعاش الى جانب السلطان عشر سنوات شهد فى أثنائها الفساد فى الاخلاق ، والاختلال فى الاحوال ، مما أدى فى النهاية الى انهيار الدولة العثمانية ، وزوال السلطنة التركية .

وقد اشتمل كتاب « ماهنا لك » على ثلاث عشرة مقالة كتبها فى وصف أحوال السلطنة العثمانية ، والقصر السلطانى ، والدوائر التى كان يحتوى عليها هذا القصر ، كدائرة الامناء ، ودائرة الحريم وغيرهما . وفى الاخيرة من تلك المقالات حدثنا الكاتب عن (المشايخ) الذين استولوا على عقل السلطان عبد الحميد ، ذلك المخلوق العجيب الذى قضى العمر كله فى الوساوس والهواجس ، وأضاع من حياة الدولة العثمانية ثلاثين سنة فى الجرى وراء ذلك الدجال المحتال الذى يسمى (**ابا الهدى الصيادى**) . وهو أحد مشايخ أربعة دجالين محتالين ، وهم **السيد ابو الهدى الحلبى الصيادى** ، **السيد احمد أسعد المدنى** ، **والسيد فضل المكى** ، **والشيخ محمد ظافر المغربى** .

زعم له هؤلاء الاربعة انهم يعلمون الغيب ، وأوهموه أن الامم العربية كلها فى أيديهم ،وزينوا له حمل هذا اللقب القديم عند المسلمين ، وهو لقب خليفة ٠ وفتح المسكين صدره لهم، وصغت جوارحه اليهم ، حتى أعموه عن الحق ، وحيل بينه وبين معرفة الحقيقة فى كل شىء ٠

وانظر الى هذه الطريقة التى دخل بها أولهم ، وهو **ابو الهدى الصيادى على السلطان عبد الحميد:**

قيل ان هذا السلطان رأى رؤيا قصها على أحد رجال البلاط ، فدله هذا على **الشيخ أبى الهدى** ،فأحضره السلطان وقص عليه الرؤيا ، ففسرها الشيخ تفسيرا أعجب به السلطان ٠ وبعد أيام قال الشيخ للسلطان :

قد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أمس فى الرؤيا ، فأمرنى أن أبلغ عنه جلالة الخليفة كلاما ، وأمرنى أن يكون ذلك منى اليه من غير واسطة ٠

فاهتزت السراى السلطانية لهذا الخبر ٠ وكانت الدولة تستعد للحرب الروسية ٠ فزاد جلالة السلطان فى عيونهم قدرا للاتصال بالحضرة النبوية الشريفة ، وفرح السلطان ، وأمر الشيخ **أبا الهدى** أن يبلغه بالواسطة ما أمره به النبى صلى الله عليه وسلم ٠ فامتنع الشيخ وقال :

ــ انما أمرت أن أبلغ ذلك مشافهة ٠

فقيل له : ان جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية ، وأنت لا تعرف اللغة التركية ،فكيف يمكن أن تخاطبه بلا واسطة ؟ فأصر الشيخ على ذلك ٠ وفى الغد أمر السلطان أن يكون المترجم (**بهرام أغا**) ، فأبى الشيخ مرة ثانية ، وقال لا أفعل الا ما أمرنى به النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه متهلل بالبشر وقال : قد جئت لابلغ السلطان بنفسى من غير واسطة ، فأنا الآن أتكلم التركية ٠ فسألوه : وكيف استطعت ذلك ٠ فقال ان النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فمى ، فتكلمت بالتركية ٠ فلما سمع السلطان بذلك أحضره وسمع منه الرسالة النبوية ، ولا يعلم أحد عن هذه الرسالة شيئا ما الى الآن ٠

ومن ذلك اليوم أصبح الشيخ أثيرا عند السلطان ٠ بل قل أصبح الرجل الاول فى البلاط الحميدى ٠

وطفق المويلحى يسخر من الشيخ أبى الهدى وسائر المشايخ بالقصر السلطانى • ومن ذلك :

« أن **الشيخ ظافر المغربى** لما رأى أن الاعتقاد قد رسخ فيه بالسراى توسع فى الامر، ومن ذلك انه كان جالسا فى الحضرة السلطانية مع **السيد أبى الهدى** ، وفى أثناء الحديث قام من فوره ،وقال بهيئة الخضوع والخشوع :

« على الخالى وعليكم السلام ورحمة الله ! »

فسأله السلطان بعد أن قام **الشيخ أبو الهدى** عن هذه التحية ، فقال : ان الخضر عليه السلام قد مر بنا وسلم علينا • فرددت عليه السلام •

وخرج **الشيخ ظافر** من حضرة السلطان فالتقى باخوانه من المشائخ ، وفيهم **أبو الهدى** ،فعنفوه وأنبوه وبكتوه وتوعدوه ان عاد الى مثل ذلك • فقال لهم :اعذرونى فقد أخذنى الحال !

ترى لماذا عنف الشيوخ واحدامنهم ــ هو **الشيخ ظافر** ــ على ذلك ؟ لا لانه كذب واحتال على السلطان ، ولكن لانه أوشك أن يكون أكثر منهم سلطانا على نفسه،وهم لا يريدون ذلك •

الى هذا الحد سخر **المويلحى** من مشايخ **السلطان عبد الحميد** • وهى سخرية بنيت على ذكر الوقائع التى صدرت عن أولئك الشيوخ • وأتى المويلحى فسرد هذه الوقائع بهذه الطريقة التى تضحك الناس من **السلطان عبدالحميد** وتضحكهم كذلك من **أبى الهدى الصيادى** وزملائه •

ولم يكد يسمع **السلطان عبدالحميد** بنبأ هذا الكتاب الخطير حتى أصدر أمره بمصادرته واحراقه ،ولم يسع **المويلحى** الا الانصياع لهذا الامر ، فجمعت النسخ وأرسلت سريعا الى الاستانة ، وتولى البلاط العثمانى احراقها •ولكن نسخا قليلة تسربت الى دار الكتب ، منها هذه النسخة التى رجعنا اليها •

***

وثم صفحة أخرى من صفحات الادب الساخر فى مصر ، تتصل بالمساجلات التى كانت تدور بين **الشيخ على يوسف** صاحب المؤيد، **وابراهيم المويلحى** صاحب مصباح الشرق •

حدث أن التقى **محمد المويلحى** نجل **ابراهيم المويلحى** بشاب من (أبناء الذوات) فى القاهرة ،واسمه **محمد نشأت** •• **وكان**

لفاؤهما فى حانة من الحانات اسمها (حانة دركوس) وتعدى **محمد المويلحى** على **محمد نشأت** ،وسب أباه ، فما كان من الشاب الثرى الا أن لطم **محمد المويلحى** على خده · وذاع نبأ هذه اللطمة في الاوساط الادبية بمصر فى ذلك الوقت ، وكان للمويلحى الكبير والمويلحى الصغير أعداء كثيرون · منهم الشاعر المصرى المعروف (**اسماعيل صبرى**) ·فاتخذ من هذه اللطمة موضوعا للسخرية والتندر · وكذلك فعل الكثيرون من الادباء فى مصر وقتئذ

ونشرت المؤيد هذه الاشعار والمقالات · وأطلقت على العام الذى نشر فيه هذا الادب الهجائى ،وهو عام ١٩٠٢، اسم «عام الكف»!

وانتقم المويلحى بعد ذلك من صاحب المؤيد فى حادث زوجته السيدة صفية السادات ، وطلب أبيها طلاقها منه بدعوى انه ليس كفؤا لهذه الزوجة · وكان ذلك عام ١٩٠٤ · ونشرت صحيفة « مصباح الشرق» كثيرا من المقالات الساخرة فى هذا المعنى ، وأطلقت على المقالات التى نشرت يومئذ اسم « عامل كفء » ·

أما الشاعر **اسماعيل صبرى** فقد نظم فى هذا الموضوع اثنتى عشرة قطعة نقتطف من الاولى على سبيل المثال :

اذا فتح العداة عليك حربا — وخفت بوادر المتحزبينا
فقل وارفع عقيرة من ينادى — فلا يجد المؤازر والمعينا
أعرنى بابن ابراهيم صدغا — أخوض به غمار الصافعينا
فان هو قد أعارك ما ترجى — رأيتهمو أمامك هاربينا
كما هرب الفتى الصفاع يوما — أمام الكاتب بن الكاتبينا

ومن الثانية تحت عنوان « الاسلحة الجديدة » :

قلت لنجل الصافعين احترز — من صدغ ابراهيم يوم الكفاح
ولا تمازح ان رأيت ابنه — شاكى صدغ لايجيب المزاح
فقال لى : ان كان كفى معى — ما دمت حيا لا أهاب السلاح

ومن الثالثة :

ياصريع الاكف صدغك أمسى — خلقا مثل طيلسان ابن حرب
أنت فى الحان فى أمان وسلم — وهو فى معمعان حرب وضرب

ومن الرابعة :

قفاك محمد نعم السلاح — اذا التف بالعسكر العسكر
وصدغك ان نقر الناقرو — ن عليه يرن ولا يكسر

ومن الخامسة بعنوان (النصيحة) :

يابن الاولى رسخت أحلامهم ورست
اذ الاكف مجانين مهاويس
لا تدخل الخان والصفاع ثائرة
حتى تقام حواليك المتاريس
وقل لصدغك يستقبل وفودهمو
بالباب انهمو قوم مناحيس

وأما القطع الباقية فهى « مناجاة » بين الاب وابنه ومحاورة بينهما فى نفس المعنى المتقدم •

أبو نظارة

امام السخرية في العصر الحديث

لا نستطيع أن نتحدث عن السخرية فى القرن الماضى دون أن نذكر امام الصحافة الساخرة غيرمدافع ، ذلك الفتى الاسرائيلى الاصل « **يعقوب بن صنوع** » ،المعروف فى التاريخ المصرى باسم « **أبى نظارة** » • وقد كان هذاالفتى كذلك من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، وممن نفخ فيهم هذا الزعيم الشرقى الخطير من روحه ، ودفعهم بيده ، ورسم لهم طريق الكفاح عن الشعوب الشرقية المستضامة ضد حكامها الظالمين ، وضد الاستعمار الاوروبى البغيض ، فمن تلاميذ السيد جمال الدين من اختار لنفسه الصحافة الجادة ، مثل محمد عبده وغيره • ومنهم من اختار لنفسه الصحافة الهازلة مثل أبى نظارة هذا ، ومنهم من جمع بين الامرين مثل النديم •

وقد عاش « ابن صنوع » يسخر من الخديو اسماعيل ، وينال منه ويحرج صدره بالنقد حتى اضطر اسماعيل الى اصدار أمر بنفيه من مصر الى فرنسا ، حيث عاش معظم حياته الصحفية •

والمهم أن **يعقوب بن صنوع** سلك فى سبيل سخريته طريقين ، هما طريق الصحف ،وطريق المسرح • ونجح فيهما نجاحا عظيما أوغر صدور حاسديه ، وأخاف منه الخديو اسماعيل ، فلم يجد بدا من نفيه كما رأينا •

أصدر **ابن صنوع** أول عدد من مجلته الفكاهية ، المسماة « ابو نظارة زرقاء » بتاريخ ٢١ربيع الاول سنة ١٢٩٥ هـ ، وبه فصل بعنوان « حكم قراقوش » « وهو لعبة تياترية حصلت فى قبلى فى أيام الغز سنة ١٢٠١هـ ،وأشخاصها السنجق ظالم أوغلو وطرطور أغا القواص ، وأبو نفوسة شيخ البلد • ويصف لنا هذا الفصل الطريقة القاسية التى كانت تجمع بها الضرائب من الفلاحين ، اذ يطلب السنجق الى أبى نفوسة شيخ البلد أن يجمع العوايد والمال ، والاعانة والمكايلة ، والسخرة ، فيرد أبو نفوسة قائلا :هو انتو خليتوفى البير بكرة ولا سلبه! والثور، وحياة السنجق ، بعناه بربع الثمن •أجيب من الهوا المحابيب (أى النقود) للعوايد ، والمجابلة، والدواهى الحارة دى كلها الخ »

وتوالت أعداد (أبى نظارة زرقاء) وهى تبين مظالم العهد تارة ، وتذم الجهل وتمدح العلم تارة ، وتوضح فضائل الحرية وتحارب التعصب الدينى تارة ، وهكذا . ولما رسخت أقدام هذه المجلة الفكاهية فى الميدان ، وأحبها الجمهور المصرى اذ ذاك ، ووزعت من أعدادها الآلاف فى الوقت الذى كانت فيه أكبر الجرائد انتشارا لا تبيع من أعدادها الا نحو الخمسمائة على أكثر تقدير .. لما حدث كل ذلك لجريدة **يعقوب بن صنوع** رأى الفرصة سانحة لتوجيه النقد اللاذع للخديو اسماعيل .

وبنى الرجل سياسته فى هذه الجريدة على التقريب بين المصريين والدول الاوروبية كلها ، ما عدا انجلترة التى تنظر منذ بداية القرن الماضى الى احتلال مصر وتتحين كل فرصة ممكنة لبلوغ هذا القصد .

وبدأ أبو نظارة من ذلك الحين يصف الظلم الذى يقع على المصريين ، وهو ظلم يصور عهد اسماعيل ، ولكن أبا نظارة كان يخفى ذلك بقوله فى آخر كل محاورة من محاوراته :

« يارب العالمين ، احفظ لنا عزيز مصر لكونه يحب عبادك ، ويسعى فى سعدهم » (١) .

ومما يدل على أن **ابن صنوع** كان يقصد الخديو اسماعيل بهذه المحاورات التى أشرنا اليها ، أمور كثيرة نكتفى بواحد منها على سبيل المثال :

شاع فى أيام اسماعيل انه كان اذا غضب على أحد من أصدقائه دعاه الى القصر وقدم اليه فنجانا من القهوة فيه سم ، فما يكاد هذا الرجل يصل الى بيته حتى يخر صريعا وتخفى الاسرة مع ذلك سبب موته .

شاعت هذه الاخبار وأمثالها فى أيام **اسماعيل** ، فأشار اليها **ابن صنوع** اشارة خفية فى بعض محاوراته حيث يقول :

« أبو الشكر : يامرحبا بك يابو نظارة » !

ابو العينين : تفضل اقعد ياعم وانجلى ..

---

١ ـ العدد السادس فى ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٥ ، نقلا عن كتاب ابو نظاره للدكتور ابراهيم عبده . وقد خصصنا هذا الكتاب بالاشارة كمرجع من المراجع لسبب واحد ، هو ان صحف ابى نظارة لاوجود لها تقريبا فى مكتبات مصر ولندن وباريس . ولولا ان الدكتور ابراهيم عبده عثر عليها مصادفة عند احدى بنات يعقوب بن صنوع ، لما عرفها احد من ابناء هذا الجيل .

خلاط : تريد تشرب ايه ؟

أبو الشكر : أبو نظارة قتيل البيرة !

أبو العينين : لا ـ الراجل يحب القهوة .

أبو نظارة : لا ياخويا ـ القهوة ماأحبهاش لانها خطرة فى الايام دى . واللى يشرب منها فنجان واحد يبرم !

وطفق **أبو نظارة** يهاجم فى مجلته كذلك الوزراء والامراء والموظفين من الاتراك والاوروبيين، وذلك فضلا عن مهاجمته الخديو . وكان لايذكر الخديو بالشكر والثناء الا فى المواضع التى لامحل فيها للشكر أو الثناء . وكأن هذه الطريقة الاخيرة كانت هى الاخرى من الطرق التى أخذ يسخر بها من الخديوى . وكان يشير اليه دائما فى المحاورات باسم « شيخ الحارة » كما يشير الى الفلاح المصرى باسم « **ابى الغلب** » ويشير الى نفسه باسم « **السيد الحبيب القريب** » ويشير الى الامير حليم عم الخديو اسماعيل باسم « الكريم الحليم » وكان هذا الامير أمل المصريين فى عهد اسماعيل وتوفيق .. والظاهر ان **أبا نظارة** كان يدعو لهذا الامير فى مجلاته . وهذه علة الاكثار فى مجلة « **أبى نظارة زرقاء** » من عبارة (ربنا كريم وحليم) فى كل مناسبة من المناسبات المختلفة . وبقى المصريون على ذلك حتى مات الامير حليم ، ثم تولى العرش عباس حلمى الثانى

نفى (**ابن صنوع**) الى باريس سنة ١٨٧٨ . وهناك أصدر طائفة كبيرة من الصحف هى فى الحقيقة أسماء لصحيفة واحدة . وقد اضطر اضطرارا الى هذه الطريقة لامور كثيرة ، من أهمها محاربة الخديو اسماعيل ،ومجلس النظار المصرى ، ورجال الاحتلال البريطانى ، لهذه الصحف مهما كان اسمها أو لونها .

ومع هذا وذاك فقد احتال **ابن صنوع** بكل الطرق الممكنة حتى نجح فى نشر جريدته سرا فى ربوع مصر والشرق . وهال ذلك اسماعيل فى نهاية الامر ،فكان لا يملك نفسه من الغضب حينا ، وكان يلجأ الى الحيلة أحيانا . ومن ذلك انه كتب الى **يعقوب بن صنوع** فى باريس يدعوه الى العودة الى مصر، ويمنيه بالرتب ونحوها ، فما كان من **يعقوب** الا أن أجاب عن ذلك بقوله :

انى أفضل أن أعيش فى المنفى على أن أكون غنيا فى خدمة طاغية ! »

والعجيب أن يعقوب بن‌صنوع لم يكتف بذلك ، بل نشر هذا الرد فى بعض أعداد مجلته‌ضمن صحف أخرى مصورة ، وبعث بها الى الخديو اسماعيل‌ليقف بنفسه على طريقة من الطرق التى ينشر بها ابن‌صنوع‌جريدته سرا فى العالم الشرقى ، فجن جنون اسماعيل ولم يجدحلا مع هذا الفتى الاسرائيلى العجيب ٠

وما أكثر تلك الطرق التى‌ابتدعها ابن صنوع لاذاعة صحيفته ، وما أكثر الاسماء‌التى اخترعها كذلك لهذه الصحيفة ، حتى يوهم أولى‌الامر بمصر انها صحيفة جديدة ، فمرة يسميها (مجلة أبو نظارة زرقاء)وأخرى يسميها (النظارات المصرية) وثالثة يسميها (أبوصفارة) ، ورابعة يسميها (الحاوى) وهكذا ٠ ٠

وقد صدرت هذه الصحيفة‌فى ٧ أغسطس ١٨٧٨ باسم « **رحلة أبى نظارة زرقاء** »

وجاء فى‌عددها الاول‌محاورات‌منها

« شيخ الحارة » — (وهو‌الخديو اسماعيل) : التوبة‌من دى النوبة ، اشفق يا أبونظارة‌على عمك شيخ الحارة٠جريدتك ضربها قاسى ، أخاف منها على‌راسى ، دى حطت فى قلبى الرعبة ، بأقوالها المخيفة‌الصعبة، اذا رفعت عنى الجريدة ، أرجع لطرايقى الحميدة ٠

أبو نظارة — انت عمرك‌ماتتوب ، ولو رجموك بالطوب٠ ده أنت أمرك عند الجميع معلوم٠ بقى‌كيف أشفق‌عليك‌يامغموم٠ والله ما أرحمك ، يا مطعم‌الناس‌للسمك ٠ يا خبيث يا مسموم الريق ٠ ياقاتل الامير الصديق ٠

ابوالغلب (الفلاح المصرى) : ماتشفجش يابو نظارة . الشفجة فى الغاير ده خسارة . ده جتلنا من الظلم والجور ، ونازل علينا زىماينزل‌السواج‌عالتور ٠ جبر يلمه ، ويعتقنا من ظلمه ! »

وفى وصف الخراب الذى عم‌البلاد فى أيام اسمعيل ، وادعاء هذا الامير بأن الاجانب فى مصرهم السبب الاول والاخير فى‌هذا البلاء العظيم ، يأتى (**ابن‌صنوع**)بمحاورة من محاوراته لتكذيب كل هذه المزاعم من جانب الخديو : وعنوان المحاورة هكذا :

« **الرئيس** : (يوجه نظرة الى الاعضاء ويتف وينف ويقول) :
سعادة ناظر المالية ، ارسل الينا افادة رسمية باللغة الانجليزية ، لأجل الضرائب الميرية ، لسداد الديون المصرية، وتحصيل الاموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية ، ودفع المتأخر من الماهية ، والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الحبية، يعامل بالقوة الجبرية ، وتباع اطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية ؛ وافندينا قر على هذه القضية. فكلا منكم يبدى رايه بالحرية. ولا تخافوا من شيء بالكلية .

أبو جموس : ان كانت المادة نفاق ، فاحنا نقر بالوفاق ، وان كانت حرية ، نبدى أفكارنا القلبية .

الرئيس : شوف ياشيخ عبدالعال . أنا لاأعرف النضال ولا المحال ، وأنا أحب الحرية ، فتكلم بخلوص نية ، وسلامة طرية .

أبو جموس : المادة مش حاوجه مداولة ، ولا كتر محاولة ، احنا قبلنا كل النوايب ، اللى مرت علينا مع جميع المصائب. وبعنا ماورانا وقدامنا . ولا فاش حاجة أمامنا . ده احنا عشمنا من سى فلسن • يريد المستر ريفرز ولسن ناظر المالية فى الوزارة المختلطة) والجماعة الاوروباوية ، أن يخلصونا من العبودية . لما سمعنا بأنهم ناس طيبين ، يكرهو الظلم المبين ، وبسلامتهم مافلحوش • ربنا يغنينا بفرجه العميم ، ويولى علينا راجل كريم حليم (يريد الامير حليم أصغر أولاد محمد على) . ويعتقنا من جور شيخ الحارة اللعين . اللى سخمط وش الحمارة طين . وأنا وحياة راسك مافيش ولا كيلة غلة ، ولا جاموسة ولا عجلة ؛ ولا قرص جله . فيكفانا ظلم وخسارة . والله أعلم بما فى الضمائر وما تنطوى عليه السرائر .

الرئيس : وانت قولك ايه ياشيخ محمد ؟

الشيخ محمد : احنا لانعرف مدير مالية ، ولا ناظر خارجية. دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الاعوج ، وهم لابسين بتوع طول اسمهم برانيط .. ويدردعوا نبيذ كثير ويتغدوا بلحم الخنزير أما احنا ناس هوارة ، نعرف طيب فى قناية الفرس والحمارة ، واعرف سعادتك اننا ماقبلنش زيادة ضرائب ، ولا كتر مصايب

وعاوزين نخفف المربوط ، ولا تسأل عن فلس ولا مربوط ، وان انفلق شيخ الحارة، مانديولا بارة .

والا ـ ان كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنيين . وان كنتم عازرين النياشين بتوعكم خدوها ، والفلاحين اهى قدامكم كلوها .

لان بلدنا وحياة رسك بعد ما كانت حايزة كمال اللطافة ، اصبحت من كتر الظلم كوم شقافة .. والله يجازى ابن الحرام . الخ » .

وفى تلك المحاورة السابقة يقف اعضاء البرلمان المصرى موقف المعارض لهذه الضرائب التى يفرضها اسمعيل من حين الى حين . وبهذه الطريقة نفسها اوغر ابن صنوع قلوب العسكريين كما اوغر صدور المدنيين .

وحين علم (ابو نظارة) ان الخديو اسمعيل نزل عن املاكه لتسديد الديون ، سخر من حالته سخرية لا تخلو من لذع وشماتة، وذلك فى زجل من أزجاله . يقول فيه على لسان الخديو :

ايه دى العبارة المتعوسه	صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فى مغروسة	دى وقعتى وقعة خرفان

شرم برم حالى غلبان

ما اعرفش ايه من دا الطالع	مقصودهم ابقى الهم خالع
واطلع كدا مغتاظ والع	يا محلا لما اصبح عريان

شرم برم حالى غلبان

دول سلطوا المستر فلسن	اكمنو مجدع وملسن
لعن خاشى بركات ورسن	ما خلاليش فى الدار امان

شرم برم حالى غلبان

وجابولى عمى الشيخ نوبار	وعملوه رئيس لكبار
يحمر لى عينه زى النار	وانا قاعد قصاده جربان

شرم برم حالى غلبان »

ويمضى يعقوب بن صنوع فى مهاجمة اسمعيل بعد اذ وصل الى هذه الحال السيئة من الخوف ومن الذل . وبعد ان حاول ارضاء الشعب المصرى بطرق كثيرة ، منها اسناد الوزارة الى (شريف) الذى كانت تحبه الطبقة المستنيرة من هذا الشعب ويكتب يعقوب فى صحيفته رسالة بعنوان :

• من أبى نظارة معظمة فى مصر
الى أبى نظارة زرقا بباريس

وفيها :

« لا تظن الوزارة الجديدة يطول عمرها . بل تستعفى عن قريب . لان مازال الجندى (يريد اسمعيل) يلعب بديله كسوابقه ، واوامر يصير اجراءها بدون علم أبو شرف ، وباباراغب، والظلم والجور على حاله . وصدق من قال :

لا تفرحوا لمن يروح لما تشوفوا مين ييجى .

شوف ياعزيزى :

اذا رب العالمين عين سيدنا موسى ناظر مالية ، وسيدنا عيسى ناظر خارجية ، وسيدنا محمد ناظر جهادية ، كن ميقن أن فرعون يعمل شغله بسحره ويضحك عليهم . وكلما مسكوه بسرقة وقالوا له : جزاء الحرامى قطع يده ، يقول لهم : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ، توبة من دى النوبة . لذلك أقول ـ وهذا رأى جميع أبناء مصر ـ انه اذا مااسعفناش مولانا الاعظم بحلمه (يريد الامير حليم) تحصل أشياء عمرها ما حصلت لان العالم هنا يئسوا وقطعوا الرجا والدنيا صبحت سودا امام عيونهم ، ولا حد يشفق عليهم » ...

ونريد أن نختم الكلام عن سخرية ابن صنوع بالخديو اسمعيل بقطعة من لعبة تياترية له بعنوان :

شيخ الحارة

وفيها يصور لنا الخديو اسمعيل بصورة رجل حزين تكاثرت عليه الهموم ، وأصابه الارق والسهاد بسبب ذلك . فهو لايذوق طعم النوم او الراحة ولا يعرف كذلك طعما للاكل و الشرب ، ولا يستجيب لدواعى اللهو أو المرح . وقد سهر فى ليلة من الليالى حتى طلعت الشمس فى اليوم التالى ، واخذ يحدث نفسه اذ ذاك بهذا الحديث :

« ... راحت عليك يابو السباع . الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة . ده كان يوم نحس . وانا كان مالى وكان مال الشبكة دى اللى زى الطين . المكتوب على الجبين تراه العيون . نعمل ايه فى طمع الدنيا ؟ ادينى صبحت أشقى

مخلوقات الله . والخوف قاتلنى . مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى وبرضو مرعوب .. ولما اسمع خـنـدجى على اتنزع وقلبى يطب ، واقول فى نفسى : أهم ضباط الجهادية ، وتلامذة المـدارس ، واولاد البـلد ، والفلاحين جايين يتنقموا منى ، ويقبضوا روحى ، وياخدوا مفاتيح السـهاريج ، وينهبـوا الاموال اللى لميتها بغاية التعب والمشـقة ، ويولوا عمى الحنيم شيخ حارة .. بلا هلس .. ده انا سيدهم فى المكر ، ولا اخاف من ملك الشياطين . أما الجماعة مستحلفين ليه بقطعة حلقـة صـنعة . مايطلعش من يدهم حاجة . البصاصين كتـير . ومأمور الضبطية جدع . ولى حبايب اصدقاء بين الضـباط والتـلامذة . وبيعرفونى بكل اللى يحصل يومى . أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جورنال ثانى وقال فى حب الوطن . أهو زى الـكلب اللى ينبح . خليه يعوى ..

آه ياسماعيل : انت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده .. انما قلبك بيرجف . وضميرك فى قلق . أهو الليل بيفوت بطوله عنيك مابتذوق النوم . أدينى سامع تشخير الاغاوات .. يابختهم دول مبسوطين . ولاهم عارفين ان الدنيا بتعمل بهم ايه . والنـاس اللى مايفهموش الصـورة ايه يقولوا عليهم دول مسـاكين ، لكونهم محرومين من لذات الدنيا . آه يا مغفلين . والله ماحد محروم غيرى انا . لكونى مابستلذ لا باكل ولا بشرب من خوفى ان خدامينى يسمعونى . ولما اخرج من البيت كلما اعدى على شارع واجد فيه زحمة يبان لى ان يوم القيامة جه . وانظر يمين وشـمال . ومن لحظة للحظة يتراءى لى ان العالم رايحة تهجم على عربيتى وتهلكنى .. ياخى لا .. والله انى مجنون . هو انا فى اوروبا ؟ احنـا فى مصر . واولاد مصر يخافوا من خيالهم . دول ناس ظرطه من غير مؤاخذة تطيرهم ، ولا ما كنتش خلصت من أيديهم يوم قيامة الضباط .

آدينى باعمل بكيفى . ولاحد قادر على . غبار طلعت عليـه خناقة وشقلبتـه رغمـا من أنف مشـايخ حوارى الافرنج .. وفلسـن ، وبلاتور دسيتهم فى جيوبى . وبأذن الله انتصر على (شيخ التمن) ـ يريد سلطان تركيا ـ وأحطه هو ووزيره فى الجراب .

اما اللى غايظنى أنا هو ابو الحلم — يريد الامير حليم — ، لان كل الشعب هنا بيحبه . والاماكانوش يكتبوا لشيخ الامن ولاعظم ملوك الافرنج ،ويشتكوا من جورى وظلمى ، ويقولوا عاوزين لهم شيخ حارة كريم حليم . الله ينعلكم يا أهل مصر يعنى أنا عملت لكم ايه ؟ انا شاريكم من عبد العزيز (يريد السلطان عبد العزيز سلطان تركيا) . ودايما السيد يتحكم فى عبده كما يشاء . فلوسكم دى فلوسى . وانتم ملزومين تخدمونى بالسخرة . والا يكون الفرق بينى وبينكم ايه ؟

اما الفلاحين بيموتوا من الجوع . ان شاالله ما فضلوا . الفلاح ماهوش بنى آدم . الفلاح بهيم وربنا خالقه للتعب زى الثور . والثور انفع منه . لانه بيعطينى لحمه آكله . اما الفلاح فانه نتن وهو حى . وبعد موته القبر فيه خسارة . لو كان هنا الخنزير أبو نظارة .. كان يقول لى القبر خسارة فيك يافرعون ، لكونك بتظلم خلق الله . انما ابو نضارة نفيناه من حارتنا . وآهو قاعد بيشحت فى بلاد فرنسا .

آهى الشمس طالعة . وانا لسه مانمتش . آه من عيشتى ما امرها . والعمل ايه ؟ الشيطان يدبرنى ! » .

***

وفى المنظرين الرابع والخامس من اللعبة التياترية السابقة بعنوان « شيخ الحارة » أحب أبو نضارة أن يحض المصريين على الثورة على اسمعيل ، وتخيل لهم ثورة بالفعل ، واجرى الحديث فى هذين الفصلين السابقين على لسان كل من : شيخ الحارة (اسمعيل) ، وتوفيق افندى (الخديو توفيق) وتحسن وتحسين ورياض (حاملين أكياسا على أكتافهم ، واوراقا تحت آباطهم) ووراءهم عدد من الموظفين وشيخ الازهر :

« رياض : اتلحلحوا يا جماعه مانتوش سامعين الزعيق من بعيد !

الجميع يرمحوا .

مشايخ الازهر : (على بعد) : ربنا كريم حليم يابو نضارة . الله ينصرنا على شيخ الحارة .

توفيق : حتى المشايخ ضدناده انا يوم الدوسة عملت لهم مقام . (الدوسة عادة من عادات مشايخ الطرق يجتمعون لها

وينبطح المريدون على الارض وتمر فوق أجسادهم بغلة الشيخ وتحدث لهم البركة بزعمهم من آجل ذلك)

شيخ الحارة : جعانين نعطى لهم لقمة جراية يسكتوا .

مجدع (يسلت سيفه ويقول لشيخ الحارة) :

طالع ترمح على فين يافرعون؟

حدق : الاكياس دى والاوراق ثقيلة عليكم .

(ياخدها منه ويعطيها التلامذة والضباط)

عمر شهامة : آه ياغاير . ياماعملت فينا !

أبو الخير : (يقول لشيخ الحارة) :

اقرأ هذا الفرمان من مولانا السلطان !

أبو الحلم (الامير حليم) . أنا نصحتك ياابن الاخ من مدة سنة بجوابى فلو كنت سمعت كلامى كان البر انصلح . وانت فضلت عليه شيخ حارة . انا انت خربته وهتكت اسم مصر وأهلها .

حدق : لما توليت يافرعون البر ماكانش مديون . واليوم عليه ميت مليون . والمبالغ دى كلها راحت فين ؟

مشايخ الازهر : بنى بها سرايات . وصرفها فى الفسق والفساد .

عمر شهامة : وبدل ماساعد الفلاح ويصلح أحوال الزراعة اللى هى سعادة اهالى القطر . فرعون بسلامته نهبنا وباع اطياننا ومواشينا ، وموتنا من الجوع .

مشايخ الازهر : فرعون كافر وآخرته الجحيم ، وربنا كريم حليم !

ابو الخير (الى الضباط) : تسليمكم شيخ الحارة واولاده ووزيره . اذهبوا بهم الى الاسكندرية . وانت يامجدع باشا سلمهم الى قبطان مركنا العثمانية . وهو يجرى اللازم .

(الضباط ومعهم حدق يفعلوا ذلك ويضربوا كل من يتجاسر على المعارضة)

شيخ الحارة : (يزعق ويقول):

الحارة حارتى ! وانا شيخها! وانتم مالكم ومالى .

مشايخ الازهر : جرجروه . ماتسمعوش كلامه

(الجميع يغنون) :

انت فين يابو نضـــــارة	تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحـارة	وعلى ولاده المنحوســـين
النهـــــارده يوم عظـيم	افرحوا يا أهلْ النيـــل
الله ينصر سى حـليم	ويعـذب اســـمعيل !»

ويشاء القدر الحكيم ان يعزل اسمعيل ويتولى مكانه ابنـــــه توفيــق . وكان الشعب يتمنى ان يكون مكانه (الامير حليم). وبذلك تحقــق له نصف أمله . ولم يتحقق له الامل كله .

***

هذا قليل من كثير مما كتبه ذلك الفـتى الاسرائيـــلى الغيور (يعقوب بن صنوع) فى صحفه الهزلية وهى كثيرة بأسمائها ، ولكنها واحدة بأهدافها . فهى أبو نضارة زرقا ، وهى النظارات المصرية ، وهى ابو صفارة ، وهى أبو زمارة ، وهى الحاوى وهكذا ، وكلها مكتوبة بتلك اللغة العامية ، وكلها تهدف الى نقد الامراء من نسل محمد على ، كما تهدف الى نقد وزرائهـم واعوانهـم . وحكوماتهم ، وطرقهم فى الحكم ونظرتهم الى الشعب .

رحم الله ابو نظارة لقــد كان أمة وحده ، وكان جيلا كاملا فى نفســـــه ، وكان ثورة عارمة ، وسخرية قاتلة ، وقبسا من نور الله تعالى فى غبار مصر فى القرن الماضى وكفاحه .

خيـــال الظل والسيف والكشكول

ومنذ أوائل القرن الحالى نشطت الصحـــافة الهزليـة فى مصر ، وظهرت مجلات فكاهية كثيرة ، منها على سبيل المثال : « حمارة منيتى » ، و « المسامير » ، و « خيال الظل » ، و « مجلة السيف » الخ .. وكانت تعنى جميعها بالنقد السياسى قبـل كل شىء . ولنضرب لذلك أمثلة قليلة منها :

صدرت مجلة « **خيال الظل** » سنة ١٩٠٧ ، وأرادت مهاجمة « حزب الامة » وصحيفة « **الجريدة** » التى كان يحررها الاستاذ لطفى السيد ، وكانت لسان حال الحزب يومئذ . فكتبت « خيـــال الظل » تقول :

« سأل أحدهم بعض مستخدمى « الجريدة » عما اذا كان كل ما يكتبه فيهـا لطفى بك السيدبريشة عربية أو بقلم أمريكانى ؟
فأجاب المستخدم بأنه يرى لطفى السيد يكتب بقلم انكليزى أهداه اليه سعادة وكيل نظارة الحقانية !»

تريد المجلة بهذه النكتة أن تتهم كاتب الجريدة بميوله الانجليزية ، وقد بقى لهـذه التهمة أثرها فى كثير من أذهان الخاصة والعامة • والحقيقة أن الاستاذ لطفى السيد براء من كل ذلك .

وفى مجلة « خيال الظل » يرى القارىء صورة « **زفة الوداع** » لكرومر • وفى الصورة يرى الاستاذ فارس نمر صاحب المقطم ، ومصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء • وتحت الصورة كلام لهذا الاخير فيه يقول للورد كرومر :

ـ فايتنا لمين يا سيدى ؟

فيرد عليـه اللورد كرومر بقوله :
ـ معلهش يا أبو درويش شد حيلك !

كما يرى القارىء بهذه المجلة صورة قصد بها التهكم من المصريين وذلك بعنوان :

« حديث الاعتصاب بين حمار وحصان »

الحمار : لو كان الحمارة يتعصبوا زى العربجيـة كنـا على الاقل نستريح كام يوم !

الحصان : يا حسرة •• دول ما يتكلموش عمرهم • انت مش عارف المصريين ؟

وفى مجلة « السيف » باب بعنوان « **باب الدلع** » وفيه :

سئل أحد النظار المصريين :

ـ الى متى لا تعارض فى أى أمر يصدره الاحتلال البريطانى؟
فقال : دارهم ما دمت فى دارهم !

وفى المجلة السابقة كذلك باب بعنوان «**يصح**» ومما جاء فيه :
ـ يصح يا ناس ان البوليس ينام فى الداورية ؟
ـ يصح ان حكيم بباب الشعرية يبقى مغسل وضامن جنة ؟
ـ يصح انه يبقى قبطى صعيدى ولونه طحينى ويلبس برنيطة؟

ـ يصح ان الافندى من دول يفتح قزازة بيرة فى قهاوى الرقص ولبة بيته من غير قزازة ؟ الخ ٠

ووجهت المجلة نقدا اجتماعيا من نوع آخر قالت فيه :

قولوا له

قولوا للبوليس	ولا كل من نامت عينه
قولوا لسنجر	ماكينات ولا غزل البنات
قولوا للطليانى	تعاود تيجى البر
« «	جاك غرقه
قولوا للترمواى	مالك حايس ودايس
وكمان قولوا له	اطلع يا قاتل
« « «	دوس على رقبة اللى يعجبك
« « «	اللى تعرف ديته اقتله
« « «	ناس تنباس وناس تنداس ٠الخ

***

وأخيرا نصل الى مجلة **«الكشكول»** ، وقد صدرت سنة ١٩٢١ ، والمظاهرات الشعبية لم تزل على أشدها ، والتصوير الكاريكاتورى قطع أشواطا بعيدة فى مجال التقدم .

وفى العدد الذى صدر بتاريخ ٢٣ اكتوبر ١٩٢١ نجد سعد زغلول يخطب فى مواقف مختلفة ..

يخطب بعد حادث سرقة وقتل من الحوادث الخطيرة ، فيقول :

« يقولون انه من اللصوص الاشقياء ٠ فليكن ٠ ولكن تناسوا عمدا أنه كان يهتف باسمى ٠ فكانت هذه الروح الطاهرة البريئة ضحية الظلم والاستبداد .. الخ »

ويخطب بين العمال قائلا :

« يقولون ان المفكرين مع عدلى يكن ٠ كذبوا ٠ من هم المفكرون ؟ أنتم المفكرون لأنكم تهتفون لى ٠ وهذا أكبر دليل على أنكم أنتم العقلاء المفكرون ٠ الخ»

ويخطب سعد بين الفتوات ، فيقول :

« يقولون انكم خطر على الامن ٠ كلا ٠٠ بل أنتم قوة لايستهان بها .. انتم عماد الوطن المحبوب . ولقد اصبحتم موضع اعجاب الامم المتمدنة ٠ الخ »

(تصفيق حاد وهتاف متواصل)

ويخطب بين الطلبة فى « بيت الامة » فيقول :

« أنتم جنودى . وبكم أفاخر الأمم . أنا لا أمنعكم من استعمال كل الوسائل ضد من لا يخضع لارادتي ، وأنصح لكم ألا تقرأوا الجرائد المخالفة لى . اسحقوها بأقدامكم ، ولتحيى الرياسة . وليحيى رمز أمانيكم . الخ »
(تصفيق حاد وهتاف متواصل)

ويخطب فى الاتحاد الازهرى:

« يقولون .. بقولون .. ماذا يقولون .. أنا رئيسكم ، ووكيلكم ، ورمز أمانيكم واستقلالكم وغير استقلالكم ، أنا وطنكم العزيز ، ولقد تاب بعضكم فقبلت توبته ، ان الوطن كان توابا رحيما »

وفى مجلة « الكشكول » منظر لسعد امام ضاربة الودع ، ومعه شنطتان استعدادا لنسفر ، وهى تقول له : « ارم بياضك . جايلك تجريدة فى شنطة جديدة . قول انشاالله ..

سعد يروح ويرجع مشروح . قول انشاالله ..

تنول غرضك . ويزول مرضك . بس مش عارفه ايه غرضك قول انشاالله . الخ »

وكان من أبواب مجلة الكشكول باب بعنوان : **(دائرة معارف وفدية)** نقتطف منه ما يأتى :

الالف ــ حرف استفهام فى مثل قولك : أصوت للرئيس فى الانتخابات . وتكون هذه الالف أحيانا الفا زائدة (كنمر الوفد) فانهم زيادة عدد . ولا رئيس الاسعد .

وتكون الالف للتنوين ، كما فى قولك : رأيت المارستان أعقل من (بيت الامة) . الخ .

وهكذا تدور المادة كلها حول أمثلة عن الوفد وسعد وبيت الامة . فاذا فرغت المجلة من الالف انتقلت الى الالف مع الباء فالتاء فالثاء فالجيم .. الخ .

الدكتور محجوب ثابت

ولا تستطيع الصحافة المصرية فى مجال الكلام عن الفكاهة والدعابة أن تنسى الدكتور محجوب ثابت . وقد كانت شخصيته كبيرة متعددة الجوانب . ولكن غلب عليه التحمس لبعض الافكار السياسية ، ومنها فكرة السودان . الى حد أثار فى نفوس مواطنيه

شعورا ، هو مزيج من الاعجاب ،ومن الضحك أو المرح • وكان كبار الساسة فى زمانه كسعدزغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقي والنقراشي كثيرا مايقضون الساعات الطوال فى مداعبته واثارته حتى يخطب ويتدفق ويأتى حركات مسرحية من نوع خاص ، وكذلك كان يفعل كبار الشعراء كشوقى وحافظ ، وتفعل كبريات الصحف الهزلية فى مصر كصحيفة الكشكول وغيرها •

وكان للدكتور محجوب عربة يجرها جواد أصيل خاض معه المعارك الوطنية تحت وابل من رصاص الانجليز ، وكان اذا جن الليل عرج الدكتور محجوب على محل (صولت) الحلوانى المشهور (وكان فى شارع فؤاد الاول) لتمضية السهرة مع صفوة من أصدقائه • وكان من بينهم محمود فهمى النقراشى ، واحمد شوقى أمير الشعراء • وكان الحصان يقضى ليلته رهن انتهاء السهرة بغير طعام حتى يعود الى الاصطبل قرب الفجر •

وقد أطلق المرحوم الشيخ عبدالعزيز البشرى على حصان الدكتور محجوب لقب « مكسوينى » تشبيها له بمستر مكسوينى الايرلندى محافظ « كورك » الذى أضرب عن الطعام شهرين احتجاجا على السلطات البريطانية •

قال شوقى مداعبا الدكتور محجوب :

لكم فى الخط سياره	حديث الجار والجارة
كسيارة شرلوت	على السواق جبارة
اذا حركها مالت	على الجنبين منهاره
وقد تحرن أحيانا	وتمشى وحدها تاره
ولا تشبعها عين	من البنزين فوارة
ولا تروى من الزيت	وان عامت به (الفاره)
ترى الشارع فى ذعر	اذا لاحت من الحارة
وصبيانا يضجون	كما يقلون طياره
وفى مقدمها بوق	وفى الآخر زمارة
وقد تمشى متى شاءت	وقد ترجع مختارة
قضى الله على السوا	ق أن يجعلها دارة
يقضى يومه فيها	ويلقى الليل مازاره

أدنيــــا الخيل يامكسى (١) كدنيا النــاس غــداره ؟؟
لقــــد بدلك الدهـــــر من الاقبـــــال ادباره
فصـــبرا يا فتى الخيـــل فنفس الحـــر صـــبارة
أحقـــا ان محجـــــوبا ســـلا عنـــك بفخاره
وباع الابلق الحـــــر (باوفرلند) (٢) نعــاره
ولم يعــرف له الفضـــل ولا قـــــــدر آثاره
قد اختــار لك الشلح (٣) ومـــا كنت لتختـــاره
فســـله ما هو الشـــلح عسى ينبيـــك أخبـــاره
كأن لم تحمــــل الراية يوم الروع والشـــاره
ولم تركب الى الهـــــول ولم تحمـــل على الغـــاره
ولم تعطف عــــلى جرحى من الصـــبية نظـــاره
ولا والله مـــــا كلفــ ـت محجـــوبا ولا باره ! !
فــلا البرســـيم تدريه ولا تعـــــرف نواره
ولا تروى على (صــولت) اذا نادمت ســـماره
وقد تشـــبع يا ابن الليــ ـل من رنة قيثـــاره ! !
عسى الله الذى ســـاق الى يوسف ســـياره
يهيى لك هـــــــوارا كريمـــا وابن هـــواره
فان الحــظ جــــوال وان الارض دوارة ! !

ثم حـدث ان انطلق الجواد (مكسوينى) من الاصـطبل في حى البقالة ، وأخذ يعدو ولم يستطع أحد الوقوف فى وجهه ، حتى صعد فوق تلال حى (زينهم) فكان أن سقط فى حفرة عميقـة فدق عنقه • وقد اتخذ أصدقاء الدكتور محجوب من هذا الحادث مادة للدعابة . فقــالوا : ان (مكسوينى) قد عزت عليه نفسه فانتحر • والحقيقة انه نفق ضحية الهوى ، اذ كان يقصــد انثى من نوعه في خيــل تملـــكها امرأة صاحبة عربات ، وكانت مرابطها فوق تل (زينهم) وكان الدكتور يقول ان حصانه العزيز قد انتحر بسبب العشـــق بعــد أن برح به الشـــوق والهيـــام بصاحبتـــه ومعشوقته ! !

(١) اختصار مكسوينى
(٢) اسم الماركة التى تنسب اليها السيارة
(٣) يريد أنه شلح الحصـان كما شلحوه من الوفد .

وان ينس أهل القاهرة لاينسوا أربعة من رجال المرح والدعابة ، كانوا زينـة المجالس الادبيـة ،وكانوا مصدر سرورها وأفراحها .

وهم : **حافظ ابراهيم** شاعر النيل **وأمام العبد، ومحمد البابلى** الفكه المشهور **والشـيخ عبد العزيز البشرى** .

ولكل من هؤلاء الاربعة مواقفه الفكاهية التى يتناقلها الناس فى مصر الى اليوم ، ويحفظون منهـا الشىء الـكثير . ولا يذكر اسـم أحدهم فى مجلس من مجالسنا الاتهيأ الحاضرون للضحك،وانتظروا أن يتحفهم محدثهم بنكتة طريفة،أو دعابة لطيفة .

كان امام العبد أسود اللون ،وكان يمشى مرة مع **حافظ ابراهيم** فوقع بصر هذا الاخير على سـيدة جميلة ، واذ ذاك شوهـد **حافظ ابراهيم** يقبل صديقه **امام العبـد** أمام هذه السيدة . فلما سئل فى ذلك أجاب : اننى أقبـل الارض بين يديها .

ومشى **الشيخ عبد العزيز** يومافى الطريق فصادفه رجل عامى بيده خطاب دفع به الى الشيخ،وطلب اليه أن يقرأه عليه . فنظر الشـيخ فى الخطاب وكان مكتوبا بخط رجـل من رجال الريف فلم يستطع أن يتبين منه شيئا، فوجم قليلا وردالخطاب الى صاحبه، فاستاء الرجل لذلك وقال له : عجزت عن قراءة الخطاب . أمال العمـة اللى انت لابسها دى فائدتها ايه ؟

فما كان من **الشيخ عبد العزيز** الا أن خلع عمامته ووضعهـا على رأس الرجل العامى وقال له :

« اقرا انت بقى »

وسمع الســيد **محمد البـابلى** رجـلا يغنى فى الطريق ويقول :

آه ياحبيبى فين أراضـيك ؟فأجابه بقـوله : (فى البنـك العقارى) .

وكان السيد **محمد البابلى** يحمل عصا فى يده وعليهـا الحرفان الاولان من اسمه وهما (م . ب)ولقيه صديق له فأظهـر اعجابه الشديد بهـذه العصـا . وانتظرأن يرد عليه بقوله له خـذها هدية منى . ولكن **السـيد محمد البابلى** أجاب صديقه على البديهة:

« شوف مكتوب ايه على العصايه دى . مكتوب عليها (م . ب) يعني : مش بتاعتى ! »

وأفلس حافظ ابراهيـم يومامن النقود ، وعجز عن شراء تذكرة يحضر بها حفلة خيرية فى حديقة الازبكية وأخذ يلوف حول الحديقة

عساه يظفر بصديق يقرضه ثمن التذكرة فلم يجد • وأخيرا لمح بين الواقفين على الباب صديقا له اسمه رياض • فاشترط عليه هذا ألا يعطيه التذكرة الا اذا نظم شعرا فقال :

(رياض) الازبكية قد تحلت بفتيان كرام أنت منهم
فهبها جنة فتحت لخير وأدخلني من المعفو عنهم

فضحك صديقه وأعجب بهذه البديهة ومنحه التذكرة •

ويطول بنا القول فى مداعبات هؤلاء الاربعة الذين أشرنا اليهم • وليس هناك مايدعو الى الاطالة ما دام الناس فى أيامنا هذه يحفظون الكثير منها •

وكنا نود أن نمضى فى فكاهات العصر الذى نعيش فيه ، ونأتى بنوادر عبد الحميد الديب ، ونوادر الصحف المعروفة ، كالبعكوكة ، وآخر ساعة ، وأخبار اليوم لولا أن هذه النوادر فى معظمها قد تمس أفرادا لايزالون على قيد الحياة ، وقد يتأذون من عملنا هذا ، ونحن لانحب الايذاء •

على أن الطابع الذى يسود نافى هذه الفترة من حياتنا ، وذلك منذ قيام الثورة الاخيرة على يد الجيش فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الى اليوم يغلب عليه الجد • لانكاد نستثنى من ذلك غير الفكاهات الشعبية على ألسنة الشعب ، أو على ألسنة بعض الشخصيات المعروفة فى عالم التمثيل الهزلى كشخصية اسماعيل يس وشكوكو ومن اليهما . وعند هؤلاء نجد ألوانا من الفكاهة الشعبية تنصب كلها فى هذه الايام على شخصية الملك السابق وتتركز حوله وتهدف الى النيل منه ومن الحاشية .

وما دمنا نشير الى السخرية الشعبية فى مجال التمثيل ، فلا ينبغى أن نهمل الاشارة هنا الى شخصية الساخر الاجتماعى الخطير « **نجيب الريحانى** » •عليه رحمة الله . ورواياته التى سخر فيها من المجتمع المصرى معروفة ، ولم يزل كثير منها يعاد عرضه فى دور الاذاعة والتمثيل الى يومنا هذا • وهى خليقة بأن تكون موضع درس الدارسين ونقد الناقدين فى الجامعة ، ولذلك أرجىء البحث فيها لفرصة أخرى عسى أن يجود الزمن بها فى القريب العاجل ان شاء الله •

السخرية فى الادب الاوروبى

منذ القدم والناس يألفون السخرية في الادب . ولذا تجد هذه السخرية معروفة عند اليونان والرومان قبل أن تكون معروفة في الآداب الاوروبية التى نشأت على أنقاضهم . بل أن لفظ (Satire) أى السخرية ، روماني الاصل . ومعناه السلة التى تجمع فيها بواكير الفاكهة الجديدة . ثم أصبح لهذا اللفظ معنى السخرية فيما بعد .

ويقال ان أول كتاب عرف فى السخرية عند اليونان الاقدمين هو كتاب (اركيلولوس) وهو كتاب بنى فى أكثره على الاعتداء الشخصى بالطريقة التى شهدنا أمثلة كثيرة منها فى الادب العربى .

وبقى فن السخرية مبنيا على هذه القاعدة حتى ظهرت وسيلة جديدة من وسائل السخرية ، هى وسيلة القصة الخرافية . وبقيت هذه الوسيلة هي الاخرى سائدة الى أن ظهرت (الرواية المسرحية) فاعتمد عليها الادباء كل الاعتماد فى التعبير عن السخرية .

وهذا الذى حدث للادب اليونانى القديم هو بعينه ما قد حدث للادب الرومانى القديم ، فقد نبتت البذرة الاولى من بذور السخرية الرومانية فى تلك المنظومات الفكاهية التى كان يتغنى بها الشعب الرومانى القديم فى أعياد الحصاد وفيها انطلق الشعب الى أبعد حدود الانطلاق فى الاباحية والافحاش فى المعانى والالفاظ .. وهكذا حتى ظهرت المسرحية الرومانية التى حلت محل الاغنية الشعبية للتعبير عن الفكاهة والسخرية فى شتى الاغراض .

ثم في العصور الوسطى تظهر هذه الوسيلة الناجحة من وسائل السخرية . ونعنى بها الخيال والحديث على ألسنة الطيور والحيوان .

ولعل قصة **(الثعلب)** المشهورة فى تلك الازمان كانت من الذيوع والانتشار بحيث حفظها كل انسان . وفيها ينتقد المؤلف المجتمع الفرنسى من جميع وجوهه وأوضاعه . وكان الثعلب من بين أنواع الحيوان يمثل الشر . وقد حمل هذا الكتاب على الملوك ورجال الحاشية ورجال الدين وعلى الطبقة الوسطى أو (البورجوازية) وغيرها من طبقات المجتمع الفرنسى .

وكان من القصص الذائعة اذ ذاك قصة (**الفـــلاح الطبيب**) الذى ضرب زوجتـــه في يوم من الايام ، فأرادت هذه أن تنتقم لنفسها ، فأشاعت فى قريتها أن زوجهـا طبيب ماهر ، ولـكنه لا يمارس مهنة الطب ، ولا يبـاشر العلاج الا اذا ضربه أهل المريض ضربا مبرحا . وانتشر نبأ ذلك فى أهل القرية ، وأتوا به لعلاج مرضاهم بهذه الطريقة . ولـكن الفلاح استطاع بذكائه أخـيرا أن يتخلص من هـذه الورطة . وفى نهاية القصة يصالح الفلاح زوجته ويترضاها ويعيشـــان فى ســلام ووئام .

ومن القصص التى راجت اذ ذاك قصة (**القسيس آكل التوت**) وتحكى لنا هذه القصة عن قسيس كان عائدا من بعض زياراته على ظهر بغل . فمر تحت شجرة من أشـجار التوت ، وأراد أن يأكل من ثمارها . فوقف بقدمه على ظهر الدابة . ولـما كان التـوت لذيذ الطعم فقد انطلقت من صاحبنا آهة اعجاب جعلت البغل ينفلت من تحته جاريا فيسقط القسيس على الارض ، وقـد انكسر منـه عضو . وهكذا تسخر القصة من رجل الدين . كما تقسو قصص أخرى مماثلة على الازواج المخدوعين فى زوجاتهم ، وعلى التجار الجشـعين في طلب أرباحهـم ،والفلاحين البسطاء أو السذج فى أخلاقهم . وكثيرا ماتغـالى هـذه القصص وأمثالهـا فى الحقـد على المرأة .

شاع هـذا الادب الساخر فى فرنسا فى العصور الوســطى ، حـين بدأ النـاس يثـرون من التجارة ، وأخذ الشعب الفرنسى نفسه يتطلع الى حياة أفضل ، كما شرعت الطبقـة الوسطى تشارك هي الاخرى فى الحركة الفكرية .ولـما كانت هـذه الطبقـة تميل بطبعهـا الى كل مـا هو واقعى ،وتنفر من كل ما هو مثالى ، فقد درجت يومئـذ على انتقـاد الرقة المصـطنعة ، والتـكلف الظاهر ، والحركات الثقيلة التى تبـدو من جانب الطبقـة الارسـتقراطية . وكان ذلك كله مادة للادب الواقعى السـاخر، الذى أفاضت فيه الطبقة الوسطى .

ثم **في عصر النهضـة** جـدت أمور كثيرة تدعو الى اصـــطناع السخرية والتهكم . وفى أسبانيـا على سبيل المثالـ تظهر الرواية التى تحذو حذو المقامة العربية ،وتدور حول شحاذ ، أو صعلوك ، أو متشرد يجوب البلاد ، وينتقل من مـكان الى مـكان ، ويلاقى الاهوال ، ويتعـرض فى أثنـــاء ذلك لنقد المجتمعات التى يراها ،

والناس الذين يلقاهم • وحسبناهنا أن نشير الى رواية **(سرفانتيس)** المشهورة لمؤلفها (دون كيشوت) **Don Quixote** وفيها سخر الكاتب من كل ماقدسته العصور الوسطى من معتقدات عن الفروسية والشهامة والدين ونحو ذلك • وفي هذه القصة — مثلا — يظهر البطل (دون كيشوت) ومعه خادمته في مواقف تثير الضحك والهزؤ ، وفي بعضها يظهر البطل بصورة الفارس الاحمق الذى يحارب الهواء : ويناطح الخراف ،ويدعى الشجاعة ونحو ذلك •

وفي القرن السادس عشر ظهر في فرنسا الكاتب المشهور **رابليه** **Rabilais** الذى قضى حياته متنقلا في مدن فرنسا وايطاليا •

وفي شخصية من الشخصيات التى تظهر لنا فى قصصه نرى ملكاً شريرا يسير بشعبه الى الهلاك ، ويسوقه الى الحرب كما تساق القطعان من الغنم ، وذلك ارضاء لشهوته في الملك فقط • ونرى بين أبطاله شيخا حنكته التجارب يحاول ، ما وسعه ، أن يحافظ على السلام ، وأن يجنب الشعب ويلات القتال ، ولكن اذا اضطرته الظروف الى الحرب أدارد فتها بحكمة • وبهذه القصص وأمثالها **تمكن** رابليه من نقد المجتمع الفرنسي وملوكه وأمرائه ومثله وآرائه • ثم هو لاينسى الجدل الذى احتدم بين أبناء عصره حول المرأة، فيعالج هذه المشكلة بلغته الساخرة ، ويضحك من الرهبان والقضاة والغزاة والحجاج والبروتستانت والكاثوليك على السواء،ومن أدعياء العلم وأساتذة الجامعات ، ومن الكتاب والشعراء• غير أنه بالرغم من السخرية اللاذعة التى اتصف بها أسلوب هذا الكاتب الفرنسي ، فان سخريته هذه لم تكن للهدم ، بل كان لها مثل أعلى في البناء — ألا وهو الرجوع الى العقل فى تفسير ما غمض على الانسانية كلها من أسرار ، ومن ثم طفق يتهكم على المتطيرين ،ويسخر من المتصوفين ، ويدعو الى اطلاق الحياة البشرية من قيود التقاليد الموروثة التى لا أساس لها من العقل أو المنطق •

وفي القرن السابع عشر يظهر في فرنسا شيخ السخرية الفرنسية — بلا منازع — **موليير** وقد طفق يرحل كما رحل **رابليه** ويدرس فى رحلاته العادات والتقاليد ، ويعود آخر الامر الى باريس ليضع تمثيلياته ومسرحياته ويقدمها لسيد فرنسا اذ ذاك ، وهو الملك **لويس** الرابع عشر • وكانت زوجته التى تصغره باثنتين

وعشرين سنة بسبب تعاسته وبؤسه ، فقد كان يغار عليها ، ويعمل الف حساب لخيانتها . وكان خصومه يرددون فى جميع الاوساط انها ابنته من زميلته الممثلة (**مارلين بيجار**) . وكان لعمله المتواصل ولكثرة همومه وأحزانه أثر سيء فى صحته التى مالبثت أن انهارت . وبينما كان يقوم بدوره فى تمثيلية « **مريض بالوهم** » سقط مغشيا عليه ، وتوفى بعد بضع ساعات .

كان **موليير** يقاوم بسخريته رجعية رجال الدين الذين كانوا ينظرون الى التمثيل على أنه رجس من عمل الشيطان ، واستطاعوا أن يقنعوا بذلك الملكة الوالدة وبعض أمراء البيت المالك .

وقد بدأت حملة أعدائه قاسية عليه كل القسوة منذ أخرج روايته (**تارتوف**) وفيها يسخر من المنافقين فى الدين سخرية كادت تعصف بهم ، وتؤثر فى كيانهم ، لولا أنهم قاموا قومة رجل واحد يؤلبون عليه الملك من ناحية ، والجمهور الفرنسى نفسه من ناحية ثانية .

وتثور ثورة الرجعيين مرة أخرى حين يعرض مسرحية « **دون جوان** » وفيها يصور حياة شرير يعيش على الخبث والنفاق ، ويسلك مع الناس سبيل الغش والرياء . و**موليير** انما يهدف من وراء ذلك الى السخرية من المجتمع الفرنسى الذى يقوم على أولئك المنافقين ممن يدعون الصلاح والتقوى ، بينما هم فى الحقيقة شياطين يخدعون الناس عن أنفسهم ، ويخفون عيوبهم بمظاهرهم ..

وهكذا كتب النصر أخيرا لكاتب فرنسا الذى استطاع فى النهاية أن يكسب الملك الى جانبه ، وأن ينجح فى الحصول على اذن منه بتمثيل رواية « **تارتوف** » التى مر ذكرها .

والذى يقرأ تمثيليات **موليير** أو يشاهدها ، يلاحظ كذلك أنه يسخر من التكلف فى كل شيء . فهو يسخر من الحب المصطنع الذى يرتكز على الكلمات المنمقة والمبالغات المضحكة . كما أنه ينقد الاسلوب الواقعى الجاف الذى يقتل كل عنصر من عناصر الخيال فى حياة الانسان . وأكثر ما يضايقه تعصب رجال الدين وتزمتهم ، فهو يطالب بالتسامح الدينى ، ويشيد بالفلسفة العقلية ، ويسخر من التنجيم ويندد به ، ويدعو الى مذهب التشكك .. ثم هو لاينسى السوربون ، فيوجه اليها من لاذع نقده وبالغ سخريته شيئا غير قليل .

أما الغيرة ، والبخل ،والكذب،وما الى ذلكمن الاخلاقالشخصية الذميمة ، فقــد نال منها **موليير**كل منال ، وتهكم بأصحابها أشد تهكم .

هــذا كله في فرنسا . أما فيانجلترة ، فالمعــروف أنه كانت تستعر بهذه البــلاد حرب هائلةبين طائفتين كبيرتين ، هما طائفة « **البيوريتان** » من ذوى الرءوس المستــتديرة المعــــروفين بالتزمت الديني ، وطائفــة « **الفرســان** »وهم أنصار الملــكية ، في الوقت الذى كان فيــه « البيورتان » منأنصار البرلمــانية الشــعبية . ومن ثم كانت هــذه الخــلافاتالدائمة بين هاتين الطائفتين مثارا للسخرية والتهكم اللذين عرفا طريقهما يومئذ الى الصحف .

ومن أشهر الكتاب الساخرينفي تلك الفترة التى نشــير اليها **صمويل بيـــكر ، ودريدن** ومناليهما .

أما القرن الثــامن عشر ، فهوالعصر الذهبى لفن السخرية في الادب الاوروبى .ويكفى أن نذكرأسماء **فولتير وروسو** فى فرنسا **وستيل واديســـون وســويفتوفيلدنج وبوب** فى انجلتـــرة ، **ولسنج** وأمثاله فى المــانيا .

أما **فولتير** ففى روايته (كاندبد)حكي عن شخص بهذا الاسم، قام بسياحات كثيرة ، لاحظ فيهاعيوب الافراد والجماعات ، وكان يقول مع ذلك انها ليست عيوبا ،وانمــا هى فضــائل . وذلك لان أستاذه « **دانجلوس** » علمــه أن كل شيء فى الدنيا حسن ، وانه ليس فى هذا العالم كله شيءيوصف بأنه قبيح ، وانه لهذا على خير حال فى خير عيشة فى خــيرعالم ممــكن . وبهــذه الطريقــة اللطيفــة أخذ **فولتير** ينقد جماعةالفلاسفة المتفائلين الذين يرون أن العالم كله خـــير ، وانه لاداعيللقيـــام بحــركة من الحــركات الاصلاحية فى المجتمع .

وللكاتب الانجليزى « **فيلدنج** » رواية بعنوان :

« **Jonathan wild the Great** **جوناتان المتــوحش العظيم** »

هى قصــة لص انتهت حيــاتهبالشنق ، وفيها ينــدد الــكاتب برئيس حــكومة من حــكوماتانجلترة ، هو ولبول Welpole وينقد مسلــكه ومسلك زوجتــهالبغى التى أخذت تعبث بمصـــالح الدولة ، وتستغل مركزها كزوجةلرئيس الوزراء فيسبيلالوصول الى أغراضها المــادية .

وهنا يميز الكاتب بين نوعين منأنواع العظمــة : همــا العظمــة

الصحيحة ، والعظمة الزائفة ٠فيقول ان الاولى تعتمد على أسس ثابتة من الخير ومن النفع ، وترمي الى اصلاح الانسانية وخلاصها من كل شر ، ولكن الناس مع هذا يخلطون دائما بين هذين النوعين من العظمة ٠ ولو كان صحيحا زعمه بعضهم من أن من العظمة ما يعتمد على الشر ، لوجب أن ننظر الى **الاسكندر الاكبر** ، والى **قيصر** ، والى **نابليون** ، كما ننظر الى القرصان ، واللصوص ، والسفاكين ، وقطاع الطرق ،فنقول عن هؤلاء الملوك والعظماء انهم عظماء لانهم سفكوا دماء البشر ، لا لانهم بنوا الحضارات ، وبثوا الافكار ، ونشروا المبادىء ،وغيروا وجه الحياة الانسانية نفسها ٠

والفرق بين **فيلدنج** هذا ، و (**سويفت**) صاحب قصة **روبنسون كروزو** ، هو أن الاول متفائل لايفقد امله فى الاصلاح، وأما الثانى فمتشائم ، ولذا يكتفي بالسخرية من الجماعة البشرية، واظهار الاسى عليها والرثاء لها والاشفاق من فسادها ٠ ويظهر لنا ذلك كله من خلال كتابه(**رحلات جوليفر**) ، وفيه نقد للمجتمع على ألسنة أقزام عرفوا كيف يضعون أيديهم على مساوئه ٠

أما القرن التاسع عشر ، فهو عصر الشعر الرومانتيكي والخيال الانطلاقى ، وتلك الخصال الفنية التى لا تسوغ معها السخرية ٠ وخاصة ان هذا القرن قد امتاز بآراء جديدة ، وفترات انتقال كثيرة ، وهزات عنيفة ، لا تدع للناقد فرصة النقد ، ولا للساخر فرصة السخرية أو التهكم بوضع من هذه الاوضاع يرى أنه أقل شأنا من الاوضاع الاخرى ٠

ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نهمل أمثال « **تشارلس ديكنز** ، **وثاكارى** ، **ولورد بيرون** » ومن اليهم ممن سخروا بالمجتمع الانجليزى ٠ وقد اعتمد أولهم ـ وهو ديكنز فى قصصه المعروفة باسم « أوراق بيكويك ـ **Pickwick** » على اللغة الشعبية فى نقده للمجتمع ،واصطنع شخصيات كثيرة التناقض فى حركاتها وأقوالها الى حد المبالغة ٠ فالسمين من هذه الشخصيات سمين أكثر مما يجب ، والنحيف نحيف أكثر مما يجب ، والسفيه سفيه أكثر مما يلزم ، والحليم حليم أكثر مما

يلزم، وهكذا ! ولا يكتفي ديكنز بذلك حتى يجري على ألسنة أشخاصه أقوالا بلهاء ، وأفعالا تثير الضحك والرثاء . وبهـــذه الطريقـــة البسيطة أخذ يعلم الناس دروسا في الحياة والاخلاق . والمهم ان من يقرأ أدب ديكنز يشـــعر شـــعورا عاما بأن روحه في الكتابة أميل الى الفكاهة والتندر أو الى ما يسميه الانجليز أنفسهم باسم : Humour

وأخيرا نصل الى **القرن العشرين** فنجـــده يشبه القرن الذي قبله من نواح كثيرة ، أهمها في الحقيقة عدم الاستقرار ، واختفاء المبادىء أو المقاييس الثابتة التي يستطيع الاديب ان يؤلف سخريته على أساسها ، وان يوجه نقده من أجلها الى عيوب معينة في المجتمع واخلاق معينة في الافراد . ذلك أن العالم الحديث في أيامنا هذه يضطرب بشتى المبادىء الســياسية والاجتماعية والاقتصادية والادبيـــة ، بحيث لا يستطيع الاديب الناقد أن يعرف للمجتمع صورة واحدة ، وشــكلا ثابتا ، ومظهرا يجمع الناس على احترامه والنظر اليه على أنه من الاوضاع المستقيمة المقبولة .

ومع ذلك فلم يعدم القرن الذي نعيش فيه أمثال **«برناردشو»** بمذهبه الاشتراكي المعروف في انجلترة ، والروائي المشــهور **«هكسلي»** ، وبخاصة في روايته الساخرة عن (العالم الحـــديث الشجاع Brave New World

كما لم يعدم القـــرن العشرون كتـــابا ســاخرين كالكاتب الروسي الشهير **(ايليا اهرنبرج)**. ولعل في وجود مبادىء معينة، وآراء ومعتقدات ومذاهب ثابتـــة في المذهب الشيوعي الذي يدافع عنه مثل هذا الكاتب مايسر عليه الظفر بمقاييس ثابتة ، يستطيع على أساسها ان يسخر من كل من تحدثه نفسه بالخروج عليها أو التعرض لها .

***

وكعادتنا في التمييز من حين لآخـــر بين أنواع السخرية ، نقول ان النــــاظر في تاريخ السخرية في أوروبا يرى أنهـــا قسمان كبيران :

قسم تغلب عليه الفكاهة والدعابة والمزاح ونحو ذلك ، وقسم يغلب عليه النقد .

فأولهما ضاحك باسم ، والآخر أدنى الى الجد والعبوس ، وقلما يكون ممزوجا كذلك بشيء من المرح أو الضحك . وأولهما كثيرا ما يتركز حول الفرد ، والثاني يتركز دائما في المجتمع ، ويقصد صاحبه به كذلك الى هدم فكرة أو مذهب او معتقد .

والذي نلاحظه بوجه عام ان السخرية الانجليزية في مجموعها أدنى الى الصرامة والجد ، كما يغلب عليها أسلوب الارشاد والوعظ .

صور من السخرية في الادب الاوروبي

... قبل أن نعرض على القارىء طائفة من هذه الصور نحب أن نسأل أولا : هل تصدر السخرية دائما عن شر يكمن في النفس ؟ وهل صحيح أن أدب السخرية يصدر عن روح منغمسة في الكراهية والحقد ؟

وجوابنا عن ذلك أن السخرية قد تصدر عن روح الكراهية والشر ، ويكون التعبير عنها مملوءا بالمرارة والبغض ، ولكنها تصدر أحيانا عن احساس شديد بالعطف والرغبة في الاصلاح وفي الخير . والواقع ان القول بأن السخرية صادرة دائما عن شر قول فيه كثير من البعد عن الحق . وقد ضربنا أمثلة كثيرة بعدد لا بأس به من الكتاب في الشرق وفي الغرب . وكلهم يؤمنون ايمانا صحيحا بالانسان وبمقدرته على التفوق والتقدم وحب الخير للخير . والكتاب الساخرون من هذه الناحية قسمان : قسم متفائل يحسن الظن بالانسان ، وقسم متشائم لا هم له الا تتبع عوراته ، والتغالي في وصف نقائصه .

وفي روايات الشاعر الانجليزي « **شكسبير** » الذي يفخر به الادب الانجليزي في جميع العصور ، ما يصور لنا السخرية بلونيها المشرق والمظلم . ففيها شخصية كشخصية « **فولستاف** Falstaff » هو رجل ضخم لا تفارق يده الكأس ، ينادم الملوك والامراء ويغشى معهم كذلك مواطن الحرب والقتال ، ويظهر لنا دائما في روايات هنري الرابع وهنري الخامس ، بمظهر الساخر من الطبقة العليا ، والساخر من فكرة الانسان عن الشرف ذاته ، بل الساخر من الجنود الذين يجودون بأرواحهم الغالية في سبيل « الشرف » ، والساخر أيضا من المجتمع الذي يجري وراء المثل العالية ويحتقر الكذب !!

وفي روايات **شكسبير** شخصية اخرى كشخصية المضحك او البهلوان « Clown » • وله نوع من الحصانة التي يستطيع بها أن يضحك الحاضرين في مجلس الملك ، وان ياتي بحركات بهلوانية تخفي وراءها حكمة من الحكم • ومن ثم كان هذا المضحك ، بسترته الحمراء وعصاه التي تحدث أصواتا موسيقية كثيرة ، عنصرا هاما في بلاط الملك ، وشخصية هامة كذلك في روايات **شكسبير** • وكثيرا ما اظهره الشاعر الانجليزي الكبير منطويا على روح عالية من النبل والكرم والتسامح والتضحية والبذل والانسانية في أسمى مراتبها • وحسبك ان تذكر المضحك في رواية الملك « **لير** » وكيف أنه بقي الى جوار سيده في مخبئه بينما هجرته بناته وفلذات كبده في تلك الساعة المحرجة •

الحق ان السخرية في ذاتها سلاح من أمضى الاسلحة في أيدي المصلحين الذين يرومون اصلاح العقول في الأفراد والجماعات • وهم في هذا كله أشبه ما يكونون بالطبيب الذي يضع في يده مبضعا يحسن استعماله عند الحاجة ، وهو بعد حر في أن يطلع المريض على مبضعه أو يخفيه عنه •

يقول الشاعر الانجليزي (**بوب**) في بيان قيمة السخرية ومبلغ تأثيرها في النفوس :

« أجل • انني فخور • ولا بد أن أكون فخورا ! انني أرى الناس الذين لا يخافون الله يخافونني ! فهم اذا نجوا من القضاة أو من رجال الدين أو الملوك أنفسهم ، فانهم لن ينجوا من سخريتي وتهكمي !

(وبعد) ، فقد آن لنا أن نعرض على القارىء نماذج من السخرية في الادب الانجليزي ليعرف من خلالها الفرق الواضح بين السخرية الغربية والسخرية الشرقية • ولا بأس من أن نورد هذه النماذج بعد تقسيمها الى أصناف ، يختص كل صنف منها بطبقة من الناس ، أو طائفة من الافكار ، أو ناحية من نواحي المجتمع كالسياسة أو الدين أو الاخلاق ونحو ذلك •

سخرية من السياسة

« ان جميع الاحزاب مقدر لهاالموت فى النهاية ، وذلك عندما تفرغ من تبليغ أكاذيبها » !

(دكتور جون اربثنوت سنة١٧٣٥)

((وأقسم اذا جدالجد،وخيرت بين القوة والحق ، ألا أسأل عن خير أو شر ٠٠ وانما أنضم فيالحال الى الفريق القوى : فريق المحافظين !))

(توماس مور سنة ١٨٢٣)

« وعندما تتولى القردة سلطانالحكم ، أرقص أمامهم كما يرقصون ! »

(بير كاردت سنة ١٨٣٠)

« قد يكون عضو الاحرار مغفلا ، أما عضو المحافظين فلا بد من أن يكونكذلك » ٠

(خطابات هوارس والبول سنة ١٧٣٠)

« لقد استطعت أن أستميلجميع رجال الحزب بالمال ٠ بل ان كل انسان فيهذا العالم يمكنشراؤه بالمال ٠ اللهم الا امرأة واحدة لم يجد معها الذهب شيئا . ولم يؤثر فيها الا الماس ٠٠!»

(روبرت والبول رئيسوزراء انجلتره فى القرن ١٢)

« في السياسة ، اذا أردت أنتصل وأن تحقق أمانيك، فاذكر دائما أنك يجب أن تكون أصموأعمى، حتى لاتسمعالشعب فى الطرق أو تراه من النافذة ! » ٠

(بيرنز سنة ١٧٩٣)

((من الشائع المعروف أن السياسة والدين من الامور التي يستطيع المرء أن يذهمها تماما. بليبلغ فيها حد الاتقان ، فهمالا يحتاجان الى دراسة أو خبرة ٠وعلى ذلك فاننا نجد الناس جميعا يصدرون أحكامهم عليهما، وانكانت آراؤهم دائما مختلفة ، وأفكارهم أبدا متضاربة ! » ٠

(تشستر فيلد ٠ فى كتابه اختلاف الآراء سنة ١٧٥٥)

سخرية من النساء

« لا ناب الرقطاء ، ولا لدغةالعقرب ، تحمل من السم الزعاف ما يحمله قلب المرأة ، والراهباتبمذاهبهن الثلاثة يتراوحنجميعا بين الخنا والسرقة ٠ » ٠

(سليربورا سنة ١٨٧٥)

« من الافضل أن يعيش الرجل في جحر ضيق ، على أن يحيا مع امرأة ثرثارة في بيت واسع ! »

(امثال القرن الخامس عشر)

« لعنة الله على الحب والغرام .
ان وظيفة المرأة ابعاد الرجل عن صحبة الخير ! »

(ونشيرلى : الزوجة الرقيقة سنة ١٦٧٥)

« تشكو المرأة أعظم الشكوى عندما تجمع بين الحب والفضيلة ! وكثير من النساء الطيبات يسأمن وظيفتهن ! »

(لارشفوكو سنة ١٦٩٣)

سخرية من الزواج

« ان من يفقد زوجته ودرهما لا يأسف الا لفقد الدرهم ! واذا قدر لكل سرير أن يتكلم ، احمرت وجوه كثيرة من شدة الخجل ! »

(امثال عامة سنة ١٦٧٨)

« أى رجل هذا الذى تبلغ به الحماقة أن يدخل رأسه فى حبل مشنقة الزواج ؟

انه لو تدبر الامر ، وفكر مليا ، كما يفعل الحكماء ، فى متاعب الحياة الزوجية ، لما أقدم عليها !وأى امرأة تلك التي تقبل فتح ذراعيها لتحضن زوجا ، اذا حسبت حساب الاطفال وتربيتهم وآلام الوضع ومضايقات الرضاعة والحمل ؟

وكم عدد الزيجات التى تستمر سعيدة موفقة الى مدة طويلة ؟ اللهم الا اذا تغابى الزوج وأغمض عينيه عن نقائص زوجته وسخافاتها !

أما الغباء فهو المسئول الاول عن تلك القناعة أو السعادة أو الهناءة التى يتحدث عنها بعض الازواج والزوجات . »

(ارازمس : مدح الحمق ـ سنة ١٥٠٩)

« أحسن ما يقال عن الزوجة أنها عقبة فى سبيل السرور ، وعبء ثقيل فى طريق الحياة ! »

(جون ولت سنة ١٦٧٠)

« حياة الاعزب حياة آمنة .
أما الشك والسخط والنزاع فانها أمور تأتى مع الزوجة ! »

(هريك ١٦٤٨)

« قد يكون هناك بعض الزيجات الطيبة ، ولكن يستحيل وجود زيجة واحدة خالصة السعادة ! »

(لارشفوكو سنة ١٦٦٥)

«أتريد الزواج يابوستموس؟خبرني بربك عن تلك الدواعى التى ساقتك الى هذا الجنون ؟

أتقبل أن تكون عبدا لاية امرأة ؟ بينما فى حبال المشانق الخلاص والنجاة منها ؟

ان سرير الزوجية مسرح دائم للخصومات والمشاحنات ،ولا يجد الزوج فيه فرصة للنوم . »

(جيوفينال : الباب السادس من كتاب السخرية)

« تختفى لعنة أبدية وراء كلمة الزوجية ! »

(فانبرا : سنة ١٦٩٧)

«المستر كولنز : أن أسباب زواجى هى :

أولا ـ أرى أن كل قسيس فى مركزى الاجتماعى الممتاز لابد أن يكون قدوة ومثلا يحتذى به .

ثانيا ـ اننى مقتنع أن الزواج سوف يزيد من سعادتى كثيرا .

ثالثا ـ وهو ماكان لابد لى من الاشارة اليه قبل ذلك ، أن هذه نصيحة ووصية من تلك السيدة العظيمة النبيلة التى أتشرف بالعمل تحت رياستها ورعايتها .

(جين اوستن : رواية التفاخر والتحيز سنة ١٨٧٣)

سخرية من الاسرة

« لا سبيل الى السعادة طالما كانت حماتك على قيد الحياة ! »

(جيوفينال : السخرية . الباب السادس سنة ١١٦)

« لا يقل مايلاقيه رب الاسرة من الاوجاع والآلام عما يلاقيه حاكم دولة بأسرها ! »

(مونتانى : المقالات : سنة ١٥٨٠)

سخرية من الحب

« من الصعب تعريف الحب .

فهو روحيا عاطفة تسلط وسيطرة ،وعقليا تعاطف ومشاركة وجدانية ، وجسديا لايعدو أن يكون مجرد رغبة خفية لامتلاك من تحب بعد فترة طويلة من التلهف!»

(لارشفوكو سنة ١٦٦٥)

« الحب بهجة مرة ، وحزن حلو، بل هو موت حي ، وحياة ميتة ! »
(توماس واطسن : عصر الحب العاطفي ١٥٨٢)

« لا يهزم الحب الا من يفر منه ! » .
(توماس كارو ١٦٣٠)

((الكراهية أطول اللذات جميعا .. !
فالناس يعشقون بسرعة ، ولكنهم يكرهون في أناة !))
(بايرون : دون جوان - ١٨٢٤)

((ماعرفت غراما قط لايمكن اشـــباعه بالذهب أو غســـله بالنبيذ !))
(ويلز : شادويل : ١٦٧٢)

((انظرى الى حجرك مليا وقدرى كل حب بمقدار هداياه !))
(اوفيد : العشاق : القرن ٣ قبل الميلاد)

((أستطيع أن أحب الشقراء والسمراء .. !
أستطيع أن أحب من تتمتع بالثراء ، ومن اصابتها الفاقة !
استطيع أن أحب تلك التى تهوى العزلة والتى تحب الصحبة!
أستطيع أن أحب ابنة الريف وابنة المدينة .. !
أستطيع أن أحب المؤمنات وأحب اللائى يحـــاولن أن يكن كذلك .. !

أستطيع أن أحب التى تسكب الدمع مدرارا والتى لاتعرف عيناها البكاء !

أستطيع أن أحب هذه ، وأحب تلك ، وأحبك أنت ، وأحبها هى .. !

أستطيع أن أحب أية امرأة كانت .. حتى لو كانت غـــير مخلصة .. !))
(جون دون : عديم الاكتراث . ســـنة ١٦٣٣)

سخرية من الابطال

((يصبح اللص رجلا شريفا راقيا عندما يثرى من السرقة !))
(فولر : نومولوجيا ١٧٣٢)

« يوروبيد الى ايسكليس : كلاانك أعنف من أن تكون محبا ! انك أشـد عنفا على فينوس • بل أشد غباء !

ايسـكليس الى يوروبيد : تذكر أيها الصعلوك البائس القذر أن تلك المثل العليا التى تنادى بها تتطلب عبارات مناسـبة لكى تتشح بها • وان الابطال والآلهة لابد أن تصـطنع فى أحاديثهـا ألفاظا قوية • بحيث تكون أسمى وأرقى مما يصطنعه البشر • وان العقل والطبيعـة جميعا يقبـلان هـذا الوضع ، ولكنك رفضـته ونبذته نبذا ! »

(ارستوفان : رواية الضفادع سـنة ٢٠٥ ق • م)

« لعل المقتدين بالاسـكندر المقدونى فى سكره وشرابه أكثر من المقتدين به فى فضله وعفافه! فبينما يحتمل أن يكون المرء أكثر فضلا منه ، فانه يتحتم عليـه ـ ولا عذر له ـ أن يكون أكثر منه سوءا وأحط نقيصة ! »

(باسكال : الافكار ١٦٧٠ ـ ١٨٤٤)

« بائع السـجق : وهل يعقل أن أصبح أنا يامن يبيع السـجق رجلا عظيما وبطلا يشـار اليـه بالبنان ؟

ديمـوستنيس : انك لهـذا السبب ستكون عظيما، وستكون بطلا لانك صعلوك وقح !

بائع السجق : ولكننى لا أرى نفسى جديرا ••

ديموستينس : لماذا تقول انك غير جدير ؟

ان هذا يدل على أن فى رأسك أفكارا ارسـتقراطية • فهل أنت ارستقراطى ؟

بائع السـجق : كلا ياسـيدى • اللهم الا اذا كانت سـلالة الاشرار والصعاليك كذلك

ديموستينيس : قضى الامر • انك رجل سعيد الحظ وانك تمتاز بكل صفات السادة ومستلزمات الابطال والحكام • »

(ارستوفان ـ رواية الفرسان • سنة ٤٢٤ ق • م)

« الرجل المهذب هو من يرتدى ملابس حسنة الشكل حاملا سيفا فى منطقته ، وساعة وعلبة (نشوق) فى جيبه ، ثم يعرض نفسـه على الناس مهذبا راقيا قادرا على السب واللعنات •

انه مصمم على أن يكون كذلك ، والا فانه يقطع رأس مخالفه!»

(تشستر فيلد : الرجل الشريف : سنة ١٧٣٥)

« لقد استقبل المغامرون الثلاثة استقبالا فاترا فى أول الامر ، ولكن سرعان ما فطنوا بحكمتهم العظيمة الى سر ذلك . فبدأوا فى الحال اصلاح أمورهم ومواءمة سلوكهم لما اعتاد أن يكون عليه الشرفاء في المدينة ، فكتبوا ، واجتمعوا ، وقرضوا الشعر ، وغنوا الاناشيد ، ثم سكروا وحاربوا وتشاجروا وسبوا ولعنوا وتعاطوا النشوق ، وارتادوا المسارح فى أول العرض للروايات ، وذهبوا الى المقاهي ، وتحدوا رجال الامن ، وخدعوا الناس واحتالوا عليهم ، واستدانوا من تجار المدينة ، واعتدوا على الحرمات والأعراض ، وقتلوا الانفس البريئة ، واقتحموا البيوت الخ .. !

لقد تحدثوا عن المجتمعات الراقية دون علم بها ، وعن موائد السادة والاشراف ، وما عرفوا سادة ولا اشرافا قط ، وهمسوا فى آذان السيدات الراقيات دون أن يقولوا شيئا معينا . وأوقعوا فى أيدى « الغسالات » اللاتي يغسلن ملابسهم خطابات غرامية عليها توقيعات سيدات راقيات من المجتمع ، مع أنها خطابات مكتوبة بأيديهم . وتحدثوا عن القصور وعن الملوك والعظماء وعن السادة والاشراف ..

وباختصار اتصف المغامرون الثلاثة بصفات جديدة .. ! فصاروا بهذه الصفات من علية القوم وأصفيائهم ..! »

(سويفت : قصة ادعاء ــ ١٦٩٧)

سخرية من النفاق

« الصليب على الصدر والشيطان فى القلب »

(مولر : نومولوجيا ــ ١٧٣٢)

« هل من معبد لاترى فيه امرأة ... ؟ »

(جوفينال : السخرية الباب التاسع : ١١٨)

« يحمل الناس أديانهم فى عقول الآخرين أما أخلاقهم فانهم يحملونها فى جيوبهم !! »

(توماس بيكوك : ٧٨٥ ــ ١٨٦٦)

« ليس الانسان الا قناعا كاذبا منافقا ، سواء أكان ذلك فى نفسه أم عند الآخرين من بنى جنسه ، وهو لايريد أن يستمع الى الحقيقة ، ويحرص فوق ذلك على ألا يقولها للناس • وجميع هذه الصفات برغم بعدها عن الحكمة والعقل ، فانها متأصلة في نفسه : ياله من مجموعة من المتناقضات ! ياله من حيوان غريب الاطوار ! انه يصدر أحكامه على كل شيء ،وهو لايعدو أن يكون مجرد دودة حمقاء ، تجتمع فيه الحكمة والشكوك والاخطاء ، كما تجتمع فيه عظمة هذا الكون وانحطاطه ودناءته » •

(باسكال : الافكار : ١٦٧٠ – ١٨٤٤)

سخرية من الاخلاق

« يحب العجوز اسداء النصيحة مواسيا نفسه بما وصل اليه من حالة لاتمكنه أن يكون قدوة سيئة ! »

(لارشفوكو : ١٦٩٣)

« الرذائل التى يستعصى علاجها ، هى تلك التى يمكن أن يتفاخر بها الناس ! »

(اديسون : ١٧١٤)

« الميسر والزنا – كل منهما عار عند الطبقة الوسطى • أما اذا ارتكب الاغنياء هذه الخطايا فانهم يوصفون بالمرح وخفة الظل والكرم والسخاء الخ •• ! »

(جيوفينال : السخرية الباب الحادى عشر : سنة ١٢٠ ق •م)

« لقد رحل الرجل • والآن أعتقد أن هذه السيدة ستعاودها نوبة الشرف ! »

(الراسين وارثة المدينة : ١٦٨٢)

« لايستحق الانسان ثناء على فضيلة مادامت تنقصه المقدرة على ترك الرذيلة ، اذ أن الفضائل غالبا ماتكون ناجحة عند الخور وضعف الارادة •• ! »

(لاروشفوكو : ١٦٦٥)

« لاتكثر شرور الانسان ولاتتعدد في بهجة ولذة عندما يكون تحت تأثير ضميره • ذلك أن الناس فريقان :

أخيار يظنون أنفسهم أشرارا، وأشرار يحسبون أنهم أخيار!»

(باسكال : الافكار :سنة ١٦٧٠ – ١٨٤٤)

سخرية من الانسان

« ليس الانســان سوى دودةتخرج من شرنقة أرضية كبيرة!»

(بيرون : دون جوان : ١٨٢٣)

« الغرور متأصــل في قلب الانسان تأصلا ثابتا • حتى الجندى والطباخ والشرير يتفاخرون ويودون أن يكون لهم معجبـــون •• حتى الفلاسفة يريدون أن يكونلهم معجبـــون •• ! حتى الذين يكتبون ساخرين من هذه الاموريهدفون الى هــذا المجد الكاذب • والذين يقرأون كذلك يبتغون مجدالقراءة ! •• حتى أنا الذى أكتب هذه السطور ربمــا أبغي ذلكأيضا ! وربمـــا كان من الذين يقرأون كلامى هــذا من يطلبونلانفسهم مثل ذلك !

بل ان حب الاستطلاع لايعدوأن يكون غرورا ،ولايطلبالانسان العلم بوجه عام الا لكى يتحـدثالناس عنه • فالشـــخص الذى يغـــامر ويعبر المحيطات لايفعلذلك الا وفى سريرته ماســوف يقال عن عمله أو ماسوف يقولههو عن نفسه وعما شاهد وخبر ! وانهلتمتلىء نفوسنا عجبا وغروراحتى لنود أن نحيط علما بالعالم كله ، وأن يعرفنــا جميع من فيهذه الدنيا ، وتعرفنا الاجيـــال التى ستأتى بعدنا !! »

(باسكال :الافكار : ١٦٧٠ - ١٨٤٤)

الســـخرية من القسس والمعلمـين

« لو كان فى انجلترة دين واحد لصارمستبدا ، ولو كانفيها دينــان لانتشر القتل وقطع الرقاب ، ولكن مادام فيها ثلاثون دينا وملة ، فانها تعيش جميعا جنبــالى جنب فى سعادة وأمن !

(فولتير : القاموس الفلسفى : ١٦٩٤ - ١٧٧٨)

« سباركش : ســـيدى ، اذاكنت لاتصدقنى فان خير الطرق لذلك هو أن تختبره ، وذلك عنطريق الخــادمة ، لان الخـــادمات يســـتطعن تمييز القسيس عنسائر الناس •

لوشى (الخادمة) : فليكن ذلك!ان له ابتسامة لئيمة مصطنعة ، وكفا لزجا من القذارة لايمكن الاأن يكون لقسيس ! » •

(ونشرلى : مسرحية الزوجة الريفية١٦٧٥)

السخرية من كل شيء

« لو كان أنف كليوبترة أقصر قليلا لتغير وجه البسيطة ! »

(بسكال : الافكار)

« اننا نملك من الشجاعة مايكفي لاحتمال مصائب الغير فقط ! »

(لارشفوكو : ١٦٦٥)

« يجلس الاحمق الغبي في مكان الرجل الرزين الحكيم فيقول عامة الناس انه رزين حكيم ! »

(بيرتون : تشريح الحزن : ١٦٢١)

السخرية من الموت

« لايقيم الانسان وزنا للموت بقدر مايهتم بأن يصنع نعشه من خشب ممتاز ! »

(مثل تركي ١٨٤٤)

« لايشرب الانسان السم الزعاف من طبق فخاري وانما يأتي ذلك العمل الخطير من كوب من الماس أو وعاء من الذهب ! »

(جيوفينال : السخرية : الباب العاشر : ١٢٠ ق ٠ م)

« لن يسيل دمعي على الذين أرادهم الموت بسهمه ، وانما يعصر قلبي ألما من ينتظر كل ساعة ضربته القاضية ! »

(لوسيليس : ٨٨٩)

« أيها الموت أنت أحمق الحمقى !

انك تأتي الى الابواب كل يوم لتقرع قرعات متواضعة اولا ! كأنك تاجر صغير يقترب بخوف، مطالبا بحقه من مدين عظيم ، ولكنه يرفض دائما أن يدفع دينه ، فينفد صبرك، وتتقدم بخطى واسعة لتقرع قرعات مزعجة ، فاذا سمح لك بالدخول ، أكدت في لهجة غير مهذبة قولك بوقاحة : اماالوفاء واما الفداء ! »

(بيرون : دون جوان : سنة ١٨٢٤)

« ان أرملة واحدة تبكي وتنتحب ، لمدة قصيرة فوق هذا القبر ٠ واذا اجتمعت أرملتان هناك ، فسرعان ماتبدأ الثرثرة والكلام !

أما اذا اجتمع ثلاثون ، فلاشك أن ثلاثا منهن فقط يخلقن جماعة مرحة ! »

(توماس هود : الارملة : ١٨٣٠)

سخرية من الانجليز

« تنادى الحكمة قائلة :

ابحث عن الفضيلة أولا ، وكن شجاعا .

أما فى لندن فانك تسمع من ينادى :

ابحث عن المـــال أولا ثم عن المال ثانيا . أما الفضيلة ، فلتأت بعد ذلك ان شاءت »

(بوب : ١٧٣٤)

« نابليون : ان الرجل الانجليزى يولد مســـلحا بقوة نادرة عجيبة ليكون سيد العالم ، فعندما يريد شيئا لايتكلم ولا يطالب . وانما ينتظر حتى ينزل عليه وحى مفاجىء واعتقاد راسخ أن واجبه الدينى والخلقى هـــو أن يغـزو ويستعمر وينال مايطلب . وهنا يصبح الانجليزى انسانا لايقاوم !!

ان الانجليز تجار أو بائعون ، فهم يســيرون بصبر وبطء وأناة وايمان ، معتقـدين أنهم لابد أن ينالوا بغيتهم . والانجليزى لايعدم الوسائل أبدا . فهو دائما يدافع عن الحرية ويحمى الاســتقلال ، كما يغزو ويهدم ويستعمر ، وذلك بحجة التعمير والانشاء .

واذا أراد سوقا جديدة لمنتجات مانشــستر ، فانه يرســـل المبشرين للوعظ وارشاد الناس الى طرق العـــدل والانصـــاف والسلام .

فاذا قتل أهل البلاد الاصليون أحد المبشرين ، ذهب الانجليز اليهم سراعا بحجـــة الدفاع عن المسيحية . فيحاربون ويقتلون ، ويكسبون لانفسهم السوق التى يريدونها مكافأة وجزاء من السماء !

وللدفاع عن جزيرة من الجزر الانجليزية ، يرســل الانجليزى سفنا تمخر عباب البحر ، ويضع فيها قسيسا ، ويدق فوق صاريها علما عليه صليب ، ويترك بحارتها يحرقون ويحطمون وينســـفون ويغرقون كل من يعارض ســيادة الامبــراطورية البريطانيـــة على البحار !!

ولقد قام الانجليز بثورتين ، ولكنهم يدعون أن الثورة خروج على النظام والقانون .

وقصارى القول أن الانجليزى لايخطىء أبدا !! لانه دائما على حق ! انه رجل مبادىء . يأسرك بمبادئه ويضطرك الى السير عليها ! »

(برنارد شو : مسرحية رجل القدر : سنة ١٨٩٧)

لقد تعلم أيها القارىء أن لهذا الكاتب الكم‍ء (شـــو) أربعين ملهاة ، كلها من هـــذا النوع ،سخر فيها من المجتمع الانجليزى بجميع طبقـاته ، وهيئاته ، ورجاله ونسائه وقوانينه وأحكامه، ومبادئه وأوضاعه ، وحرفه وصنائعه !

وشو فى هذه الناحية لاشبيه له فى الادب الانجليزى الا الكاتب الروائى (سويفت) الذى سخر مرة من القـــانون الانجليزى ، وذلك فى موضـــع من روايته المشهورة «رحلات جوليفر» اذ قال:

الســـخرية من القانون

« سمعت مناقشـــة حادة بين أساتذة المعهـد حول الطريقـــة الواجب اتباعها فى جمع الضرائب على شرط ألا يغضب الناس .

قال الاســتاذ الاول : ان خير الطرق هي أن تفرض الضرائب على نقائص الناس وحماقاتهم على أن تتألف المحكمة التي تقدر هذه النقائص والحماقات من لجنة أعضاؤها جيران هـــذا الشخص الذى يؤدى الضريبة .

وقال الاستاذ الثاني : أنه يرى عكس ذلك تمـاما ، فلا بد من فرض الضريبة على تلك الصفات العظيمـة الخـيرة التى يأنســـها الشخص فى نفسه . وهنا لايحتاج الموضـــوع الى محكمـة ، فلكل شخص حق تقدير هـــذه المزايا الحسنة فى نفسه . كـذلك لابد من فرض ضرائب مرتفعـة ، على الرجال الذين يكســبون عطف النساء ، وينالون حبهن وتقديرهن . وهذا طبعا يتناسب تناســبا طرديا مع عدد المغامرات الغرامية ونوعها ودرجة الحب وعدد المعجبات من العشـــيقات . ولا بأس هنـا أيضا من أن يكون الرجل هو الحكم فى الموضوع .

أما عن الادب والشجاعة والذكاء ، فهى صـــفات يمكن فرض الضرائب عليها بشرط أن يقدرها صاحبها بنفسه .

أما مسائل الشرف والعدل والحكمة والعلم ، فلا لزوم لها ، لانها لن تحظى بتقدير الجيران أو أصحاب السلطان .

وأما النســـاء فتفرض عليهن الضرائب بنسبة الجمـال وحسن الهندام ، ولا شك أنهن لابد أن يحظين مثل الرجال بحق اصدار الاحكام على أنفسهن .

أما عن الاخلاص والعفة والحكمة ، فهى أمور لاتستحق بطبيعتها أن تفرض عليها ضريبة ، بل انها لاتســـاوى ماينفق على الموظفين الذين يجمعون ضريبتها لان أجورهم لابد أن تزيد على حصـــيلة ما يجمعون » !!

بين السخرية فى الادب العربى
والسخرية فى الادب الاوروبى

عرف الادب الاوروبى ، كما رأينا ، لونين من ألوان السخرية . هما السخرية التى يقصد بهاالى النيل من الافراد ، والتعريض بهم وازدرائهم والحط من كرامتهم . ثم السخرية التى يقصد بها الى نقد الطوائف والجماعات ، والىمهاجمة الآراء والافكار والمبادىء ونحو ذلك .

وحين استعرضنا طائفة صالحة من نماذج السخرية فى الادب العربى ، تبين لنا أن هذا الادب عرف أيضا هذين النوعين السابقين :

فمن الاول على سبيل المثالهجاء بشار بن برد ، وهجاء ابن الرومى ، وهجاء المتنبى . ولنضرب المثل هنا بابن الرومى خاصة

قال يذم شخصا بالثقل :

كان للارض مرة ثقلان　　فلها اليوم ثالث بفلان

وقال يذم آخر بالبخل :

يقتر يحيى على نفسه　　وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره　　تنفس من منخر واحد

وتبرأ ابن الرومى يوما من صديق له ، وبرم به ، وقال يذمه ويعبر عن هذا المعنى :

أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى
مناسبنا فى ملتقى منه واحد
فلا تهجنى حسبى من الخزى اننى
واياك ضمتنا ولادة والد
ولو لم تكن فى صلبآدم نطفة
لخر له ابليس أول ساجد

وقال يذم رجلا اسمه عمرو :

وجهك ياعمرو فيه طول　　وفى وجوه الكلاب طول
وفيك غدر وذاك واف　　ففيك عن قدره سفول

وقد يحـــامي عن المواشي	وما تحـامى ولا تصــول
وأنت من بيت أهل ســوء	قصتهم قصـــة تطــول
وجـوههم للورى عظـــات	لـكن أقفــــاءهم طبـول
مســــــتفعل فاعل فعــول	مســــــتفعل فاعل فعــول
بيت كمعنــاك ليس فيــه	معنى سوى أنه فضــول

فتلك وأمثالها سخرية من أشخاص وليس لها غرض وراء ذلك .

أما السخرية من المجتمعات أو الآراء فكثيرة في أدب **ابن المقفع**، وأدب الجاحظ ، وأدب أبي العـلا المعري . وفي أيدينـا حتى الآن كتاب عظيم لابن المقفع ، هو كتابه (**كليلة ودمنة**) سخر فيه الكاتب من أعظم خليفة عباسي عرف ببطشه وعسفه ، وهو الخليفة المنصور ، ذلك الخليفة الذى قضى على العلويين وأحب أن ينقلب على الفرس الذين أقـاموا له ولاسرته الدولة العباسية على أنقاض الدولة الاموية

أراد ابن المقفع أن يتوجـه بالنصح والارشاد الى هذا الخليفـة الذى لايقبل نصحا ولا ارشـادا من أحد . فمـاذا يفعل ؟ لم يجد غير طريقة الحديث على ألسنة الحيوان ، فبادر بترجمة (كليلة ودمنة) من الفارسية الى العربية ، وأضاف الى هذا الكتاب من عنده فصولا على غرار ماجاء به . وصرح ابن المقفع في كتابه (كليلة ودمنـة) بالاغـراض التى من أجلهـا ترجم الكتاب من الفارسية الى العربية، ولكنه لم يشأ أن يصرح بأغراض الكتاب كلها ، بل صرح بثـلاثة منها ، وأخفى في نفسه الغرض الرابع ، فقال :

أما أغراض الكتاب :

فأولها – ماقصد فيه الى وضـعه على ألسنة البهائم ليســـارع الى قراءته أهل الهزل !

وأما الثاني – فهو اظهار خيالات الحيوان ليكون أنســا لقلوب الملوك ..

وأما الثالث – فأن يكون على هذه الصورة فيكثر انتساخه ولا يبطل ، فيخلد على مرور الزمن .

وأما الرابع – وهو الاقصى – فذلك مخصوص بالفيلسوف . »

على أن هـذا الغرض الذى لم يصرح به ابن المقفع لم يكن ليخفى على المنصور ورجاله يومئذ ، فقد كانوا يفهمونه ويقدرونه . وهذا الغرض هو السخرية من تصرفات الملوك المتعسفين من أمثال المنصور، والتهكم بهم وبجبروتهم وبطشهم .. !

ولذا قيل أن كتاب (كليلة ودمنـة) كان من أسـباب قتل ابن المقفع .

أما الجاحظ فانه يتعرض فى نقده لجميع الطوائف والجماعات فى عصره ، بحيث لم ينج من سخريته العلماء ولا الشعراء ولا الخطباء ولا المعلمون ، ولا الجنود، ولا السود ، ولا البيض ، ولا الغلمان ، ولا القيان ، ولا التجارولا أصحاب الحرف ! وأما الكتاب الديوانيون فى زمانه ، فقد سخرمنهم فى شخص أحدهم ، وهو احمد بن عبد الوهاب أحد أولئك الكتاب ، وكان أدنى الى القصر منه الى الطول، فاتخذ الجاحظ من هذا العيب الجسمانى بابا ينفذ منه الى التهكم اللاذع بهذا المسكين ، وان كان لايقصد بتهكمه أحمد بن عبد الوهاب وحده ،بل قصد جميع الكتاب الذين هم على شاكلته .

وكان الجاحظ من دون الكتاب فى زمانه وقبل زمانه مشهورا بتوليد المعانى ، وبقدرته المتفوقة على مانسميه اليوم (بالتصوير الكاريكاتورى) • فرأيناه يضحك من قصر احمد بن عبد الوهاب ، ويضحك من جهله وقلة معرفته، مع ادعائه العلم ،واقتحامه ميادين العلماء •

فانظر الى الجاحظ كيف كتب فى رسالته المعروفة (برسالة التربيع والتدوير) •

« كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى مع هذا أنه مفرط الطول ! وكان مربعا وتحسبه لسعة خاصرته مدورا ! وكان جعد الاطراف قصير الاصابع ! وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه جميل الوجه ،أخمص البطن ، معتدل القامة ! وكان قصير الساق •• قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر ساقه ، يدعى أنه طويل الظهر عادى القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم ، والسعة فى العلم • وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد »

ثم يقول مخاطبا احمد بن عبد الوهاب بلغة أهل العروض والمنطق :

« وبعد ــ أبقاك الله ــ فأنت فى يدك قياس لاينكسر ، وجواب لاينقطع ، وهو قياسك الذى اليه تنتسب ، ومذهبك الذى اليه تذهب •

(وهذا القياس) أن تقول : وما على أن يرانى الناس عريضا ، وأكون فى حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق •• فأنت المديد ،وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب • فياشعرا جمع الاعاريض ! وياشخصا جمع الاستدارة والطول » !

بهذه الطريقة التى تعتمد على توليد المعانى ، أخذ الجاحظ يسخر من قصر احمد بن عبد الوهاب فى رسالة «التربيع والتدوير» وهو يصوره لنا شخصا جمع المتناقضات ، فهو طويل ، وهو مبسوط ، وهو قصير ، وهو متقارب ، وهو مديد ، وهو فى هذا كله يشبه الشعر الذى نظمه على جميع الاوزان والبحور المعروفة فى علم العروض .

ثم لا يكتفى الجاحظ بذلك حتى يقول لغريمه :

« وماذا يهمك من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم ، والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع طولك ، وأن ماذهب منك عرضا قد استغرق ماذهب منك طولا . ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك . واذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ، ومنعوك بالظلم شطرا . فقد حصلت على ماسلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ولعمرى أن العيون لتخطىء ، وان الحواس لتكذب . وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل . الخ ... »

وأما **أبو العلاء المعرى** فقد رأيناه ، كما قدمنا ، يسخر من كل شىء ، ويهزأ بكل شىء فى (رسالة الغفران) . وقد أفضنا فيها القول ، فلا حاجة بنا الى العودة اليه .

***

هذا كله فيما يختص بالسخرية فى الادب العربى عامة ، أما السخرية فى الادب المصرى خاصة فقد وجدناها أكثر تنوعا ، وأغنى وسيلة ، وأدنى الى المرح ، وأبعد عن العمق فى التأمل ، وأكثر زهدا فى طرق العلماء والفلاسفة .

على أن السخرية المصرية فى مرحها وضحكها واغرابها أحيانا فى القهقهة ، تشبه فى مجموعها ـ كما قلنا ـ ضوء البرق ، يظهر سريعا ، ويختفى سريعا ، ذلك أن السخرية المصرية أصبحت تعتمد كل الاعتماد على اللفظ ، وبخاصة منذ ظهور « التورية » ، حتى أصبحت هذه التورية صبغة المرح المصرى والفكاهة المصرية منذ ظهورها الى اليوم !!

ولست أدرى ما السبب فى ذلك ؟

أيكون السبب أن المصريين ـ كما ذكرنا ـ طال خضوعهم للدول

الاجنبية ، وطال احتمالهم لحكومة الفرد ، وهـذا الفرد غريب عنهم فى كل وقت ؟

أم يكون السبب أن اللغة العربية وصلت الى مصر غنيـة كل الغنى بألفاظها • وقد رأينا المصريين ، بعد هجوم التتار على العالم الاسلامى ، وعبثهم بالتراث الفكرى ،واغراقهم جميع الكتب الاسلامية فى نهر دجـلة ، يعنون باحيـاء التراث العربى ،ويبدأون بالجانب اللغوى ، ويقومون على ضـبط المـادة العربية فى معاجم كبيرة ، كمعجم لسان العرب لابن منظور، ومعجم المحيط للفيروزابادى .

والنتيجة التى نريد أن نصـل اليها هى أن مصر ظفرت باللغـة العربية بعد أن زادت فيها الالفاظ عن المعانى زيادة ظاهرة • وحين أرادت مصر أن يكون لها حظهـا السخرية صدرت فيها عن هـذه القـاعدة ، وهى الاعتمـاد على الالفـاظ أكثر من الاعتمـاد على المعانى والافكار ؟

لست أدرى بالضبط : لم بقيت السخرية المصرية الى وقتنـا هذا لفظية أكثر منها معنوية ؟

ولعل من المفكرين والنقاد من يصل يوما الى الاسباب الحقيقيـة التى دعت الى ذلك •

***

هذا كله فيما يتصل بالسخرية فى الادبين العربى والمصرى •

أما الادب الاوروبى فقد لاحظنا بوضوح كيف كانت السخرية فيه مبنية على الفكرة ، بل ان الكتاب الاوروبيـين لايكادون يعـرفون السخرية اللفظية كما نعرفها •ولذلك نجد نحن المصريين صعوبة فى فهم النـكتة الاوروبيـة ، بل قد لانحس ميـلا كبـيرا اليهـا ، واعجابا عظيما بها • وأكبر الظن أن الذوق الاوروبى البحت لا يستسيغ كـذلك النكتة المصرية بنوع أخص،لانها نكتة لفظية أكثر منها معنوية •

ومهما يكن من شيء ، فقد عرف الادب الاوروبى ألفاظا كثيرة يدل بها على معنى السخر • ومن أهم هذه الالفاظ :

١ ـ لفظ المزاح أو الهزل : Comique

٢ ـ ولفظ الفكاهة أو التندر : Humour

٣ ـ ولفظ التهكم أو اللذع : Ironie

فأما النوع الاول ـ وهو المزاح أو الهزل ـ فالغـاية منه دائمـا اثارة الضحك ، وليس من غايته غالبا الكشف عن حقيقة من حقائق

النفس . وهذا الهزل على ضربين : منه ماهو خفيف مقبول ، ومنه ما هو ثقيل ليس الى احتماله من سبيل . ولعل هذا الضرب الاخير هو ما يسمى في الادب الفرنسي باسم : La grosse plaisanterie

وهو أداة العوام في سخرهم ، ووسيلتهم في ضحكهم وعبثهم ولهوهم ومرحهم . وهو لهذا لايعتمد على علم أو ذكاء أو معرفة ، لان لغة الشعب نفسه لاتقوم على شيء من ذلك .

والشعب حين يلهو بشخص أو جماعة انما يعتمد في لهوه على السذاجة والصراحة . ويلقى في وجوه من يلهو بهم طائفة من النكات المكشوفة ، ويرميهم بقوارص الكلم ، لايعتمد في ذلك على فطنة المثقفين ، أو ذكاء المستنيرين ، ولعل أدبنا العربى القديم كله من هذا النوع .

واما النوع الثانى ، وهو الفكاهة والتندر Humour فليس الغرض الاساسى منه الاضحاك ، وان جاء الاضحاك عن غير قصد من الكاتب أو الشاعر . وهو استعداد في الاديب الذى ينتقد الناس في شيء من التحفظ ، أو هو قدرة هذا الاديب على كشف النفس البشرية من بعض جوانبها . ثم هو ضرب من الرثاء لاخطاء الفرد أو المجتمع ، وطريقة للتنفيس عن الصدور التى شحنت غيظا من الفرد أو المجتمع . غير أن هذا النوع من السخرية لايقوم على الغموض والابهام . وانما يقوم على مهارة الاديب وذكائه وحضور بديهته ، وغير ذلك من الامور التى لايحسن الشعب شيئا منها .

ثم ان هذا النوع من السخرية كما يكون نقدا للفرد أو للمجتمع ، فانه يكون كذلك نقدا للفكرة أو الرأى أو المذهب . ومن الامثلة على ذلك رواية **(كانديد) لفولتير** ، كما رأينا ، وروايات كل من **(فيلدنج) ، و (سويفت)** وغيرهما .

ومن هذه الامثلة المتقدمة نرى أن صاحب هذا النوع الثانى من أنواع الفكاهة أو السخرية ، ضاحك لابغير قصد ، وان كان في ضحكه شيء من المرارة ، مرح بغير قصد ، وان أخفى وراء مرحه وهجا من نار البغض أو الزراية . ومن عادته أن يمنح جماعات الناس ابتسامة خفيفة ، وهى في الوقت نفسه ابتسامة مخيفة ، لانها تؤذى أصحاب هذه الحماقات السخيفة التى أثارت صاحب السخرية .

وربما كان هذا النوع أيضا من أرقى أنواع السخرية ، لانه أصعبها منالا ، وأدومها أثرا ، وأطولها بقاء ، وأكثرها اعتمادا على العلم

والثقافة ، وأقدرها على الانتقال بالناس من الحقيقة الى الخيال . وصاحب هذا النوع من السخرية ليس هادئا دائما ، ولا باسما دائما ، ولا مرحا دائما ، بل كثيرا ما يكون عنيفا وان قدر على اخفاء هذا العنف .

ومع هذا وذاك ، فان هذا النوع الثانى من أنواع السخرية ـ وهو الفكاهة بطريق التندر ،أدنى الى الاذواق عامة ، وأعلق بالنفوس عامة ، وصاحبه محبوب من الناس كافة ، لانه يستطيع بابتسامة هادئة أن ينال غرضين فى وقت معا : غرض النقد والرثاء، وغرض التسلية والاضحاك .

أما النوع الثالث والاخير ، وهو التهكم أو اللذع Ironie ففيه تلاعب بالالفاظ ، وفيه ميل الى استخدام التورية أو المواربة ، وأسلوب الذم بما يشبه المدح ،وغير ذلك من الاساليب المعروفة فى علم البلاغة . ثم هو بعقول العلماء أشبه ، والى نفوسهم أقرب . ولذا يكثر هذا النوع من أنواع السخرية فى عصور الادب العقلى ، كما سبق أن رأينا ذلك فى الادبين الانجليزى والفرنسى فى القرن الثامن عشر . كما يكثر فى فترات الصراع السياسى ، والصراع الفكرى ، لانها فترات تتميز بالعنف وبالخوف الذى يبدو أحيانا من جانب الادباء ، حرصا منهم على حياتهم ، أو ضنا منهم بكرامتهم أن تداس بأقدام الجبابرة وذوى البطش والسلطان . ويقل هذا النوع الاخير حتى ليكاد يختفى فى العصور التى يسيطر فيها الخيال أو العاطفة على الادب . ولذلك لم يكن ملائما للادب الرومانتى فى انجلتره وفرنسا فى القرن التاسع عشر .

أما فى الادب العربى فقد شاع هذا النوع الاخير ، وهو اللذع والتهكم بطريق التورية والمواربة ونحو ذلك ، وذاع بين الخاصة والعامة ، ولكنه اتخذ لنفسه عند هؤلاء لونا مخالفا للون الذى اتخذه عند أولئك . ومن أجل ذلك نرى التهكم عند الخاصة مبنيا على الرمز ، كما جاء فى كتاب « **كليلة ودمنة** » . ولكننا نرى التهكم أو اللذع عند العامة قد اعتمد من أوله الى آخره على مجرد اللفظ ، وخاصة ما كان على شكل تورية كما قلنا . والتورية فى ذاتها لفظ له معنيان : أحدهما قريب ،والآخر بعيد . والساخر العامى حين يختار ألفاظا من هذا النوع يحمل فى يده وثيقة الخلاص من المأزق الذى يقع فيه ، أو الورطة التى ربما ينزلق اليها .

لذلك وجدنا هذا النوع الاخير من انواع السخرية ، بشكله العامى ، يكثر كثرة هائلة فى الادب المصرى ، لامور كثيرة أوضحنا بعضها ، وربما كشف لنا فيما بعد عما بقى منها .

نوع سخرية ابن مماتى

مما استعرضناه من تاريخ السخرية فى الآداب العربية والمصرية والاوروبية وألوان الاضحاك فيها ، نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن هناك فرقا بين طرق الاضحاك عند الخاصة ، وطرق الاضحاك عند العامة· كما نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن الغرض من الاضحاك عند هؤلاء مخالف كل المخالفة للغرض عند أولئك ·

أما الاضحاك عند العامة فطريقه الهزل والتفكه والتنكيت أو التبكيت، وهو مايسمى فى العامية « بالتنبيط » · وغايته تزجية الفراغ ، وملء الوقت بالفرح أو المرح ، والضحك من حيث هو · ولذلك نرى النكتة العامية كثيرا ما تكون لفظية أكثر منها معنوية ، وتكون فى الوقت نفسه قصيرة المدى الى حد بعيد ، فهى أشبه « بالصواريخ » و العاب الكبريت عند الاطفال ، تسطع سريعا ، وتخبو سريعا ، ولا يكون لها أثر أبعد من هذا المدى ·

ومن هذا القبيل نوادر الحمقى والمجانين ، وحوادث المغفلين · ومنه ما أشرنا اليه من قبل وهو « التنبيط » · ومنه كذلك النكات العامية التى تسمى « بالقافية » · ولا شك أن النوع الاوسط من هذه الانواع ، وهو التنكيت والتبكيت أو « التنبيط » هو أبرع الانواع الثلاثة المتقدمة ، وأعلاها قصدا ، وأدناها الى الفائدة ، فضلا عن تزجية أوقات الفراغ بمجرد الهزل أو الضحك ·

أما سخرية الخاصة فانها تنبنى على العقل والفطنة ، وتقوم على الثقافة وسعة العلم ، وتهدف الى أغراض بعيدة تتصل بالمجتمع ، وما فيه من المبادىء الفاسدة ، أو الهيئات المسيطرة ، أو الطبقات المنحرفة ، أو الشخصيات البارزة ، ونحو ذلك · وان السخرية التى تصدر عن الجاحظ وأبى العلاء فى الادب العربى ، والسخرية التى تصدر عن موليير وبرنارد شو فى الادب الاوروبى ، لاعظم دليل على ما نقول · وانك لتجد فى تهكم هؤلاء لذة العقل ، ولذة السمع ، ولذة البصر جميعا ·

والسخرية التى تصدر عن الخاصة ، وان بدت أقل اضحاكا ، فانها أطول تأثيرا وأقوى سلطانا على المجتمعات والافراد · وهى لهذه الخصال ولاعتمادها على العلم والثقافة ، ولصلتها بالنفس الانسانية ، والغرائز البشرية ، والاخلاق الفردية والجماعية ، يكون لها نوع من الخلود والبقاء ، الذى يشبه خلود الادب نفسه والفن ذاته ·

فبينا تقتصر العامة فى نقدها وضحكها على مجرد القذف والسباب وقلة الاحتياط فى ارسال الكلام، اللهم الا فى عصور الظلم والعسف ونحو ذلك ،وبينا نرى العامة لاتراعى للاذواق المهذبة قدرا ، ولا لقواعد الاخلاق وزنا ، فتخرج فى كثير من الاحيان عن حدود الآداب المرعية ، وتسف فى اللفظ الى حد ذكر العورات ونحو ذلك ـ نقول بينا نرى العامة فى ضحكهم وفكاهاتهم يفعلون كل ذلك ،ويضحكون ضحكات عالية من كل ذلك ـ اذ بنا نرى الخاصة من الناس،وهم المثقفون من الشعراء والكتاب والادباء ونحوهم ،يعتمدون على الرمز ، لايسفون اسفافا ظاهرا فى اللفظ ، ولاينتهكون انتهاكا ظاهرا حرمة الادب والاخلاق ، ويغيثهم فى كل ذلك طائفة كبيرة من الوسائل الادبية واللغوية لايستطيع العامة أن يظفروا بشيء منها ٠

ومن ثم تنوعت طرق (السخرية) عند الخاصة أكثر مما تنوعت طرق (الهزل أو الضحك) عند العامة ٠ ولعل القارىء يلاحظ أننا سمينا ضحك الخاصة باسم (السخرية) ، ويصح أن يكون بين أسمائه كذلك (التهكم) ٠ فى حين اننا سمينا ضحك العامة باسم (الهزل) ويصح أن يسمى أيضا (بالمزاح) ٠

فمن طرق السخرية عند الخاصة على سبيل المثال : (طريقة البتالة واظهار الحمق أو الجنون) كما كان الشأن مع سيبويه المصرى الذى ظهر فى أواخر العصر الطولونى ، وأوائل العصر الاخشيدى ٠ وكانت سخريته من رجال العصرين سخرية مرة أخافتهم وأزعجتهم وجعلتهم يتنافسون فى تقريبه والتحبب اليه ٠

ومنها (طريقة التساؤل والتغابى وتوجيه الاسئلة المحرجة على سبيل التعجيز) ، كما كان الشأن مع الجاحظ حين وجه لغريمه فى رسالة (التربيع والتدوير) مائة سؤال أو تزيد ، وهو يعلم أن الاجابة عنها مستحيلة أو كالمستحيلة ، ولكن الجاحظ أراد بهذه الاسئلة الكثيرة أن يعبث بغريمه ،كما يعبث القط بالفأر ، وأراد أن يشعره بالجهل أو العجز ، وأن يبينه للناس على هذه الصورة التى تبعث على الضحك ٠

فمن هذه الاسئلة التى وجهها الجاحظ الى غريمه المتعالم :

حدثنى كيف رأيت الطوفان ؟

ومتى كان سيل العرم ؟

ومتى تبلبلت الالسن ؟

وما حبس غراب نوح ؟

وكم لبثتم فى السفينة ؟

ومنذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء ؟
وأى هذه الاودية أقدم : أنهر النيل ؟ أم نهر دجلة ؟ أم سيحون وجيحون ؟

وكذلك فعل أهل مصر ببعض خلفاء الدولة الفاطمية، حين دفعوا اليهم الاوراق وألقوا بها على المنبر، وسألوهم فيها أن يخبروهم عن أسماء كاتبيها الخ ..

ومنها - أى من طرق السخرية عند الخاصة - (طريقة المحاكمات الخيالية) ، كما كان الشأن مع المعرى فى رسالة الغفران ، حين أخذ يحاكم الشعراء والادباء وأصحاب الكلام ، ويغمز كلا منهم بما ارتكب من خطأ استحق عليه النار ، أو يذكر له بعض الحسنات التى شفعت له فدخل الجنة . وفى هذه المحاكمات - فضلا عن كل ما تقدم - ضروب من التشكك فى الاديان قصد اليها الشاعر الفيلسوف ، وأشبع بها رغبته فى حرية التفكير .

ومنها - أى من هذه الطرق المتقدمة (طريقة الرؤى والاحلام ، وكتابة الرسائل ، واجراء الاحاديث على ألسنة الحيوان) كما كان الشأن مع الوهرانى فى رسائله التى أشرنا اليها ، وكما كان الشأن مع كاتب اسلامى قديم ، هو ابن المقفع فى كتابه كليلة ودمنة .

ومنها (طريقة الملهاة أو الرواية المضحكة) وهى ما حرم منه الادب العربى باستثناء تلك المحاولة الضعيفة التى أشرنا اليها ، وهى محاولة « خيال الظل » . أما الادب الاوروبى ، فقد اعتمد اعتمادا تاما على هذه الطريقة ، وبخاصة عند كاتبين كبيرين هما (موليير) فى فرنسا، و (برنارد شو) فى انجلترة . وعن الادب الاوروبى أخذنا نحن هذا اللون الزاهى من ألوان السخرية .

***

تلك اذن بعض ألوان السخر عند الخاصة ، وقد أشرنا من قبل الى بعض ألوان الهزل أو الفكاهة والدعابة عند العامة . فمن أى النوعين الرئيسيين السابقين يمكن أن تكون سخرية الاسعد بن مماتى فى كتابه (الفاشوش فى حكم قراقوش) ؟

ان الناظر فى الحكايات الصغيرة التى اشتمل عليها كتاب ابن مماتى يرى لاول وهلة - انها شبيهة بنوادر الحمقى والمغفلين وهى

النــوادر التى غصت بهــا كتب الادب العــربى ، وستضرب لها ــ أولا ــ هذه الامثلة :

قيل ان أحد المغفلين سأل مغفلا آخر :

ــ كم فى هذا الشهر من يوم ؟

فنظر اليه وقال :

ــ لست والله من أهــل هــذه المدينة !

وسمع أحد المغفلين أن صــوم يوم عرفة يعدل صوم سنة كاملة، فصام الى الظهر وقال :

ــ يكفينى ستة أشهر .. !

وجاء جمــاعة الى رجــل مغفل يسألونه فى كفن لجارية لهم ماتت. فقال لهم :

ــ ما عندى الآن شىء ، ولكن عاودونى فى وقت آخر .

قالوا : أفنملحها الى أن يتيسر عندك شىء ؟

وحكى عن لص مغفل انه تسور بيتا فوجــد رجلا وزوجته وهى تقول له :

ــ من أين اكتسبت هذا المــال الكثير ؟

فقال لها :

ــ كنت لصــــا . وكنت اذا تسورت منزلا صبرت الى أن يطلع الفجر . فاذا طلع اعتنقت الضوء الذى فى (المنور) ، وتدليت بلا حبل ، وقلت : شولم ! شولم ! ونزلت ، فأخــذت جميــع مافى البيت، ولا تبقى ذخيرة من الذخائر الا ظهرت لى . ثم أقول : شولم ! شولم ! وأصــعد فى الضوء ، فلا ينتبه أحــد من أهــل البيت . وأذهب بلا تعب ولا كلفة .

فســمع اللص المغفــل ذلك . وصبر الى أن طلع الفجــر ، ونام أهــل البيت ، فتــعلق فى ضوء المنور فوقع وتكسرت أضلاعه . فقام اليه صــاحب البيت وقبض عليه وسلمه الى صاحب الشرطة .

***

ان الناظر فى حكايات ابن مماتى فى كتابه الفاشوش يراها من هذا النوع الذى ذكرت الآن طرفا منه وهو نوادر المغفلين والحمقى. واذا تبين له ذلك تبادر الى ذهنه أن أدب ابن ممــاتى هو من هــذا الضرب الذى سميناه باسم « الهزل » أو الفكاهة ،وقلنا أنه لا يصدر ــ غالبا ــ الا عن العامة الذين لا هم لهم الا تزجية أوقات الفراغ بمثل ذلك .

ولكن نظرة أخرى الى كتاب الفاشوش تدلنا دلالة صريحة على أن هذه النوادر الصغيرة لم تكن من محفوظ العامة قبل أن تظهر فى كتاب ابن مماتى ٠ وانما هى من تأليفه على غرار النوادر التى حفظها الناس الى عهد ابن مماتى، وهى فوق تأليفها على يد هذا الكاتب ذات غرض معين تهدف اليه ، ومقصود بها شخص معين يراد النيل منه والسخرية به ٠ أما الغرض المعين هنا فهو « التشنيع » والعبث بحقيقة شخص من عظماء التاريخ ، ومسخ صورته فى أذهان الخاصة والعامة مسخا تاما ٠ والمقصود بكل هذا المسخ والتشنيع هو الامير بهاء الدين قراقوش صاحب الاعمال العظيمة فى التاريخ الايوبى ٠ ولاشك أن الطريقة التى استخدمت لهذ الغرض من أغراض هذه السخرية تقربها تقريبا تاما من سخرية الخاصة ٠

ذلك أن القصد الى التأليف بطريقة معينة ، ولهدف معين ، واضح تمام الوضوح فى نوادر الفاشوش من أولها الى آخرها ٠ وأكبر الظن أن ذهن ابن مماتى كان مشحونا بالكثير جدا من نوادر الحمقى والمجانين والمغفلين وأمثالهم ، على نحو مايشحن بعض الظرفاء من الناس أذهانهم بأكبر عدد ممكن من النكات فى أيامنا هذه ٠ ومتى امتلأ ذهن الرجل منهم بمثل ذلك سهل عليه أن يصوغ الكثير منه على مثاله ٠

وأكبر ظنى أن الاسعد بن مماتى حين عمد الى وضع كتابه ، لم يصنع أكثر من ذلك ٠ ومن ثم جاءت نوادره بعيدة فى جملتها ــ كما قلنا ــ عن حقيقة الامير قراقوش ٠ ولكنها نجحت نجاحا منقطع النظير فى تشويه صورته التى عرفها التاريخ الصحيح ٠

والتاريخ الصحيح لم يذكر أكثر من أن قراقوش كان رجلا عسكرى الطبع ، لايعرف اللين ، ولا يحب الكسل أو التراخى فى الامور ، وانه كان شديدا على القاهريين حين احتاج الى بعضهم للعمل مع الاسرى فى بناء الاسوار والحصون ٠ وكان قراقوش اذا لمح من بعيد رجلا قاهريا ذاهبا فى الصباح الى عمله الذى يكسب منه القوت ، استوقفه ، وأرغمه على العمل معه ، ثم أعطاه أجره على هذا العمل الذى أتمه ٠ فيأخذ العامل هذا الاجر وهو يتميز فى الوقت نفسه من الغيظ !

وعلى هذا فقد جمع ابن مماتى، فى كتابه الفاشوش ، بين طريقة العامة وطريقة الخاصة ٠ ولذلك راج كتابه بين هؤلاء وأولئك رواجا عظيما ، وبلغ من ذلك حظا لم تبلغه السخرية قديما أو حديثا ٠

وبمرور الزمن أصبح اسم قراقوش رمزا للبله ، والعتـه ، والغفلة ، والجنـون وما شئت من صفـات الغرابة والشذوذ .

وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التي تسمع في تركيا وتسمع في الشـام ، وتطلق هنـاك على « خيـال الظل » انمـا ترجع في أصلهـا الى اسم « قراقوش » . فقد حورت هناك باسم «كراكوز» وحورت في مصر باسم «أراجوز» ودلت في جميع البيئات الاسلامية على هذا المعنى .

وأي دليل أكبر من هذا على أن نجاح ابن مماتي في سخريته ؟
ان عبقرية ذلك الكاتب المصري القبطي الاصل ، تقوم على قدرته العجيبـة على ارضـاء الخـاصة والعـامة ، وعلى الاخـذ من هؤلاء وهؤلاء ، وعلى اختيـار طريقـة للتشنيع تقوم على تأليف النوادر المضحكة التي تصـلح كل نادرة منها لان تكون رسما كاريكاتوريا من أشد الرسوم نكاية في عدو ، وأكثـرها ايلاما لخصم ، وأدعاها للضـحك منـه الى أطول مدة ممكنة !

ولو عاش مثل هـذا الـكاتب القبطي في عصر كعصرنا هذا لكان صاحب مجلة أو صحيفة هزليـة تزرى بصحف يعقوب بن صنوع التي ذكرنا منهـا صـحيفة أبي نظارة ، وأبي زمارة ، وأبي صفارة ، ونحـوها ، كما تزرى بصـحف حديثة كحمارة منيتي ، والكشكول ونحوهما .

ولا شك أن القدرة على الاضحاك موهبة من مواهب الله تعـالى .. وهي من الاسلحة القوية في هدم المبادىء الفاسـدة والدعوة لاقامة المبادىء الصـالحة .. فليتق الله والوطن أصـحاب هذه المواهب الممتازة ، فانهم مسئولون عنها ، ومحاسبون عليها .

***

وبعد ، فلك أيها الامير المظلوم ـ بهاء الدين قراقوش ـ أن تتأوه في قبرك ، أو تتألم في مرقدك ، وأن تشكو هذا الظلم الذي وقع عليـك الى خالقك . ولـكنك لن تستطيع أن تغير هذه الحقيقـة ، وهي أن لك في أذهان النـاس صورة مخالفـة لصـورتك ، وأن هـذه الصـورة الشـوهاء خالدة خلود الزمان ، باقية بقاء الانسان .
وكل مافي الامر انك تستطيع ـ ان أردت ـ أن تردد في قبـرك هذين البيتين :

لي حيـلة فيمـن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخـلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليـلة !

انتهى


قصة اليوم
جسر الموت
٧ مايو


Exclusive
For
www.ibtesama.com